يوسف القعيد

أربع وعشرون ساعة فقط

أربع وعشرون ساعةً فقط

يوسف القعيد

١

.. لا أعرف من الذي قال العبارة الجميلـة التـي كنت أراها مبرر وجودي في الدنيا. والتي لخصت لي كل ما مررت به في حياتي. أحفظهـا منـذ أن التقطتهـا أذنـاي مصادفة. ولا أدري متى وأين كان ذلك؟ ولكن العبارة دخلت ذهني لكي تبقى فيه. ويظل طنينها يصلني.

تقول الكلمات "إن الله سبحانه وتعالى. كان يريـد أن تصل رحمته إلى كل مخلوق على الأرض؛ لذلك رحمةً منه بعباده، خلق الأمهات".

لا أجدني في حاجة إلى القول إنني أم. وإن أبنـائي كثيرون، وكل الذي سأرويه لكم الآن يدور حول أبنائي ومـا فعلوه بي وبأنفسهم.

لأقدم لكم المشهد الذي سأبدأ منه أولا.

لم يكن يؤنس وحشتي.. ويبدد وحدتي سـواه. إنـه التليفزيون، آخر المخلصين لي. والوحيد الذي لم يفارقني أو يتركني. يخيل إلي في بعض الأحيان أنه رفض البعاد عني.

رغم كل الإغراءات التي عرضت عليه. ظل معـي، رهـن إشارتي. أول من يطيعني، وآخر من يفكر في معصيتي.

أطلب منه الكلام فيتكلم. وأصد عنه فيلوذ بالصمت. علاوة على أنه من روائح المرحوم. هو الذي اشتراه لي في سنوات ظهوره الأولى. ومازلت أبادله وفاء بوفاء. وودا بود. ورفضت كل المحاولات التي جرت معي من أجل تغييـره. رغم الشيخوخة التي بدأت تظهر على ملامحه. والتعب الذي دب في أوصاله، والوهن والخرفشة والتقطيع الذي أصـاب صوته.

كنت أشاهده مستقلية على ظهري. أنظر إليه. وعندما أتعب من الخيالات ويتوه عقلي، أرفع عيني إلـى السـقف. كانت مارلين مونرو مع بعض الرجـال الـذين يفضـلونها ساخنة، والعصابة التي تطارد الموسيقيين. والبعض يحـاول الاختباء "يا روحي ما بعدك روح".

كان كل تفكيري يربط بين الفيلم والتليفزيون الـذي يعرضه، كلاهما من زمن الأبيض والأسـود. ولـن أغيـر تليفزيون المرحوم حتى يطلب هو – التليفزيـون – الإحالـة إلى المعاش عندها قد يكون لدي كلام ثان.

اهتزاز خفيف يصيب الشقة. أقصد البيت الذي أعيش فيه وأسميه الشقة. النجفة المعلقة في السقف اهتزت. أوشكت أن تكمل نصف الدائرة. وكوب الشاي الفـارغ الـذي كـان أمامي وقع في الصينية. والغسيل القليل المكوم علـى حافـة الكنبة التي بجواري، وقع على الأرض.

كنت بين اليقظة والنوم، قلت لنفسي: ربمـا كانـت أحلاما. من الجائز أن تكون هـواجس الوحـدة، وكـوابيس العصابة التي كانت في التليفزيون.

كل شيء جائز. لم أتوقف أمام الأشياء التي وقعـت. قلت لنفسي "بعدين" وهل لدي ما يتطلب مني عمله بسـرعة. الزمن براح ولا نهاية له. وعندما يكون أمـامي أي عمـل أفرح؛ لأنني ضمنت قضاء وقتي فيه، أكثر ما أخـاف منـه الوقت، ذلك أنني لا أعرف ماذا أفعل به. خاصـة بعـد أن جرى لي ما جرى.

أنا متأكدة أنني سمعت صياح ديك في عشة الفـراخ التي في الجنينة الخلفية، ولكني تـذكرت أن الوقـت لـيس الفجر. وتناهت إلى سمعي نونوة قطة. مع أن رائحة اللحم أو السمك أو الدجاج لم تعد تخرج من تحـت عتبـات أبـواب

البيوت ولا من شبابيك المطابخ منذ زمان مضى. ومن هـذه البيوت بيتنا. وهذه الروائح راحت وراح معها زمانها.

رن في أذني نباح كلاب من الجنينة الأمامية للبيـت، رغم إن الدنيا لم تليل بعد. وضـوء النهـار يـرش البلـد. والكلاب تنبح على الغريب في الليل أكثر من النهار.

عندما تكررت هـذه الأصـوات تشـاءمت. فهـذه المخاليق البكماء ترى ما لا نستطيع رؤيته. وتحاول أن تنبهنا نحن الذين لنا ألسنة. ولكن بلا بصيرة. تقـول لنـا – كـل بطريقته الخاصة التي خلق قادرا على القيام به – إن هنـاك خطرا في الطريق إلينا، قلت لنفسي: اللهم اجعله خيرا.

أصخت السمع أكثر. لماذا لا أحاول سـماع البنـي آدمين؟ في هذا الوقت من النهار. تخف الرجل في الشـارع. كان هناك ثمة صياح. ومتى كانـت الشـوارع تخلـو مـن الزعيق؟ حاولت تمييز ما يقـال. الأولاد لـم يعـودوا مـن المدارس. ولا يوجد من يلعب الكرة الشراب تحت شـبابيك البيت. وهذا الوقت يلتم فيه الناس. يعتصمون ببيوتهم حتـى تداريهم الحيطان. ومن يريد الخناق – ولكن داخـل بيتـه –

لديه ألف سبب وسبب ليوصله إلى هذا الخلق روحها في مناخيرها.

بيتي مثلي. فرداني ووحداني. شقة أرضي توحد ربها، ليس لها فوق. وليس لها تحت. قلت لأحاول سماع أصوات البيت الذي على يميني. والبيت الذي على شمالي. بيوت مبنية في هذه الأيام. والبيت عالٍ. مكون من كم كات. مثل بيوت البنادر. هرج ومرج وهرجلة على السلالم. وصلتني من ناحية اليمين ومن ناحية الشمال.

قلت لنفسي، ربما كان هذا وقت عودة العفاريت من المدارس، لا يراعون الوقت. ولا بدائية بناء البيوت التي بنيت بالقسط غير المريح. والفوائد تصبح أكبر من الدين. اختفى أعيان زمان. وها هم المقاولون يمصون دماء الغلابة. الأولاد لا يصعدون على السلالم، ولكنهم يحاولون هدمها. لو كانت هذه البيوت قديمة. لتهدمت منهم. مفاعيص يقولون إنهم زهقوا من البيوت. ماذا أقول أنا عن نفسي؟ البيت هو كل عالمي. وعندما أخرج منه أصبح مثل السمك عندما يخرج من الماء. أخاف الموت. الشوارع أمكنة للوفاة. ولا تعود لي الروح إلا عندما أجد نفسي بين جدرانه مرة أخرى.

حاول عقلي المتعب أن يربط بين ما جـرى فـي بيتي، وبين الأصوات التي مازالت تصـلني مـن الشـارع. طشاش كلام. ولكني كنت متعبة، لم أفعل أي شيء ومتعبـة. متعبة من الراحة، متعبة من التعب نفسه. بعيد عنكم الشر.

كانت الدوشة في حالة تزايد مستمر. وتحولت إلـى صراخ وزعيق وبكاء. خيل إلى وأنا أحاول تمييز الأصوات التي في الشارع. أن جدار الصالة. قد امتد فيه شق أسود. بدا واضحا رغم أن البياض قديم وباهت. ويبدو أنه لا لون لـه. كان الشق نازلا من أعلى لأسفل ولكـن بصـورة متعرجـة وليست مستقيمة. كأنه دمعة تنزل على خد مليء بالتجاعيـد. فتلف وتدور وتتعرج في طريقها حسب هذه التجاعيد.

عدت أستمع إلى الأصوات القادمة من الخارج فـي هذه الحصة. حيث يصل الهدوء إلى منتهاه. فما الذي جـرى في هذا اليوم؟! إنه ليس الجمعة ولا الأحـد. حيـث يـؤجز الموظفون وتلاميذ المدارس في الأول. والعمال في الثـاني. ويبقون في بيوتهم ولا يسافرون إلى البنادر التـي يعملـون فيها. والكتمة في البيت. تلك البيوت المزدحمة. تولد الشـر.

وبقاء الناس في مواجهة الناس يصبح مثـل الشـرر الـذي تتطاير منه النيران.

يوم عادي من أيام الأسبوع. وإن كان يومـا غيـر عادي بالنسبة لي. فيه ما يميزه عن الأيام الأخـرى. علـى مدار السنة، في الزمان القديم. كان المرحوم يغضب عنـدما أغلق الباب في عز النهار. كان يطلب مني تركه مفتوحا. أو على الأقل مواربا، وعندما كنت أقول له إن البـاب المغلـق يمنع القدم المستعجل، كان يقول لـي: يـا أم الـدنيا البـاب المفتوح يسعف الجار المحتاج، وكان يحلم ببيوت تركب لهـا الأبواب في الليل فقط. إن كان لا بد من وجود باب.

كانت الدوشة مستمرة. وعمرها ما استمرت كل هذا الوقت. حتى الخناقات التي نؤرخ بها لحياتنا تنتهي سـريعا، وينطفئ الغضب في الصدور قبل أن يشتعل. فكرت في القيام من رقدتي والنظر من الشباك إلى ما يجرى. فالناس لبعضهم مهما كانت الظروف. ولكني تذكرت تورم قـدمي وراحـة الاستلقاء ،وجمال السـلطحة ،وصـعوبة القيـام والنهجـان والفرهدة، فبقيت كما أنا.

كانت قدرتي على التركيز فيما كنـت أشـاهده قـد تلاشت. كان آخر ما بقي في الذهن ممـا كنـت أراه. كـان جمال البطلة. الذي جعلني أتحسر على أيام الشباب التي ولت وأخذت معها كل ما هو جميل وعذب فـي العمـر. سـألت نفسي: لماذا لم يتوقف بي العمر في مرحلة الشباب؟!

سأحاول التقاط أنفاسي وأقوم. سرح خـاطري فـي الدربكة القادمة من الخارج. هل هي خناقة بـين الجيـران؟ وأي الأيام تخلو من الخناقات؟ حريق شب في بيت قريب من تلك البيوت القديمة المحملة بالحطب بدلاً من السـقوف فـي البيوت الجديدة التي يسـمونها عمـارات تشـبها بعمـارات البنادر؟!

لماذا ينزعج الناس من الحرائق والنيـران. الحيـاة كلها حريق مستمر. لا يريد أن يطفئه أحد. الأسعار مشتعلة. والشوارع ملتهبة. ونظرات الناس قطعة من النيران. والكـل يتعايش مع هذه الأمور الغريبة. فينظرون لها كما لو كانـت من الأمور الطبيعية. ولكنهم يفزعون من حرائـق البيـوت. التي ربما كانت أقل خطرا من أي حريق آخر.

قلت لنفسي " يا خبر بفلوس بكرة يبقى ببلاش" لأبقَ كما أنا، وكل الأمور ستصل إلي. عدت أحاول متابعـة مـا يجري على الشاشة. أخشى أن يكون قد فاتني الكثيـر منـه. يبدو أنني نسيت التليفزيون، اكتشفت أن الذي يصل إلى أذني سرسعة المرأة الجميلة. وجري الرجال الذين لا عقـل لهـم وراءها. والصورة عبارة عن نغمشة وخربشة على الشاشـة البيضاء. التي كانت مخروشة أصلاً.

كأنهما كانا على موعد. التليفزيـون الـذي باظـت صورته. وأخشى أن يكون إصلاحه حكاية. كل أمـر سـهل وبسيط يصبح حدوتة، والرزع والخبط على الباب. مـع إن الجرس موجود ويعمل. وقد تأكدت من أنه سليم؛ لأنه منـذ يومين لم يدق علي أحد، وكذلك التليفون. الذي لم يرن منـذ مدة. فتصورت أن عطلاً قد أصابه. كنت أرفع السماعة حتى أستمع إلى الحرارة وأعيدها إلى مكانها.

الباب عليه خبط. وجرس التليفون يرن في وقـت واحد قلت لنفسي: " الفقي لما يسعد" تضاحكت في خـاطري؛ لأن المثل حبك. احترت. أرد على مـن أولاً. الـذي علـى الباب؟ أم الذي على التليفون؟! تليفون مستعجل. رنة والثانية

ويعود إلى الصمت من جديد. كل الذين يستخدمونه ملهوفون مهرولون كأن وراءهم المحابيس سيطلقون سراحهم. ولكـن الخبط الذي على الباب من النوع الذي يوغوش، لـيس مـن الخبط العادي. الذي يخبطه إنسان باله رايق.

حسمت حيرتي. ورفعت سماعة التليفون. قبـل أن يسكت عن الرنين الذي طال أكثر من أي مرة سابقة. وقبـل أن أضع السماعة على أذني التي تسمع بصعوبة زعقت بعلو الصوت:

– مين؟.

والكلمة التي قلتها للسماعة جعلت الذي يخبط علـى الباب يتصور أنها له. رغم أنني لم أقل: مـين اللـي علـى الباب؟ أو مين اللي بيخبط؟.

من وراء الباب جاءني صوت صبي:

– زلزال يا خالتي.

لم يقل غيرهما وجرى مبتعدا عن باب البيت الـذي هو باب الشقة، الناس تقول عنه باب البيت وأنا أقـول بـاب

الشقة. وقد ظلت كلمة الشقة غريبـة علـى النـاس. رغـم السنوات التي مضت على إقامتي بينهم.

زلزلة؟! سألت نفسي. هل وصلت التخاريف بالنـاس إلى هذا الحد؟ مساكين مخاليق هذه الأيام. نصـفهم مجـانين والنصف الآخر يشاور عقله أن ينضم إلى جنة العبط.

أوشكت أن أنسى سماعة التليفون. من رجفة الكـلام الذي سمعته. وجود السماعة في يدي هو الذي ذكرني بهـا، قربت السماعة من أذني:

– ألو.

جاءني صوت من الناحية الأخـرى مثـل زقزقـة العصافير قبل الشروق. عندما كنت أصحو وقـت الفجريـة ؛لكي أعد الإفطار للعائلة التي كانت:

– بونسوار يا ستو.

كان الصوت غريبا. لم يحفر لنفسـه مجـرى فـي وجداني؛ لأنني لم أسمعه من قبل. في الصوت جرأة غريبـة بالنسبة لبنت في سن صغيرة. لأن صوتها بدا لي كأنـه قـد

ودع الطفولة بالأمس. قدمت نفسها لي لأن صوتي بدا عليـه الاستغراب:

أنا خطيبة نجيب. عاملة إيه في الزلزال يا طنط؟

يبدو أن المسألة جد. رغم أنها تتكلم عن الزلزال كما لو كان قطعة من الجبن اشترتها من عند البقال. هذا هو يوم الحيرة الكبرى بالنسبة لي. أخرج من حيرة، لكي أدخل فـي حيرة أخرى. احترت من جديد. هل أسألها عن الزلـزال؟ أم عن حكاية أنها خطيبة نجيب ابني؟.

نجيب ابني القاضي الذي طلعت به من الدنيا. وهـو ليس موجودا في مصر، متزوج وزوجته حامل في مولودهما الأول. الذي أنتظره بفارغ الصبر. صدق من قال. أعز مـن الولد ولد الولد. ابني نجيب أحب إلى من نفسي. والزلـزال الذي تتكلم عنه هذه البنت المقصعة كما اللبانة مهم أيضا.

عدت للحيرة من جديد. واحتل المساحة بيني وبينهـا في سماعة التليفون صمت طارئ. حاولت الهروب بما أقوله عادة. في مثل هذه المواقف الصعبة:

– النمرة غلط يا ابنتي.

قبل أن أضع السماعة. كانت قد حلفت برحمة أبيهـا أن النمرة صحيحة. وإن نجيب – هكذا نطقت الكلمة – هـو الذي أعطاها لها قبل أن يسافر إلى الخلـيج " وكـان ذلـك صحيحا" وإنه اتفق معها على إعلان الخطوبة بعد العودة في الصيف القادم. وإنه أوصاها قبل سفره في الشهر الماضـي، وكان هذا أيضا صحيحا، أن تأخذ بالها مني. ولكن من بعيـد لبعيد؛ حيث إنني لا أعرف موضوعها. والمعرفة المفاجئة قد تسبب لي صدمة لا يتحملها قلبي. وهذا صحيح لثالث مرة.

أكدت أن نجيبها قال لها إنه هو الذي سيعرفني بهـا عندما يعود. وإنها ترعاني دون أن تظهر في حياتي. تنفيـذًا لنصيحة الحبيب الغالي المتغرب. ولكن الزلزال حكـم، إنـه حالة استثنائية. فكان لا بد من هذه الخطوة التي قد يغضـب منها نجيبها. لم تكن تحب الإقدام عليها لولا الظروف؛ ولذلك فهي تعتذر لي ألف مرة. فهي متربيـة وتعـرف الأصـول والواجب.

أي الزلزالين يهزني من أعمـاقي؟ الزلـزال الـذي يقولون إنه هز البلاد ولم أشعر به؟ أم زلزال عمـري الـذي أسمعه عن نجيبها؟ عشنا وشفنا. كنت مؤمنـة أنـه نجيبـي

ونجيب زوجته. ونجيب ابنه الذي لم يولد، ولكن هـا هـي الغريبة تستولي عليه لدرجة أنها تتصوره نجيبها.

الزلزال الكبير مقدور عليه. ما سيجري على الـدنيا سيجري على. حاياالله أنا واحدة من عباد الله الغلابة. ولكـن ماذا أفعل في زلزال عمري منذ رحيل رفيق حياتي. ونجيبي – لم يعد من حقي استخدامها – حصلت عليها واحدة أخـرى لا أعرف من أين خرجت لنا لتقش تحويشة العمر بضـربة واحدة.

كل ما تجمعه النملة في عمرها يأخذه الفيل في خفه، وأنا النملة. والبنت المقصعة الفيل الكبير. ليس مـن حقـي سوى أن أقول نجيب ابني. أو نجيب ابن بطني، أما نجيبـي التي كنت أقولها له. سرقتها امرأة أخرى. غريبة عنا. وهكذا ضاقت الدنيا في وجهي، أصبحت أضيق من خرم إبرة.

كدت أن أصرفها بالتي هي أحسن، لو كان في البلـد زلزال فلا بد من التصرف، طلبت مني بإلحـاح لا أعـرف كيف استجبت له. رجتني أن أحضر ورقة وقلما. وبعـد أن أحضرتهما. قالت إنها تعرف من نجيبها. يا بنتي لماذا كـل هذا الوجع المتلاحق؟ أعطني فرصة لآخذ نفسي.

ارحميني يرحمك الله. نجيبها قال لها إنني أعرف القراءة والكتابة. وهذا صحيح. كم من الضربات الموجعة توجهها لي اليوم؟.

أملتني عنوانها في مصر. ورقم تليفونها. قالت إنها تقدر ظروفي وتعرف أن علاقتي بزوجة نجيب ليست على ما يرام؛ ولهذا فهي تعرض علي أن تنزل وتركب سيارتها وتحضر إلي. فهي تعرف البيت. وكثيرا ما أوصلت نجيب إلي وانتظرته حتى تعود به بعد زيارته لي، اكتشفت أنه في الإجازة الأخيرة كان يأتي إلي مستعجلاً ويمشي ملهوفًا. وقلت ربما كانت زوجته هي السبب.

آخر مرة خيل لي. بعد أن أضاء قلب الأم الموقف، أن شخصا ينتظره وكدت أن أسأله، ولكنني كتمت السؤال في حبة الفؤاد. عرضت علي الحضور لكي تأخذني عندها حتى ينتهي موضوع الزلزال. الذي جرى لن يكون الأخير. وقد تأتي هزات أخرى. وربما كانت أعنف من الزلزال الأول أو ربما أهدأ. علم هذا عند الله. حتى أنت يا فاجرة تتحدثين عن الله. وكأنك تعرفينه.

قالت إنها تعرف من نجيبها أن بناء البيت لـم يكـن جيدا، لم تكمل الجملة، لا بد أن الخط انقطع عند هذا الحـد. وضعت السماعة. لا بد أنها ستطاب، جلست أنتظر. المكالمة التالية لن تحمل لي أية راحة. بل سأخرج من زلـزال إلـى زلزال آخر، أكثر منه عنفًا.

كل ما تقوله صحيح. ولكـن هـل أصـدقها بهـذه السهولة؟

نجيب ليس من هذا النوع من الرجـال. أعـرف أن زوجته تترك لها بلاد، إن المسكين طفش وسـاب لهـا بـر مصر، ولكن ابنه القادم في الطريق ما ذنبه؟ إن ابتسامة منه لحظة الصباح تساوي تحمل مليون امرأة نكدية مثل أمه.

عاود التليفون الرنين. ولكن الصوت كان متقطعـا. كانت هي نفسها، عرفتها من تغريد صوتها. لا أعـرف إن كان صوتي سيصلها أم لا. شكرتها ووعدتها بالاتصال بهـا إن احتجت إليها. من يعرف ماذا سيجري في الأيام القادمة؟

المصائب تأتي وراء بعضها مثل سحب الشتاء.

في المكالمة الأولى والأخيرة كانت هي المتكلمـة على طول الخط وهذه المرة، كنت أتكلم ؛لأنني فشلت فـي الاستماع إلى كلمة واحدة منها. ولأنني كنت أريد اتقاء سماع المصائب التي تنزل من فمها مثل الأحجار.

كانت قد قالت لي في المكالمة الأولـى، إن نصـف ساعة قد مرت على الهزة الأولى، وما دام البيت بقي سليما. فلن يكون هناك شر بعد ذلك. ثم انقطعت الحرارة وأصـبح التليفون قطعة من البلاستيك التي لا تنطـق، ولا تقـدم ولا تؤخر.

مكالمة مبتورة. لم يصلني منها شيء. ومن المؤكـد أنها لم تسمع كلمة واحدة مني. حتى كلمة مع السـلامة. لـم يقلها أحدنا للآخر، كنوع من النهاية التقليديـة لأي مكالمـة. وهي كلمة تبدو أكثر أهمية في مثل هذه الظروف. وضـعت سماعة التليفون وأنا أتصور أن الحرارة لا بد أن تعود مـن جديد، أصبح وسيلتي الوحيدة في الاتصـال بالـدنيا، الـذين حولي لن يفعلوا أكثر مما قاله الصبي الذي جرى. لا بد وأن هناك من يريدون الاتصال بي. ولكن التليفون لـم ينطـق.

أمسكت بالسماعة، ورفعتها، قربتها، مـن أذنـي، لـم تعـد الحرارة موجودة، سمعت وشًا غريبا، أسمعه لأول مرة.

تذكرت أبنائي. زلزال والكل بعيد عني. هل لم يفكر أحد منهم في الاتصال بي؟ هل فعلت هذه الفاجرة ما لم يفعله أبناء بطني الذين أفنيت عمري في تربيتهم؟ جلست أحصـي في ذهني الذين يعرفون رقم تليفوني، سواء داخل مصـر أو خارجها. الذين في مصر اسـتبعدت الـذين لا توجـد فـي تليفوناتهم خاصية النداء الآلي. والاتصال بي يتطلب الذهاب إلى السنترال. ولكني بعد أن استبعدتهم عدت أتساءل، وهـل الذهاب إلى السنترال كثير علي؟!

كنت أتصور بعد أن عرفت مـا جـرى. أن زحـام الاتصال بي سيصبح مثل يوم الحشر. ولكنهم خيبوا ظني. لم يفكر أحد في الاتصال بي، حتى كنوع من تأديـة الواجـب. ومن أجل أن يقول كلاما لا معنى له.

راحت السكرة وجاءت الفكرة. ماذا سـأفعل؟ هـل أجلس في انتظار اتصال قد لا يجئ؟ صمت التليفون أصـبح مثل صمت القبور التي زرتهـا هـذا الصـباح. واسـتبدال الحرارة بهذا الوش يعني أن عطبا مـا أصـاب التليفـون.

وتليفونات الأرياف تركب لكي تعطل وليس مـن أجـل أن تعمل. أي شيء وكل شيء يعطلها. فما بالكم بالزلزال الـذي يحدث؟ هل أبقى في البيت. أضع يدي على خدي أم أتحرك؟ وإن تحركت فإلى أين أذهب؟! هل أسافر إلى البندر من أجل الاطمئنان على أولادي؟.

كلهم هناك. لم يبق منهم واحد معي.. هـل أسـافر إليهم. ومن يضمن لي أن أجدهم؟ قد أسافر ويحضرون إلـي في الوقت نفسه. ولن يروني ولن أراهـم فـي الطريـق. أم أنتظر لحين حضورهم؟ ومـاذا سـأفعل إن انتظـرت ولـم يحضروا؟ وإلى متى يطول بي الانتظار؟ كان الانتظار ممكنًا والتليفون يعمل المحادثة نصف المشاهدة، لكن بدون تليفون لا بد من عمل شيء ما. الحركة أفضل من البقاء. والتفكيـر والخوف يأخذاني إلى آخر الدنيا ويعيداني إلى حيث أجلس.

منذ أن أحضرني المرحوم إلى البلد. كـان نجيـب يقول لي إن الناس تذهب إلى الهرم، ولكن الهرم لا يـذهب إلى أحد. وأنا هرم عمرهم. كانوا هم الذين يحضرون إلـي. نجيب كان أكثرهم حضورا. كان يجئ بهم معه. وقبل سفره

كان يأتي بمفرده، ولم أفهم أنها هي السبب الذي دفعـه لأن يحضر إلى كثيرا.

ابنتي المسافرة إلى الخارج من طينة نجيب.. ولكـن أين هما الآن؟ أي حظ؟ لم يبق على المداود غير شر البقـر. الجميل يذهب.. الذي نحبه لا يبقى. ومن نحتاجه لا نجـده. ولا يبقى لنا سوى الذين لا نشعر بوجودهم، أين هما في هذا الوقت العصيب؟ ربما لم يعرفا بعد أخبار الزلزال الذي وقع في مصر. مع أن الأخبار تصل بسـرعة البـرق، وربمـا أسرع.

نجيب زوجته في شقته. أما ابنتي فمعي مفتاح شقتها. لزوم أي طارئ يمكن أن يحدث للشقة. قلـت لهـا عنـدما سافرت من يدري؟ ربما ساعدتني صحتي، ومكنتني مـن أن أطل على الشقة بين الحين والآخر؟.

لا بد من السفر. البيت الذي أعيش فيه. لم يحدث له شيء، عمر الشقي بقي.. هل سأتمكن من السفر والعودة آخر الليل؟ سفري متأخر. كان من المفروض أن أبدأ الرحلة مـن طلعة الشمس. ولكن الزلزال ضبط ميعاده على بعد الظهر.

مفتاح شقة ابنتي معي. لا يفارقني، عند النوم أضعه تحت المخدة، من يحصل عليه يكون قد أصبحت الشقة ملكه، وهي مغلقة على ما جمعته ابنتي خلال سنوات الغربة. لفـة الأدوية لا تفارقني، لا أشعر بالاطمئنان إلا عندما تكون تحت عيني. تركني الجميع وجاءت الأمـراض. ضـغط ،وقلـب ،وسكر، ومفاصل ،وسمنة. أمراض تهد الجبل، فمـا بـالكم بابنة آدم في سنوات عمرها الأخيرة. وحيدة ومسكينة وكـل فرخ ربته طار من عشها، وولف على وليف آخر في عـش آخر.

اتجهت إلى دولابي. لأغير ملابسي قبل الخروج إلى الشارع. حتى هذه اللحظة، كان بداخلي أمل أن يكـون مـا سمعته ورأيته غير حقيقـي. نكتـة أم ملعـوب أو مقلـب؟ سأعرف ما حصل في الشارع، ثم أقرر ماذا سأفعل. ألـيس من الجائز أن يكون الولد الذي رزع البـاب حرامـي ابـن حرامية؟ وأن ما فعله حيلة جديدة حتى أطلع ملهوفة وأتـرك البيت مفتوحا. ويدخلون يأخذون ما خف حمله وغلا ثمنـه. وأنه لا زلزال ولا يحزنون.

وأيضا ما المانع أن تكون المفعوصة قد ألفت الحكاية حتى تفتح كلاما معي؟ كلام يهدم بيت ابني البكري نجيـب. ولكن هل هي مصادفة. أن يدق على البـاب شـخص. فـي الوقت نفسه الذي يرن فيه التليفون ويتكلم الاثنان عن زلزال وقع؟.

فتحت دولابي، جمعت أشـيائي، سـركي المعـاش. روشتة الدواء الذي أشتريه كل شهر. لبست بسرعة. رجلـي والقبر. لبس من أجل الستر. ودعـت الـزواق والتواليـت. وتسريح الشعر والوقوف أمام المرآة كلما خرجت، أمور ولى زمانها. وذهبت ناسها.. ولم يعد حولي رجالها.

خرجت. رددت الباب ورائي. أدرت فيـه المفتـاح، خرجت من الحارة الأولى إلى الثانية. التالتة تابتة، تـذكرت أنني تركت التليفزيون يعمل، لم أكن متأكدة أنني أطفأتـه، لا يعرف إلا الله متى أعود إلى هذا البيت. إن كانت في العمـر بقية. كنت قد سمعت أن التليفزيون إن ترك يعمل – عمـال على بطال – قد ينفجر ويحرق البيت.

كانت العودة صعبة. أقول يا رب خطـوة للأمـام، فأعود إلى الوراء خطوات. كان لا بد من العودة، إن اشتعلت

النيران في البيت في غيابي. لن يتمكنوا من إطفائها ولا بكل مطافي مصر؛ لأن مفتاح البيت لن يكون معهم.

عندما امتدت يدي لإطفاء التليفزيون، الذي كنت قـد نسيته يعمل، وأنا أقول لنفسي العجلة مـن الشـيطان. كـان المذيع قد ظهر على الشاشة، لا أعرف إن كـان الفـيلم قـد انتهى. أم أنهم قطعوه؟ كان المذيع يطلب من النـاس عـدم النزول إلى الشارع والبقاء في البيوت.

قلت لنفسي: إذن ما سمعته مرتين صحيحا، يبدو أن الذي خبط الباب واحد من أبناء الجيران.. وأن التي تكلمـت تعرف نجيب، مهما كانت حكايتها معه فقد فعلت ما لم يقم به أبنائي.

لا بد وأن المذيع يقصد بعدم النـزول مـن البيـوت سكان مصر، فكل ما يقوله في النهار والليل موجه لهم. لـم يفكروا في قرية صغيرة منسية. لا يعنيهم من أمرها شـيء. لا يمكن أن يكون المذيع قد تعب نفسه من أجلنا.

أغلقت الباب من جديد ونزلت. همة مفاجئة وطارئة دبت في أوصالي. والخطوة التي كنت أخطوها، ويخيل إلـي

أنني استغرقت فيها نصف ساعة، كنت أطويها في غمضـة عين.

سأمشي حتى موقف التاكسي. كان الحال على ما هو عليه. في مثل هذا الوقت، يكـون الرجـال فـي الغيطـان، والموظفون والتلاميذ الذين يسافرون إلى البندر للتعلـيم أو العمل أو قضاء بعض الحاجات – لا يكون موعد عودتهم قد حل بعد، يهلون على البلد ابتداء من الرابعة بعد الظهر.

أول من قابلني لم أكن أعرفه. راحت الأيام التي لـم يكن الإنسان يقابل فيها إنسانًا لا يعرفه. هب الغربـاء علـى البلد، ورغم أنه لا يعرفني. إلا أنه سألني:

– بيتكو سليم يا حاجة؟.

– جت سليمة.

تكرر السؤال من الذين قابلوني، وتكرر ردي عليهم. في مشيتي، كان الحال مثل كل يوم. ما عدا بعض البيـوت العالية التي بناها أصحابها بغرض تأجيرها.

كان القلق يساورهم على مصير هذه العمارات. وكان قد تجمع بعض الناس حولها. كانوا إما من سـكانها أو مـن

أهل البلد الذين يبغون الاطمئنان علـى البيـوت التـي لا يملكونها ولا يسكنون فيها.

بدا لي الطريق من البيت حتى موقف التاكسي بالنفر طويلاً، أطول من أي يوم آخر، ربما لأن هذا المشـوار لـم يكن في البال ولا في الخاطر. ولم أعمل حسابه.

مشيت في داير الناحية الذي يلف حول البلد. وهـو الشارع الرئيسي فيها. كانت كبشة من الناس تقف أمام دكان البقال وكبشة أخرى على المقهى الصغير. الذي كـان آخـر محل أُستُحِدث في البلد. ومجموعة ثالثة عند الجـزار. وقـد وصلت إلى أذني طراطيش كلام مما كانوا يقولونه. وبسـبب بطئي في السير، كان الكلام يؤنس وحشتي، قبـل الوصـول إلى الواقفين، ويستمر معي بعد أن أعدي عليهم.

كان الموضوع الرئيسي في كلامهم هو الزلزلة. كان هناك من يقول إنه رآها وأحس بها.. وعرفها قبل الآخرين، سمعت من يقول إن السمك في الترعة كان أول مـن شـعر بها، وإنه شاهده بنفسه يتقلب في الماء كما لو كان يتنطط في صينية زيت يقلى فيها. فقال لا بد وأن هناك أمر غير طبيعي يحدث.

والآخر أكد أن جاموسته زقرت في وقفتها، وكـادت أن تقلع الوتد من الأرض. وتجري في البراح. وثالث أقسـم إنه شاهد القبور. ذلك أن حقله مجاور للمدافن. كانت القبـور تتحرك – لأول مرة – لدرجة أنه شـك أن المـوتى الـذين يرقدون فيه قاموا من موتهم.

ومثلما حدث في البلد – دائما وأبدا – كاد الأمـر أن يصل لمعركة. لا يعرف أحد متى تنتهي. حول مـن شـاف الزلزال أولاً. ومن أبلغ عنه قبل الآخر وبيوت البلـد قديمـة ومعظمها مبني من الطوب النـي والطـين والتـبن. إلا أن البيوت التي شكا أصحابها أنها تأثرت كانت أقل من القليلة.

كانت هناك نوادر وحكايات، عن الحمار الذي أوقـع غبيط السباخ، وهات يا جري في الغيطان. والسـاقية التـي توقفت عن الدوران رغم الثورين اللذين يدوران على المدار، والبلح الرطب الذي أصبح يغطي الأرض تحت نخل العمدة.

فلاح أقسم إن جاموسته ولدت ساعة الزلزال، ونزل العجل من بطنها يصيح: زلزال.. وآخر قال إن ورقة نبتـت في شجرة التوت، على رأس حقله لحظة الزلزال، مكتـوب عليها زلزلة.

في هذا الوقت تكون التاكسيات شحيحة في موقـف البلد، وتتجمع في موقف مصر ؛لأنه وقت العودة إلى البلـد على عكس الصباح.. فالزحام يكون في موقف البلد، وتشـح العربيات في البندر. كان علي أن أنتظر أكثر مـن الوقـت العادي، وكل من يشاهدني نازلة البندر كان يندهش. وبعد أن تشرخ التساؤلات ملامح وجهه، يقول: خير يا حاجة، فـأقول إن الأمر خير فيعود ويتساءل عن جماعة مصر، هل جـرى لهم شيء؟ فأقول إنني لا أعرف.

ويعاد السؤال نفسه والجواب عن التليفونات، بيتـي من البيوت القليلة التي يوجد فيها تليفـون. فأشـرح حـال التليفونات وما جرى لها، البعض يعرض علي الحضور معي إلى مصر، وعدم تركي أسافر بمفردي، يوصلني إلـى أول أبنائي، ويعود، والبعض الآخر يتمنى ألا يكون قـد حـدث مكروه لهم. الذين في الموقف، قالوا إن هناك عمارات وقعت في مصر وأناسا لقوا ربهم.

بالقرب من موقف التاكسي غرزة صغيرة، خُص من البوص، أمامه مصطبة مبنية من الطوب. جلست عليها، ولم

أطلب أي مشاريب من صاحب الغرزة؛ لأنه لـم يكـن لـي نفس.

كنت أريد الوصول إلى مصر بأسرع مـا يمكـن.. ذاهبة لكي أطمئن على الذين كان من المفروض علـيهم ألا يكون لهم هم سوى الاطمئنان علي، بمجرد أن يقال إن البلد فيها زلزال.

أخيرا حضرت سيارة ميكروباص، كان محملة على الآخر، والحاضرون لم يكن لهم كلام سوى عن الزلزال الذي في مصر. وكأن هذه القرية ليست من مصـر، قـال شـاب متعلم، إن آخر ما سمعه في موقف أحمد حلمي، كان جـرس سيارة الإسعاف، وسرينة سيارة المطافي، ترمح في شـوارع مصر.

ربما كنت الوحيدة المسافرة إلى مصر. حاول السائق أن يساومني. طلب مني دفع أجرة الكراسـي الخاليـة فـي السيارة ويتحرك بي. لأنه يعرف أنني مستعجلة ولا يريد أن يعطلني.

– مخصوص يعني؟!

هرش في عرق الهيافة في قفاه:

- مش كده بالضبط.

سألته، هل يطلب مني أجرة الكراسـي الخاليـة؟ أم الأماكن التي يوقف فيها ركابا زيادة عن العدد المسموح لـه به؟ وإن كان عنده كرسي براكب واحد. ويستخدمه لأكثر من راكب. هل أدفع أجرة راكب أو اثنين؟ لخبطه كلامي. وقال إنه من الصعب عليه التحرك براكب واحد.

تصنعت عدم الاهتمام. سأجلس معـه، وإن كـان لا يريد الذهاب لمصر سأنزل وأعود إلى البيت. كـل تـأخيرة وفيها خيرة. قال لي إنه مسافر مسافر. كـل مـا فعلتـه أن تركت المصطبة القاسية والناشفة، والتـي تعبـت مقعـدي وجعلت رجلي تنملان. على الأقل الشلتة التي على كرسـي العربة الميكروباص أكثر ليونة من المصطبة.

كان المنادي ينادي " مصر.. راكب واحد ". وكـان يتحرك بعيدا عن الموقف. ويوشك أن يدخل الحارات ويمـر على البيوت ويخرج الركاب من غرف نومهم. حتى تتحرك السيارة. كان الاستعجال واضحا في تصرفات السائق. كـان

يتحدث عن الدور في مصر. والنقلة القادمة. فالكل يسافر من مصر إلى خارجها. ومع قدوم الليل لن يبقى هنـاك جـنس سريخ ابن يومين. ولذلك فالوقت الباقي من النهـار فرصـة ذهبية لن تعوض، قلت لنفسي: لأجلس هكذا. ومـن يتعـب حماره نسلخ وجهه. ستدفعه أول سيارة تصل من مصر إلى الجري. حتى يحصل على دور قبلها. كثر النواح يعلم البكا. حفظت ألاعيبهم من كثرة الحكايات التي تقال عنهم في البلد. ومن سفرياتي القليلة.

صدقت توقعاتي، ما إن شاهد عاصفة مـن الغبـار تقترب من البلد عن طريق الزراعية. وأيقن أن سـيارة فـي الطريق إلى البلد. حتى قفز السائق في غمضة عـين إلـى مكانه، والولد الذي يحصل الأجرة من الركاب جلـس فـي الصالون واضعا ساقًا على ساق. والسيارة تجـري بأقصـى سرعة؛ حتى يكسب الدور قبل الآخـرين. حسـب العـرف والأصول. كان المرحوم يقول لي: إن البني آدم لـو جـري جري الوحوش لن يحوش أكثر من رزقه. وأنا أنفذ كلامـه، ليس عن اقتناع، ولكن لانعدام القدرة على الجري. في مدخل البلد. وطوال الوصلة التي تصل البلد بالزراعية. كـل مـن

يراني من الناس. لا بد وأن يتصور أنني أخـذت السـيارة مخصوص. ودفعت فيها الشيء الفلاني. وذلك بسبب ظروف هذا اليوم. سيروح باله إلى الزلـزال وأولادي المتغـربين. سواء في البندر القريب. أو البلاد البعيدة، ولا يعرفون أننـي أركب على كرسي. وأمد قدمي على مقعـد ثـانٍ، وأضـع أشيائي على مقعد ثالث. وكل هذا بأجرة نفر واحد.

والسبب ظروف هذا اليوم الصعبة.

٢

.. وكان يومها قد بدأ بداية غريبة. هالها الاكتشـاف الذي جاءها مع لحظات الصباح الأولى. كيف نسـي الأولاد أو تناسوا هذا اليوم؟ كيف طاوعتهم قلوبهم؟ كيف محيت أهم مناسبة من ذاكرة كل منهم؟ ولم أجمعوا على النسيان الـذي كانت تتصوره مستحيلاً؟ ربما كان هذا هو الأمر الوحيد الذي اتفقوا عليه. مع أنهم اختلفوا حول كل الأشياء الأخرى.

في مثل هذا التاريخ – لا اليـوم – رحـل زوجهـا وتركها مع سبعة من الأبناء. أربعة من الصبيان – هـم الآن ملو هدومهم – وثلاث من البنات – هن الآن زوجات بيـوت يفخر بهن أي إنسان – طبعا لن تتوقف أمـام ابنـة وحيـدة مازالت وحيدة. لم تدخل بيت العدل. لم تتـزوج. وأصـبح زواجها عقدة من الحرير.

كلما اقتربت ذكرى رحيل زوجها. تاركًا لها كومـا من اللحم. لا تعرف ماذا ستفعل؟ كانت تفكر كيف تحتفل بها؟ لم يكن لديها ثقة أن الأولاد سيحضـرون. ففـي السـنوات

الأخيرة. بدأت ذكرى المرحوم تذبل في نفوسهم. مثل الورود التي تذبل بمرور الوقت.

لا تحب أن تتذكر هذه الحكاية مع طلعـة الصـباح؛ حتى لا يتعكر لون النهار. ويصبح في لون التراب. مع كـل سنة كان هناك ابنًا أو بنتًا ينسى ذكرى والده. الـذي أفنـى عمره. ومات قبل موعده، من تعبه في تربيتهم. صـحيح أن الأعمار بيد الله سبحانه وتعالى، ولكنهـا تعتقـد أن النـاس المستريحة تعمر أطول من الذين يطاردهم التعب والضـنى طوال عمرهم.

كل سنة كانت تخطف واحدا من الأبناء. لا تحب أن تحدد من الذي انسل بعيدا. كان يرضيها أن الآخرين مازالوا يتذكرون والدهم. هذا العام نسي الكل. لم يتذكر أحد. صـدق الذي قال إن الحزن يبدأ مثل جبل يصل السـماء بـالأرض. ومع مرور الأيام وكر الليالي. يصبح أصغر من جزء مـن هذا الجبل. لن يحضر أحد لها. سمعت بالأمس من يقـول إن كلمة الإنسان جاءت من النسيان، وإنه لولا رحمـة النسـيان بالبشر لا نفجروا أو ماتوا.

مثلما فعلت في السنوات السابقة. ستذهب إلى المقابر قبلي البلد صباحا. ومعها الرحمة التـي صـنعتها بيـديها. وستكون الكمية أكبر من كل سنة. من السنوات التسع التـي مرت.

فيا عالم من سيكون من أبناء الدنيا. عنـدما تكتمـل السنوات العشر التالية. بالتحديد. من سـيبقى علـى ظهـر الأرض؟ ومن سيدفن في بطنها؟ السنوات العشـرة الأولـى غيرت كل ما تركه. فما بالك بالسنوات العشر الثانية؟ لا بـد وأن تغييراتها ستكون أعمق وأقوى وأبعد تأثيرا.

الثاني عشر من أكتوبر ١٩٩٢. مرت عشر سنوات على رحيل زوجها. كانت تحسب الأيام التي تفصلها عن هذا اليوم. وكانت في حالة الانتظار تتساءل: ماذا سيفعل أبناؤها الخمسة الذين يعيشون في مصر أم الـدنيا؟ فـي السـنوات السابقة كان البعض ينسى. ومن ينسون كانوا يسألونها عـن تاريخ ميلاده. ويتساءلون: لماذا الاحتفال بتاريخ الوفاة؟ لم لا يكون الاحتفال بعيد ميلاده؟ إنه احتفال بالحياة. فلم الاحتفـال بالموت؟ وكانت تبدو الفكرة وجيهة إلى حد ما. وإن كانـت

تدرك أن الهدف من طرحها هو التغطية على نسيان مناسـبة رحيله.

في المقابر ستكري من يقرأ على روحه آيـات مـن القرآن الكريم. وستدفع له أكثر من أي سنة مضت. فالذكرى غير الذكرى. والمناسبة مختلفة عن أيـة مناسـبة أخـرى مضت.

وهي تتخيل تفاصيل ذلك اليوم. نشأت في ذهنها فكرة الاتصال بهم. وتـذكيرهم؛ حتـى تحمـيهم مـن النسـيان والانشغال، ولكنها ترددت. لو فعلت هذا لن تشعر أن هناك من جاء من تلقاء نفسه. لولا تليفونها ما جـاء أحـد مـنهم. الأحلى أن يحضروا بدون اتصال أو تذكير. وإن كانت قـد لاحظت أن أحدا لم يتصل بها قبل أن يحل اليوم؛ ليكلمها عن الترتيبات.

في الصباح، أخذت كل ما تستلزمه رحلتها. وارتدت ملابسها السوداء. ثياب الحداد التي لم تخلعها، أصبحت جزءا من شخصيتها يعرفها الناس على البعد بها.

كانت قد فكرت. قبل أن يأتي هذا اليوم. أن تنصـب شادرا أمام البيت. أو أن تفتح المضيفة. وتؤجر أكثـر مـن مقرئ. يتبادلون تلاوة القرآن. والولد الـذي يقـدم القهـوة للمعزين. وتنصب ليلة عزاء، ولكنها واجهـت أكثـر مـن مشكلة. فالناس لم تألف هذا التصرف من قبل. ثم من سيقف في استقبال المعزين الذين سيحضرون؟ سـتكون هـي فـي استقبال النساء اللاتي سيحضرن من أجل العزاء. أمـا فـي الصوان، أو المضيفة، لا بد من رجل يقـف. وأيـن أولاده الرجال؟! فكرت أن تطلب من بعض أقربائها من الرجال أن يقفوا بدلاً من أبنائها. إن لم يحضروا. ولكنها تراجعت عـن الفكرة. هالها أن تتصور إقامة المأتم في غياب أبنائها.

قد يغضب الأبناء منها. تساءلت: وهل يـدركون أن لهم أبا مدفونًا في مقابر البلد؟ وأنهم خلفوا وراءهـم أمسـا وحيدة؟ بكل ما تعنيه كلمة الوحدة. لدرجة أنها تضبط نفسـها في بعض الليالي الطويلة تكلم نفسها. مـن شـدة إحساسـها بالوحدة ما أفزعها. إنها إن فعلت هذا ستكون كأنمـا قـد دفنتهم بيدها، وأصبحت بدون ولد أو بنـت. كانـت تقـول

لنفسها، مسيرهم يعودون لها. مهما شتوا وطاروا وابتعـدوا. فلا بد لهم من العودة إلى أحضانها في النهاية.

في الصباح الباكر، خرجت من بيتها. بكرت وبدرت ؛حتى تتجنب أسئلة الناس الذين سيصادفونها في الطريق. قد يسألها أحدهم عن وجهتها. وعندما يعرف أنها ذاهبـة إلـى المقابر وحيدة سيسألها عن أبنائها. الذين ذاع صيت بعضـهم واستقروا في المدينة الكبيرة.

في يدها اليمنى لفة في كيس بلاستيك. يقول شـكلها إنها أشياء ملفوفة في ورقة جريدة قديمة. لونها أصفر. ربما كانت من آخر الجرائد التي قرأها المرحوم قبـل أن يـودع الدنيا. من يوم رحيله لم تدخل البيت ورقة واحـدة. وكانـت تتعامل مع هذه الجرائد. مثلما يفعل البخيل مع آخر ماله فـي الدنيا.

كانت تحتاج بعض ورق الجرائد، من أجل أن تفرشه في النملية، أو تضعه على الحائط أو على أرضية دولابهـا، عندما يحضر أولادها، ستطلب منهم أن يحضروا لها بعـض الجرائد المستعملة. ولكن عدم حضورهم أصبح مؤكدا.

كانت قد خرجت من بيتها، وطل الليل ما يزال على الأرض. ويبدو لعينيها شديد الوضوح على شواشي الأشجار القليلة المزروعة في داير الناحية. الذي مرت به في هـدوء هذا الوقت المسروق من الليل الذي بـدأ يسـتعد للرحيـل. والنهار الذي لم يعلن عن وجوده بعد. كلاب الليل الضـالة. التي تقول عنها كلاب السكك، كانت ما تزال نائمة. وإن كان البعض منها قد بدأ يستعد للاستيقاظ. والقطط تموء وتتمسـح بالأركان. وتحاول أن تنفض طل الليل وندى ساعة الفجريـة عن نفسها.

الخفراء الذين لم يذهبوا إلى السلاحليك لتسليم بنادقهم الصدئة مازالوا نياما. فوق مصاطب أمام أبـواب الأعيـان، وهي نفسها المصاطب التي يستخدمونها وقت الأصيل مـن أجل الجلوس عليها واستقبال الضيوف من أبناء البلد؛ للثرثرة وتفويت الوقت حتى مجيء الليل.

التراب على الأرض كان مبللاً بالندى، وقـد علـق بحذاءيها القديمين مشكلاً طينة أحاطت بالحذاءين مـن كـل جانب. في هذا الوقت الصباحي الهادئ. والذي يخلـو مـن الناس. شاهدت البيوت والدكاكين. في داير الناحية كمـا لـم

تشاهدها من قبل. الكتابات على الجدران. التي مضت عليها أيام طويلة. تبدو مثل بقع توسخ البياض القديم والرسـومات التي اقتطعت أجزاء منها. لم تبق منها سوى تصاوير لا يفهم الغريب أي شيء منها.

وإن كان ابن البلد القراري عندما يشـاهد أي جـزء منها. يمكنه أن يقول في أي مناسبة كانـت. فهـذه دعايـة انتخابية في الانتخابات الفلانية. وتلك من آخر استفتاء علـى تجديد الولاية للرئيس، وتلك من أجل الاحتفال بالحج إلى بيت الله الحرام؛ لأن مثل هذه الرسومات التي كانت يتم رسـمها في الزواج والميلاد والطهور. وصدور حكم مـن محكمـة البندر لصالح هذه العائلة أو تلك. لان تلك الرسومات لم تعد تجد من يرسمها. فأحدث الرسومات تعود إلى ما قبل رحيـل الغالي عن الدنيا.

تذكرت في سيرها الصباحي الجملة التي سمعته من الراديو لأول مرة. وكأنها قد قيلت من أجلهـا هـي. كانـت العبارة تقول: " قلبي على ابني انفطر. وقلب ابني علي حجر" وكانت تقول لنفسها إن أبناءها عندما يتزوجـون ويخلفـون، سيدركون الوضع الذي تعيش فيه. أبناؤهم الذين سـيجعلونهم

يدركون مشاعر الأبوة. وهي أحاسيس لا يمكن أن يتعلمها الإنسان في أي مدرسة. يمكنه أن يعيشها ويتذوقها. ومن تدخل حياته هذه المشاعر، لا يمكن أن تخرج منها.

الذين قابلتهم في رحلتها قليلون. وعندما كانت تقترب من أحد. كانت تحاول أن تتشاغل عنه؛ حتى لا تأتي عيناها في عينيه. ويرمي عليها الصباح. ويدس نفسه في أمورها. ويعرف مالا يجب أن يعرفه. هي لن تقول. ولكنها لا تضمن قدرتها على الإخفاء. إن أخذت وأعطت في الكلام. ربما تفقد سيطرتها على صواميل لسانها. وتقول ما لا تحب أن تقوله.

خرجت من داير الناحية إلى سكة التُرب. هكذا يسمون الطريق الذي يوصل إلى الآخرة. حيث السكون الأبدي. أخذت في وجهها وسارت. الحقول على يمينها والحدائق على شمالها. وطريق التُرب بدا لها في هذا الصباح ضيقًا. لدرجة أنها تساءلت: كيف يتسع لمئات المشيعين الذين يمشون فيه وراء الموتى حتى مقرهم الأخير؟

وفي كل سنة من السنوات التي مضت. عندما كانت تصل إلى المقابر. كان يفاجئها ما هو جديد. ما لم تره في السنة الماضية. كانت تستعجب، التغييرات في البلد مهولة

ومفهومة؛ لأن الذين يسكونها أحياء. أما هنا فمن الذي يغير؟ لا بد وأنهم أهل الموتى يحسدونهم على الراحة بعـد تعـب الدنيا. وهدة حيل الحياة. ويحاولون حرمانهم منها.

نلمح الصراع نفسه. أصـحاب المقـابر يحـاولون الامتداد في الأراضي الزراعية التي تحيط بها من كل جانب. ولكن الحكومة تدخلت في الأمر ومنعتهم. كانوا يتكلمون عن مذبحة الأراضي الزراعية والخطـر الـذي يهـدد الـبلاد. وضرورة الحصول على تراخيص من الحكومة نفسها. قبـل إقامة أي مقبرة جديدة.

وعندما أغلقت الأبواب أمـام التحايـل ومحـاولات الالتفاف على قرارات العمدة والمهندس الزراعـي. انتقـل الصراع إلى داخل التُرب نفسها. وهكذا ظهرت مقابر جديدة، ولكن في المسافات بـين مقبـرة وأخـرى. وفـي الطـرق والحارات. لدرجة أن التنقل من مقبرة إلـى تُربـة أصـبح صعبا. والتعرف على مقابر أي عائلة من العائلات أصـبح مسألة مضنية. لدرجة أنها قالت في آخر مرة جاءت فيها إلى التُرب – في مثل هذا اليوم من العام الماضي – إنه لا بد من تسمية الشوارع، وإطلاق أسماء المـوتى علـى الحـارات،

وإعطاء التُرب أرقاما؛ حتى يكون من السهل الوصول إليهـا والتعرف عليها بدون تعب.

كانت في انتظارها مفاجـأة، عنـدما اقتربـت مـن المقابر. اكتشفت سورا من الحديد. لا تعرف متى بنـي ولا من بناه. يفصل الأراضي الزراعية عن المقابر. كانت تدخل إلى التُرب من أي ناحية من النواحي. السور منعها. أدركت أنه ما دام هناك سور. لابد من وجود باب تدخل منه.

لفت ودارت حتى وقفت أمام الباب الذي كان مغلقًـا بجنزير وقفل كبيرين. وحول الباب كانـت كـلاب الليـل مازالت تتمسح بالباب والسور. وتتبول بالقرب منهما. شمس الصباح أصبحت مؤكدة. رفعت صوتها تنادي علـى خفيـر التُرب الذي يبيت في بيت في آخر التُرب من الداخل.

ربما كانت هناك حكمة ما من وراء بناء هذا السور، ربما يأتي لصوص الليل وحرامية الظلام. بعد أن أصـبحت بيوت الناس تخلو من كل ما يستحق مجازفة السرقة وجسارة أولاد المنسر وقطاع الطريق. فالبيوت لا يوجد داخلها سوى أناس يكملون عشاءهم نوما. أما سرايات الأعيان وقصـور

الأغنياء فهي محروسة بالخفراء الخصوصـيين ،والكـلاب المتوحشة والبنادق ،والمدافع، ولا يمكن الاقتراب منها.

ما إن رفعت صوتها تنادي على الخفير. حتى أكملت الكلاب بنباحها الجنوني ما كانت تريد القيـام بـه. خـرج الخفير. كان يفرك النوم في عينيه اللتين بدتا مثـل كاسـات الدم. وهو يقول.

– الكلاب ما سكة. فيه وارد جديد.

شاهدها. اكتشف وجودها. قبل أن يـرد عليهـا الصباح:

– تعيشي وتفتكري يا حاجة.

عاد وأحضر المفتاح. واتجه إلى الباب في صـمت لكي يفتح لها. وهي من جانبها كانت قد جلست قبالة البـاب؛ لأنها شعرت بتعب المشوار مرة واحدة. أعطته نصيبه مقدما. حتى يهتم بها ويرش لها الماء حول قبـر الغـالي، ويسـقي الزرع الذي لا يسقيه إلا في حضورها. ويبقى بدون ماء بعد ذلك.

تتذكر أنها زرعت الكثير من الزراعـات. أشـجار ونباتات، بل وبعض الورد البلدي، مات كل ما زرعته ولـم يستمر سوى الصبار والتين الشوكي. وشجرة لوف لم تجد ما تتسلق عليه فماتت. لو كان أبناؤها في البلد. ولم يمسكوا في حكاية العلام ووظائف البنادر لتناوبوا الحضور إلى القبـر. كل واحد منهم يأتي مرة. لري الأشجار التي زرعتها حـول الضريح.

ما إن استقر بهما – زوجها وهي – المقام في البلـد بعد سنوات الرحل والترحال. حتى لم يصبح لرجلهـا هـم سوى بناء هذه المقبرة؛ حتى لا يـدفن فـي مقـابر العائلـة القديمة. فيوضع العظم فوق العظم. ويطاردهم التعـب دنيـا وآخرة. كان يقول دائما. إن من يريد أن يبنـي لا بـد وأن يكون بناؤه في الدار الباقية. أما هنا فكله فان. لن يبقى منـه أي شيء، من استطاع أن يأخذ معه إلى الآخرة ولـو حتـى منديل يجفف به دموعه على غدر الأحياء، يكون أحسن حالاً من غيره، لقد جعل الله جلت حكمته. الكفن بلا جيوب.

كانت تعرف أن المقرئ لم يحضر بعد. فهي أول من يصل، سألت الخفير عنه، قـال لهـا إنـه علـى وصـول.

استراحت لأول مرة عندما جلست على المصـطبة المقابلـة لقبر المرحوم: القبر الذي يرقد فيه زوجها. أو ما بقي منـه. بحثت بعينيها عن بقايا الكتابة التي كانت زاهية وواضـحة. اكتشفت أنها بهتت مع مرور الأيام.

لم يكن النهار يوم خميس. ولذلك كان الحضور خفيفًا في المقابر. لا يصبح الزحام مؤكدا سـوى يـوم الخمـيس. يومها ينتقل المقرئ من قبر إلى آخر بسرعة. حتى يلم الغلة. يردد آيات قليلة من القرآن الكريم بسرعة ويجري.

كانت وحيدة وسط القبور. تشعر بالزحـام الـذي لا يراه أحد. ربما كان زوجها يتساءل عن الأولاد الـذين لـم يعودوا أولادا. حمدت الله أنها لم تسمعه. ولذلك لـن تبحـث عن أكاذيب. تبرر بها غيابهم. أحست لأول مرة بالخجل من مجيئها لوحدها. تساءلت: إن انتقلت إلى جواره. فهذا معنـاه أنه لن يأتي أحد لهما.

نظرت إلى ما معها. فهم خفيـر التـرب نظرتهـا، طمأنها. قال لها إن أهل الله كثيرون. بعضهم نيام والآخرون في الطريق إليه. لن تعود بشيء معها. ربما لن يكفي الـذين سيهلون على المكان. إن كانت هناك مشـكلة. فهـي أنهـا

حضرت مبكرة أكثر من اللازم. وهذا ليس بغريب على مـا كانت مثلها.

اكتشفت أن هناك ما يمكن عمله. سـتروي الصـبار الموضوع فوق القبر. والتوتة التي بني القبر تحتها. حتى لو كان الخفير يرويها، فإن الماء من يديها له طعم آخر.

في طريق العودة، راحت تفكـر فـي حالهـا. رأت حياتها بعين جديدة، عنـدما كـان يزورهـا الأولاد. تلـك الزيارات التي تباعدت. كانت الجدران تتلـون بأصـواتهم. وبقدر سعادتي بلحظة وصولهم والفرح والحبور الذي يسببه وجودهم. ويؤلم القلب. فإنني أحمل هم كـنس الأثـر الـذي يتركونه في كل مكان من البيت. ويبقى بعد رحيلهم.

سمعت في إحدى المرات من يقول للآخر. إنني أبدو مثل خيال المآتة الذي يقف وحيدا في الغيطان. سألت نفسي: كيف عرف الولد حكاية خيال المآتـة. الأولاد أولاد بنـادر. ولدوا وتربوا وكبروا فيها. ومجيئهم إلي حالات طارئة.

بعد رحيل المرحوم، أصبحت أفتقد صحبة الآخرين، الناس في حالهم. وأقسى ما كنت أخافه هو الليل. خصوصـا

ليل الشتاء الطويل الذي يبدو بلا نهاية، كنت أغلق الأبـواب والنوافذ مبكرا قبل أن يهبط الظلام في الحواري ويبـدأ فـي النظر داخل البيوت بعيونه السوداء وعندما يستبد الصـمت، يبدأ الصفير في أذني. ويرتفع كلما أوغلت في الليل. نصحني الجيران أن أقتني كلبا أو قطة. نفس يتردد وصوت أسـمعه. فضلاً عن أن الحيوان الذي هو أكثر وفاء من الإنسان. قـد يوفر لي حماية ربما كنت في أمس الحاجة إليها.

رفضت. قلت إن الكلب نجاسة، والقطة روح علـى شكل حيوان أليف. هذه الحجج أحاول أن أخفي بها السـبب الحقيقي الذي يمنعني من اقتناء كلب أو قطـة. وهـو هـم المصاريف التي يمكن أن تضاف إلى أعبائي المالية. فضـلاً عن أنهما – سواء الكلب أو القطـة - لا يـدران لبنـا ولا يشيلان لحما. فأي فائدة ستعود علي؟ الأعمار بيد الله، ولـن يحول بيني وبين قدري كلب أو قطة.

فكرت في استحضار طفلة مـن أي أسـرة، تعـيش معي، وبدأت في استعراض العائلات التي ضاقت بأبنائهـا. ترددت. ستحضر إلي الطفلة بمشاكلها معها. ثم مـن الـذي

سيعطيني طفلة دون أن يأخذ مني أجرا علاوة على طعامهـا وشرابها وملابسها؟

لا أعرف ما الذي يقلقني بالتحديد؟ ما الذي يسبب لي حالات حزن شفيف يدمر راحتي؟ هل هو المـرض؟! وأي جديد في هذا. احتمال الموت؟! من يخاف الموت كافر.فتلـك سنة الحياة. ضيق ذات اليد؟! إن قلت أنا هذا فماذا يفعل الذين يربون في بيوتهم أكوام اللحم والأفواه التـي لا يسـتطيعون عدها بسهولة؟

لا. هناك ما هو أبعد من هذا كلـه. كانـت جائعـة لصوت إنساني يهدهد قلبها وتشبع منـه روحهـا. عجـوز بمفردها لا تجد حتى من يرعاها. هكذا سيكون حالهـا مـن لحظة العودة من زيارة قبر المرحوم وحتى يزورها مـلاك الموت. عزرائيل الذي يقبض الأرواح. لن يكون حولها سوى ذلك العالم البائس والذي لا يثير سوى الشفقة.

والموت لن يأتي سوى في ساعات الليـل الأخيـرة. ولن يكون هناك في الصباح من يطرق عليها البـاب حتـى يكتشف أن الجسد قد أصبح باردا وأن العينـين مفتوحتـان. تحدقان في نقطة وحيدة في السقف طول الوقت. لن يكتشـف

أحد ذلك إلا بعد أن تنبعث من باب الشقة وشقوق الجـدران رائحة عفونة. وحتى مع الوهن الذي تشعر به، تشـك أنهـا ستكون قادرة على إخراج مثل هذه الرائحة العفنة؛ ذلك أنهـا لا تملك الجهد الذي يولدها.

عند البيت الذي وصلته وهي متعبة من التعب نفسه. اطمأنت على شجرة المشمش التي زرعها زوجها ورعاهـا. ومات دون أن يرى ثمرها. كان يتمنى لو امتد به العمر حتى تطرح الشجرة ولو حبة مشمش وحيدة. يقسمها معها. وينقي المياه في الزير بنوى هذه المشمشة اليتيمة. حتى يشربا مـاء الحياة الذي هو أعذب من كل المياه التي تنزل من حنفيـات هذه الأيام.

كان يقول لها. عندما يأكل الإنسان من غرس يديـه. فإن طعم ما يأكله يختلف. تكون له حلاوة لا توفرهـا كـل زراعات الآخرين. وكان يحلم باليوم الذي يزرع فيه حـول البيت كل ما يحتاجه، كان يقولها اكتفاء ذاتي ،وكان حلمه في ساعات العصاري. يشمل تلقيمة الشـاي ،ومعلقـة السـكر، ونقطة الزيت ورغيف العيش ،وحلة الأرز. يـروي زرعـه

بماء نظيف. ويرعاه بنفسه. إن الحياة تصـبح جنـة علـى الأرض في هذه الحالة.

بعد وفاته رعت شجرة المشمش. كان يقول لها إنـه اختار المشمشة حتى تحميها من طلبات الآخرين. إن طلـب منهما أحد أي شيء يقولون له: في المشمش. يعلقون الطلب على طرح الشجرة. الذي لا يستمر سوى أيام معـدودة كـل سنة. مستحيل مستمر وإمكانية عابرة.

انتظرت أن تطرح المشمشة. شعرت أنه سيسـتريح في قبره البعيد إن طرحت. ولكن الشجرة كبرت وعرشـت وزرعت الظل على باب الدار دون أن تطرح.

سألت أحد الفلاحين الجيران عن حكاية هذه الشجرة العاقر.

- إنها شجرة مشمش كاذب.
- ذكر يعني؟
- ولا هذا.

٣

.. تحركت بي السيارة. المسافة قصيرة مـن البلـد وحتى البندر. مصر أم الدنيا. التي أقول عنها البندر لقربهـا من البلد. ألاحظ في المرات التي سافرت فيها مع المرحـوم. إن كان السائق يدخن. فإنه لا ينتهي من السيجارة في المسافة من البلد إلى مصر. يصل إلى موقف أحمد حلمي ويتوقـف وتكون بين أصابعه بقايا السيجارة.

وإن كان السائق صاحب مزاج ولا بد من كوب شاي مع السيجارة. فإنه يصل بنا إلى نهايـة المشـوار والـدخان مازال يتصاعد من سيجارته فضلاً عـن أن نصـف كـوب الشاي يكون كما هو. يشربه في الموقف على مهله، بعـد أن يحصل الأجرة منا. أما عن شرائط الكاسيت. وكل السيارات لا بد من وجود كاسيت فيها. من النادر أن يغيـر الشـريط خلال الطريق.

تحركت السيارة. فلمت نفسي. كدت أن أقطع وجهي من اللطم عليه. كيف هان علي الحبيب الغالي؟ كيف لم أفكر

– مجرد تفكير – في الذهاب إليه والاطمئنان عليه؟ من أدراني ماذا فعل به الزلزال؟ صحيح أنني بدأت يـومي بالذهاب إليه. ولكن ذلك كان قبل الزلزال. ألم أسـمع مـن يقولون إن الزلزال فتح القبور؟ وإن عظام الموتى تحركـت من مكانها؟ بدلا من سؤاله ماذا فعل به الزلـزال. جريـت ملهوفة على المفاعيص الذين اختاروا البعد عني. من قال إن الزلزلة تهدد الأحياء فقط؟! أليست هذه القبور فـوق وجـه الأرض؟ ومهما مرت السنوات على وفاة الإنسان وتحول إلى تراب. فإن عظامه تبقى في قبره. وروحه تظل حولنا تحاجي علينا وتحمينا من الأرواح التي يمكن أن تضرنا.

كان علي الذهاب له أولاً. فكرت في أن أطلب مـن السائق التوقف. كان قد ابتعد عن البلد. قلت لنفسي: ملحوقة. ما إن أعود إلى البلد. حتى يكون أول مكان أذهب هو قبره، حتى قبل أن أضع قدمي في البيت. سأمسح قبره بـدموعي. وهو رجل قلبه كبير. وصدره واسع. ونفسه طيبـة. ثـم إن الذهاب إلى أبنائه سيرضيه كثيرا.

ضبطت نفسي وأنا أفكر. إن الحي ربما كان أبقى من الميت، مع أن هذا الميت. هو والد وجد كل الأحياء. وكـان

يحب أن يكونوا معي في زيارته بدلاً من تركه من أجل سواد أعينهم.

شعرت بالضيق. لم أهدأ إلا عندما تذكرت موضوع ابني وروح عيني. والتليفون الغريب الذي جاء مـن البنـت المقصعة. والتي لا بد وأن لها عينـا جريئـة تنـدب فيهـا رصاصة. قد يكون هذا الموضوع هو الذي دهولني، وجعلني لا أعرف ماذا أفعل بالضبط. وهو الذي نسـاني الاطمئنـان على حبيب العمر.

كانت البلد التي أعيش فيها هي بلد المرحوم. وكـان يقول دائما إنها لا بد وأن تصبح واحدة من أحياء مصر ذات يوم. كان يمتلك بضعة قراريط فيها. وظل ينتظـر الثـروة الخرافية التي ستهبط عليه عندما يزحف العمران، ويحتـوي البلد بداخله، ويقسمها مباني. ويبيعها بـالمتر. كـان يتـابع ارتفاع أسعار الأراضي في كردون المدينة " لا أفهم معنـى كلمة كردون هذه. وإن كنت قد حفظتها من كثـرة ترديـده لها".

كانت القراريط القليلة هي حلم الثروة التي سـتنزل علينا من سماء الله العالية. فتغير كل ما فـي حياتنـا مـرة

واحدة، ننام ونحن أفقر الفقراء. ونصحو في الصباح لنجد أننا أغنى الأغنياء. على طريقة أفلام إسماعيل يسين وعبد السلام النابلسي. ولكن الزحف العمراني لم يصل إلى البلـد. كـان يقول إنه سيبدأ التقسيم والإعلان في الصحف. عندما يشـاهد في البلد أول عمارة عالية. على مدد الشوف.

بدأ البعض يبني بيوتا من كم دور. حدث سباق فـي عد الأدوار، وكان الدور الرابع هو السقف. ولكنه قـال لـي هذه بيوت فلاحين، العمارات شيء آخر مثل التي كانت فـي مصر أم الدنيا. وبناؤها لن يحدث إلا بعد تنفيـذ مشـروع القاهرة الكبرى. الـذي سيضـم المحافظـات التـي حـول العاصمة. نحن نقطة في بحر. وعندما يصل طوفان الضـم سيكون بالطبل البلدي. لن تعود البلد كما عرفناها، سـتكون هناك بلد أخرى، وإن كان زوجي قد مضى من عالمنـا دون أن تطالعه أول عمارة عاليـة. وهكـذا تـرك لنـا الأرض والأحلام وذهب.

كان زوجي رجلاً بسيطًا. وأنا من عائلة يقال عنهـا من أولاد البلد. وعندما جاء يطلب يدي. ويكتب كتابه علـي. ويدخل بي. وكانت كل هذه الأحداث الكبرى قد جـرت فـي

شهر إجازة حصل عليه من عمله. كان يعمل محضرا فـي المحاكم، ويوم أن وصله خطاب الإحالة إلى المعاش كان قد أصبح رئيس قلم المحضرين في محكمة مصر أم الدنيا ذات نفسها.

وصورته الوحيدة التي مازالت أحتفظ بها في بيتـي له. أكبر ما فيها شاربه الكثيف، وبدلته الكاملـة المخططـة بخطوط عريضة. وربطة عنقه الملفوفة من كثرة الاستعمال. وقميصه الذي كان مخططًا وياقته المثناه. لا أعرف لماذا لم تكن مكوية حتى من أجل الصورة؟ وعلى رأسه طربوش. لم يبد لونه الأحمر؛ لأن الصورة كانـت بـالأبيض والأسـود. واختاف الأولاد حول تلوينها وانتصر الرأي الذي قال بتركها كما هي.

يبدو لي أن هذه الصورة قد التقطت قبـل زواجنـا. تحت الطربوش منديل محلاوي كبير. يقـوم بـدور مظلـة صغيرة. تغطي أجزاء من الرأس. وإن كان قد قال لـي. إن هذا المنديل يحمي الطربوش من العرق الغزير الذي يغطـي رأسه ساعة الظهر.

نسيت، وما أكثر ما نسيت. أن أسأله عـن ظـروف التقاط هذه الصورة له. متى؟! وأين؟! والأهم من كل هـذا. أين كنت أنا وقت التقاطها؟ كبر الصورة وبروزها في أيامه الأخيرة وعلقتها بعد رحيله؛ لأنني اكتشف بعد رحيله أنـه لا توجد لي صورة معه. لا صورة للزفاف. الذي تم في البلـد، وليست لنا كعائلة صورة تذكارية تجمعنا معا.

شربت المر في أيامي الأولى معه. لف ودار في كل بلد من بلدان بر مصر. من الصعيد الجـواني. حتـى شـط إسكندرية. حتى مدن القتال لم تكن له واسطة سـوى عملـه وإخلاصه وعفته ورفضه أن يمد يده، كان يقول دائما: إما أن يمد الإنسان يده أو يمد قدميه. وهو اختار الحل الثاني. كنـا من بلد منسي. ولم يشم أحد أبنائه نفسه ويقب علـى وجـه السماء فيصبح واسطتنا عند الأكابر فأخذناها كعـابي. كـان يسمى رحلتنا في لحظات الصفاء – ومـا أنـدرها – كعـب داير.

كان يشرح لي أنهم عندما يفكرون فـي البـوليس. خاصة المباحث. أن يدوخوا احد المجرمين السبع دوخـات.

يلفون به البر بلادا، بلادا، ومدينة مدينة. كل عب وناحية ذهبنا إليه. لم نعرف الاستقرار الذي يتكلم عنه الناس.

رزقنا الله بسبعة من الأولاد. في وجه العدو. يحكون رحلتنا المرهقة والمضنية التي قمنا بها على مدى العمر. كل واحد أو واحدة له شهادة ميلاد من بلد. لم يحـدث أن كـان اثنان من أولادي لهما شهادتي ميلاد من بلد واحد.

كان زوجي يجلس معي ساعات الأصيل ويعد علـى أصابعه البلاد التي استخرج منها شـهادات مـيلاد لـلأولاد ويعرف منها رحلة عمره. فالتاريخ مدون في شهادة المـيلاد وكذلك المكان. ثم ينظر ناحية الأفق ويتساءل: تـرى أيـن ومتى ستدون شهادات الوفاة له ولي ولهؤلاء الأبناء؟.

أحاول أن أثنيه عن المضي في هذا الكـلام. ولكنـه كان يتلو دوما " وما تدري نفس ماذا تكسب غدا. وما تدري نفس بأي أرض تموت" ثم ينصرف إلـى الصـلاة، يصـلي ركعتين. يهدئ بهما نفسه. ويخرج من حالة الكدر؛ لأنه مـا من شيء كان يحزنه أكثر من غربة أولاده وعيشتهم بعيـدا عن أحضانه ورعايته.

كان يحن إلى بيت العائلة الكبير. الذي يجمع شـمل الجميع تحت سقفه. ومع إن هذا كان من النادر أن يحـدث، كان يقول دائما: " يوم عيدنا يوم لم شملنا" وما أندر ما كـان يحدث هذا. أتذكر أنه منذ أن أصبحت هذه الحكاية هما مـن همومه. لم يحدث أن اجتمع الشمل كله. حتـى رحـل عـن دنيانا.

في كل مرة كان لا بد من نقصان أحد. وكـان كـل اهتمامه ينصرف إلى الغائب أو الغائبة ويصبح الغائب أكثـر حضورا من الحاضرين. لدرجة أن هـذا الإحسـاس كـان يضايق الذين حضروا.

كانت محطته الأخيرة في مصر. نقل إليها بعـد أن لفت بنا الأيام ودارت. حصل على شقة في حي جميل. كـان يقول إنه توفيق من صاحب الخيمة الزرقـاء. الـذي يقـول للشيء كن فيكون. كان سعيدا بالشقة؛ لأننا كنا نـرى منهـا مقياس النيل. الذي كان يقول عنه مقياس الخيـر ومقيـاس الأمل. وكنا نرى من فوق السطوح الأهرامات. تبدو طشاش جزءا من صورة كما لو كانت لوحة مرسومة على الـورق.

وسط الضباب والغبار وذرات الهواء التي يمكـن أن يراهـا الإنسان.

ولأنه كان أصبح رئيسا لقلم المحضرين. كان يقـول عن نفسه: مدير عام. ولا يخـرج بـدون البدلـة الكاملـة والكرافتة والقميص. وينصرف كما لو كان وزيرا، ورغـم أني لا أعرف إلى أين وصل في تعليمه، فإنه كان يقرأ كثيرا الصحف والمجلات التي يبدو أنها كانت تقدم له على سـبيل الهدايا في عمله؛ لأن مصروفة لم ينقص بما يعادل ثمنها.

وفي مرحلة تالية. كان لا يقرأ سوى القرآن الكريم. الذي كان يقرؤه من قبل أحيانا. بدأ يحتفظ بنسخ كثيرة منـه. لدرجة أنه أصبح لديه دولاب كامل. فيه مصـاحف كثيـرة. وتفسيرات متنوعة. وألوان متباينة من كتاب الله.

بدأ زواج الأولاد والبنات. من يتزوج كـان يغـادر البيت الكبير، والكبير تعبير من عنـدي؛ لأن البيـت كـان صغيرا. لدرجة أنني لا أعرف كيف كنا نعيش فيه، قال يوم الزواج الأول. إن الفِرة جاءت وسرعان ما سـتكر حبـات السبحة. ونجد أنفسنا أنا وهو وجها لوجه بمفردنا.

يوم أن عاد إلى البيت ومعه خطـاب إحالتـه إلـى المعاش. قال كلمتين فقط. لم أفهم معناهما في البداية: " خيل الحكومة" أي خيل؟ وأي حكومة؟ قال لي إنه في إسـطبلات الحكومة. قبل أن تعرف مصر السيارات بكافـة أنواعهـا. وحتى بعد أن دخلتها السيارات. كانت الخيول هـي وسـيلة المواصلات الرئيسية لموظفي الحكومة. خاصة الشرطة. كان الحصان رمزا من رموز الحكومة.

في كل بلد كان هناك إسطبل من أجل تربية الخيول. يقوم على خدمتها عمال. وهو ما لم يحدث للبنـي آدمـين، ولكن عندما يعجز الحصان. ويصبح غير قادر على الحركة. فإنهم كانوا يطلقون الرصاص عليه؛ حتى يريح ويستريح.

عجبت من أمره وتعجبت. هل يكره إنسان الراحـة بعد التعب الذي مر به حياته؟ قال لي إنه في عنفوان قوتـه. وذروة قدرته على العطاء. وقرار الإحالة إلى المعاش. كأنه رصاصة الرحمة التي تحاول أن تنهي حياته وهو حي. كان يقول عن نفسه بعدها: الميت الحي.

إحالته إلى المعاش نجحت في إصابته. بـدأ يخشـى المرض ويكثر من الحديث عن الأمراض. ويتساءل: إن كان

ينحدر من عائلة معمرة؟ يتساءل عن السن الذي مـات فيـه أبوه وجد جده. وأمه وأمها وأخوته؟ كان قد وقع في حفـرة سن الستين. وكنت أخشى ألا ينجح في الخروج منهـا بأقـل الخسائر الممكنة، كلمته أن يمسك وظيفة ما. يشغل بها نفسه، فتساءل: أي وظيفة؟ كاتب محامي؟ تـومرجي فـي عيـادة طبيب؟ أم أجلس على كيس في محل أو مطعم أو كافيتريا؟! كل الأعمال من وجهة نظره كانت أقل منه. كـان يتسـاءل بإحساس طارئ بالعظمة: هل نسيت العمل الذي كنت أقـوم به؟ والدرجة التي كنت أشغلها؟ والساعي الذي كان يفتح لي الباب لحظة وصولي إلى العمل؟ والسكرتارية التـي كانـت تعمل عنده؟ وعدد التليفونات التي كانت على مكتبه؟ إيشـي أحمر وإيشي أبيض؟ والسيارة التي كانت تحضره إلى البيت؟ وتذهب به إلى العمل. والسائق الذي كان يفـتح لـه البـاب ويعظمه لحظة دخوله السيارة؟

لم أكن أجرؤ أن أقول له إنه حتى لحظة إحالته إلـى المعاش كان يركب الأتوبيس. وإنه كان معه أبونيه يضعه في محفظته. ويتأكد من وجوده قبل أن ينزل كـل صـباح مـن البيت. لم أكن أريد أن أجرح مشاعره، ما دام يصدق نفسـه

فيما يقوله. لا بد وأن أصدقه. وعلي أن أمثـل هـذا الـدور أمامه. هل معقول أن أغضبه، من أجل هذه الحكاية التافهة؟

لا أعرف ما هي العلاقة بين إحالته إلـى المعـاش ورغبته في ترك مصر. والعودة إلـى البلـد. مـن يومهـا وزياراته للبلاد أصبحت أكثر. فكر في بيع قراريط الفـردوس المنتظر. والجنة الموعودة. وأن يبني بثمنها شقة صغيرة. لها حديقة خضراء. يعيش فيها ما بقي لنا من أيام العمر.

عاد من البلاد ذات مرة. وقال إن العمران أوشك على الوصول إليها، تحدث عن تحريم البنـاء علـى الأراضـي الزراعية. كان يتصور أنه شخصيا هو المقصود بمثل هـذا القرار. وأن الذي أصدر القرار لم يكن يفكـر سـوى فـي قراريطه القليلة. وكان يثور عليه. رغم أنه لم يكن يعرفـه. وكنت أهدئ من ثورته وأقسم له. إنه خـارج الحكايـة، وإن الناس تريد له الخير. مع أنني لم أكن أعرف أي شيء عـن الحكاية. كنت أؤكد له أن الأمر لا علاقة له بنا من قريب أو بعيد ولكنه كان يرفض أن يصدقني.

كان يسافر ويعود متعبا. بيت العائلة قـديم. تـوزع بحكم الميراث والبيع. ولم يبق لنا فيه سوى ما يماثل أقل من

غرفة، وهو ليس معه مال. لا يملك سوى القراريط الستة. كانت أول مرة يحدد فيها الرقم. كان يقول من قبل قراريط قليلة ويكتفي بهذا. قال إن هذه القراريط الست مزروعة جرجيرا وفجلاً. هذه القراريط الستة هي ما أمامه وما وراءه.

وهو يريد أن يكون له بيت يليق به. يقوم ببنائه في البلد. اقترحت عليه أن يقوم بعمل اكتتاب. أن يطلب من الأولاد المساهمة معه في تكاليف بناء البيت. يبني البيت الذي يحلم به سواء على جزء من أرض بيت العائلة. أو على جزء من القراريط الستة. التي كان يعتبرها قراريط في الجنة.

رفض وثار. هاج وماج. قال إنه لن يمد يده إلى أبنائه تقطع يداه. ولا يمدها لأحد من أبنائه. سيظل والدهم. الذي يعطيهم ولا يأخذ منهم. وسيبقى هكذا حتى آخر يوم في عمره.

ذات صباح تفتق ذهنه عن حل. سيبيع نصيبه في بيت العائلة في البلد، مع أنه يهاجم الذين باعوا. وكان يرفض حتى الكلام معهم. ويبيع الشقة التي نعيش فيها في

مصر. كانت الشقة قد صفصفت علينا. عليه وعلـى ابنتنـا التي لم تتزوج.

الكل تزوج. وانتقل إلى بيته، وحتى الوالدين اللذين لم يتزوجا ضاقا ذرعا بالقيود التـي كـان يفرضـها عليهمـا. وعزلا. أقاما معا في شقة واحدة في البداية. ثم اسـتقل كـل منهما بشقة تخصه، وكنت حزينة. كنت أريد لهما ترك البيت إلى بيت زوجية كل منهما، ولكنهما كانا يهربان مـن قيـود والدهما وصرامته؛ بل وقسوته التي زادت بعد أن طلع على المعاش.

الشقة التي كنا ننظر إليها على أنها ضيقة في وجود الأولاد. كانت قد بدأت تتسع علينا، ولا نسمع فيهـا سـوى صوت الصمت. كنا نحن الثلاثة قد تحولنا إلى نقطة صغيرة في سكن واسع علينا. وهذا جعله يضيق أكثر بالحياة فيهـا. رغم أنه كان يحلم ببيت في البلد أكبر من الشقة كثيرا.

كنت ضد بيع الشقة حتى لو انتقلنا إلى البلد. كان لا بد من الإبقاء عليها. لا بد من وجود بيت لنا في مصر. فـي هذا البندر الذي لا أول له ولا آخر، والأهم من كل هذا الذي يعيش فيه أولادنا.

لكن مشكلة لم نكن نعمل حسابا لها نشأت لنا. ذلك أن ابنتنا الوحيدة التي بقيت معنا. ولم يأتهـا عـدلها. وكانـت مازالت في انتظاره رفضت أن تذهب معنا إلى البلد. قالـت إن فرص الزواج الذي مازال تحلم به هنا أكثر. وفي البلد لا وجود لها. كلهم في البلد متزوجون. ولا أحد يطلق هنـاك. كما أن المرأة لا تموت قبل زوجها.

كانت أصعب الأيام التي عشتها. طلبت البنت الشـقة عيانًا بيانًا شوارها .هي الوحيدة التي لم يجهزها والدها، هذه الشقة من حقها. ووالدها نظر إلى الأمر باعتبار أنهـا ترثـه في حياته. ولم يكن يتصور أن نذهب إلى البلد ونترك البنت وحيدة في الشقة، كان هذا فجورا وفحشًا وقلة أدب. وإن كان في آخر الليل يحاول أن يجد لها العذر، ويحنو عليها بسـبب ميلة بختها. وهكذا وافق قلبه على ما كان يرفضه عقله، وقبل أن يوافق أخذ التعهدات على أخوتهـا خاصـة الرجـال. أن يكونوا مسئولين عنها أمامه. أنذرها إنه عندما يطلـب منهـا العودة إلى البلد معنا لا بد وأن تعـود دون مناقشـة. وهـي وافقت. كان يفكر أن يحلفها على المصـحف الشـريف أن تصون نفسها. في هذا البلد الـذي لا يصـون عرضـا ولا

يراعي قيمة. ولا يبقي على أي معنى من معـاني الشـرف والكرامة.

كان الحل الذي توصل إليه. أن يستبدل جـزءا مـن معاشه، وذلك باعتبار أن الحياة في الريف أرخص منها فـي المدينة. قال لي إنها أقل من النصف. وإن كان قد ثبت له بعد ذلك أن هذا وهم. وأنه ربما كانت المدينة أرخص من القرية. أخفى عن أبنائه حكاية استبدال جزء من المعاش. وإن كانوا قد عرفوا بعد ذلك.

معركة الانتقال إلى البلد، وكثـرة السـفر. جعلـت صحته تبدأ في رحلة التدهور. أمسكت فيه الأمراض. لم يكن يحب استخدام الدواء. كان يفخر أنه لم يدخل صـيدلية فـي حياته. ولم يعرض نفسه على دكتور. فأتت له الأمراض كلها مرة واحدة، ومع إنه كان يقول إن الصحة في البلـد تكـون أحسن منها في مصر. الهواء النقي والزرع الأخضر والمياه والبراح والبعد عن المدينة المصبوبة من الأسـمنت، حتـى الهواء من الأسمنت، ، والماء من الأسمنت. بعد أن أمسـكت فيه الأمراض. كان يدعو بعد الصلاة. وقبل النـوم. وبعـد

الصحو" اللهم اجعل صحتي قد عمري" كان يتكلم عن نعمـة الموت المفاجئ. ويكره المرض الذي يذل الإنسان.

أمسكت فيه البلاد وانتهي الأمر. لا بد مـن عودتـه إليها. كان يقول لي: من الأفضل لي أن أعود إليهـا علـى قدمي. بدلاً من أن أدخلها في صندوق مغلق. محمولاً علـى الأكتاف.

وحكاية البيت جرت وراءها حدوتة القبر. فبعـد أن باع نصيبه في بيت العائلة. واستبدل معاشه. قسم المبلغ بين البيت الذي اشتراه والقبر الذي بناه. كانت مقبرة العائلة قـد ازدحمت، أصبح الدفن فيها صعبا. لم أكن كيف أدرك كـل هذه الأمور الغريبة ولا متى.

عندما ناقشته في موضوع القبر. قال لي إن الجـدع هو من يبني هناك. الأولاد تشاءموا مـن مجـرد اهتمامـه بموضوع القبر. قالوا القبر ينادي صـاحبه وإن مـا جـرى يعكس الإحساس بدنو الأجل. وأنا كنت أستمع إليه صـامتة. قال لي: إن القبر هو الدار الباقية. وأننا هنا في دار الفنـاء. فلم يقصر في حق أخرته. هاج وثار عندما عـرض عليـه الأولاد شراء مقبرة في مصر.

قال كيف يرفض قبرا وسط الحقول. الخضرة تحيط به من كل جانب. ترعة المياه بحرية وشرقية. والظل يغطي القبور التي تشكل الأشجار داير داير حولها. وهو لن يشتري قبرا إلا إن كان مغطى بالظلال. مزروعا بالظل فالظل جزء من الجنة، والهجير هو الطريق إلى الجحيم.

وهو لن يدفن في قبر وسط الصحراء. تسافر من أجل الوصول إليه يوما، لا بد وأن تكون معك خريطة حتى تصل إليه. في اليوم التالي لوفاتك يأتي الطلاب الذين يدرسون الطب. يسرق لهم التربي عظامك، ويبيعها لمجموعة منهم، حتى يدرسوا عليها التشريح وتنتقل أجزاءك من شقة إلى أخرى، ويتفرجون على موتك، يصبح جرسة وفضيحة بجلاجل.

أعلن الأولاد. أنهم لن يقبلوا الدفن في البلد. وهو قال يحرم علي الدفن في مصر. كل مقابرها في الصحاري. عطش وحرق ولون أصفر. مع أن اللون الأخضر هو الحياة. المياه نادرة. وإن وجدت تاهت بين الرمال.

كان قد أصبح كل همة الانتهاء من بناء مقبرته، كان يجهزها لنفسه. وفي الوقت نفسه كان يوضب البيت لي.

اشترى بيتًا من أصحابه. الذين شدوا الرحال إلى مصر. نحن عائدون وهم في الطريق إلى البندر الذي عدنا منه. ولكل منا أسبابه الخاصة – والوجيهة – التي تدفعه إلى هذا. أجرى في البيت بعض الترميمات. وسعى من أجل إدخـال الكهربـاء والماء والتليفون فيه. قال لي الكهرباء من أجـل الإضـاءة والتليفزيون. والماء هو الحياة نفسها. أما التليفـون حتـى لا تأكلني الوحدة. بعد البعاد عن الأولاد. عاد وقال وجع البعاد عن الضنى، كأنه كان يتوقع هذا المصير.

يعرف الإنسان منا في أعماقه أن رحلة العـودة قـد بدأت. لا أريد أن أقول إنه كان مكشوفًا عنه الحجاب. ولكنه كان قادرا على قراءة ما سيأتي به الزمان. ذلـك أن الأيـام التي فصلت بين الانتهاء من بناء القبر ووفاته كانت قليلـة. ولم أعد أعرف من الذي نادى على الآخر؟ القبر الذي نادى عليه أم هو الذي نادى على قبره؟

كل أمر في الحياة له جانبه الإيجابي – حتى مـوت زوجي – يمكن أن نقول إنه كانت فيه إيجابية ما. ذلك إنـه بعد رحيله ـ الذي لم يكن مفاجئًا ـ بفترة قصيرة نزعـت الحكومة ملكية بعض الأراضي للمصلحة العامة. هكذا قالوا.

إن هناك طريقًا ضخما سيمر من البلد، البعض قال يوصل الوجه البحري بالصعيد. والبعض الآخر أكد أنه طريق دائري حول مصر يلفها مثل الكعكة.

كانت من ضمن الأرض التي نزعت ملكيتها القراريط الستة. قراريط جنة عمره. التي كان يقول عنها إنها ستريحه في آخر أيامه. لو لم يمت موته الطبيعي، لمات من الحسرة على هذه الأرض. يوم نزع الملكية. حمدت الله إنه مات قبل أن يشاهد هذا اليوم بنفسه.

قالوا إنهم سيصرفون تعويضا كبيرا. ومرت الأيام ولم يصرفوا مليما واحدا لأي من أصحاب الأرض. والمشروع لم يتم، وتحولت الأرض التي كانت مزروعة إلى خرابات ومقالب زبالة للسيارات الكبيرة التي تحضر من البندر وفيها كل ما يستغني الناس هناك عنه. عندما جاءت أول سيارة في الليل ورمت حمولتها وجرت. ذهب الأولاد العواطلية. يبحثون في الزبالة عن شيء ثمين. وعندما عادوا بالوسخ في أياديهم قلت لنفسي: هيه الحداية بترمي كتاكيت؟

أفقت من تأملاتي. كنا قد أوشكنا على الوصول. وصلنا وما وصلنا. المباني حولنا من كل جانب. ولكن ما

نمشيه وسط المباني أكثر مما رمحته العربية وحولها الغيطان والبراح من كل جانب.

تأكدت – لست أدري للمـرة الكـم – أن العنـاوين وأرقام التليفونات وطريقة الوصول إلى كل منهم معي. عندما طلبت منهم العناوين. قالوا وهل من المعقول أنني سـأذهب إليهم؟ وأتحمل المواصلات وزحامها ورزالة أولاد البنـادر؟ وقد يفعلون معك ما يخرج عن أي تصور.

قلت إنني سآخذ هذا الورق معي حتى أستبارك بـه، بركة من الذين يسكنون القلب ويعششون فـي حبـة الفـؤاد ويتعلقون برموش العين. فكرت: ألـيس هنـاك احتمـال أن يحضر أحد لها؟ تذهب هي ويجئ هو وتحـدث حالـة مـن البحترة على السكك. قلت لنفسي: إذا كان لم يكلف خـاطره بالاتصال، فكيف يحضر؟! ثم إنهم قبل الحضور يتصـلون. يطمئنون على وجودي في البيت. ويسألونني إن كنت أريـد شيئًا من البندر. كان هذا يحدث فـي الوقـت الـذي كـانوا يحضرون فيه إلي.

عند مدخل البندر شاور بعـض الركـاب للسـيارة. وركبوا، كان السائق مستعجلاً. ولكنه توقف وأركبهم. في كل

مرة كان يحدث كلام وحديث عن الأجرة. والسائق يضـرب في العالي. والناس المساكين يفاصلون.ويود كـل مـنهم أن يقيس المسافة بالمتر؛ حتى يحدد المبلغ الذي سيدفعه. وكلمـا ركب راكب هدأت نفسي واطمأنت روحي. إلى قلـة المبلـغ الذي يمكن أن يطلبه مني سائق.

كل راكب ما أن يستقر به الجلوس في العربية. حتى يبدأ في الكلام، وهل هناك موضوع آخر غير الزلزال لكـي يتكلم فيه؟ شخص تساءل بعد أن استمتع بـالجلوس بجـوار النافذة. ماذا يمكن أن نتوقع بعد الفجور الذي يحيط بنا مـن كل جانب؟ لقد طفح الكيل. وكان لا بد من قارع.

سمعت من يقول إنه لا بد من وقوع معجزة ما بعـد الزلزال، وربما عدد من المعجزات. وإن مضى الوقت دون حدوث المعجزة سيكون هذا معناه أن الله غاضب على البلـد ومن فيها. رد عليه واحد متسائلاً: كيف يغضب على بلد فيه هذا العدد من آل البيت؟ إنهم بمثابة الأركـان التـي تثبـت الأرض وتحمي البلد من المصائب. إنهـم البركـة الباقيـة. وآخر الخير الباقي على الأرض.

شاب متعلم. قال إن الزلزال لو لم يوجد لاخترعـوه وصنعوه، إنهم يعيشون على الفضائح في الأيام العادية. فمـا بالك بكارثة في حجم هذا الزلزال. ونحن الذين ندفع ثمن كان المصائب في النهاية.

لم أفهم من كلام الشاب حرفًا واحدا.

٤

.. مصر أخيرا.. يقولون عنهـا القـاهرة. اللحظـة الأولى. النظرة الأولى. العين تصافح الأشـياء لأول مـرة. وتحاول أن تألف المكان. عواصف غبارية فـي الشـوارع. غبار يخيل إلي أن الذي تحركه عاصفة ترابية ضخمة. ولكن لأن الريح ساكنة والهواء يقف في مكانـه. أدرك أن سـقوط أجزاء من بعض البيوت هو الذي أثار هذا التراب في الجو.

جدران صفراء في الشوارع. جدران مـن الغبـار. جدران وهمية تحجب الرؤيا. الغبار الذي يصل إلى الأنـف يدفعني إلى العطس. غبار ذهبي اللون مثل غبار النحـاس. مثل ذرات الطحين المتناثرة والمتطايرة. يقترب الغبار منـي فيضيع الأفق أو يتوه من نظري، وأفقد حتى القـدرة علـى الرؤيا.

لسنا في أيام الخماسين. والصحراء ليست قريبة منا. ابتعدت الصحاري أو تراجعت. بعد زحف العمران. من أين يتطاير هذا الرمل في الجو؟ من أين تأتي؟ وإلى أين تذهب؟ سألت نفسي ولكن بدون إجابة.

كانت البلد في انتظار هزة زلزالية أخـرى يقولـون عنها توابع الزلزال. تبدو المدينة خفاقة بيضاء مثـل قلـوب الأطفال، كان الناس يتناقلون أخبار الساعة بلهفـة وحسـرة وألم. وكان الرعب يتجـول فـي الشـوارع ويقـف علـى النواصي.

كان مشهد المدينة قد تغير. ألم أعش فيها سنوات من عمري؟ والفزع من الفزع. والرعب من الرعب. والخـوف من الخوف. يرسم ملامح جديدة لوجوه الناس. النساء يحتمين بالرجال. والأطفال يتعلقون بأذيال أمهـاتهم. وكبـار السـن يتعكزون على الشباب، والجميع لم يكونوا يسـمعون سـوى دقات قلوبهم. دقات قوية ومرعبة من الخوف والفزع. إن هذا يحدث للناس دائما عندما يجدون أنفسهم أمام المـوت وجهـا لوجه.

طوال الطريق. وقبل أن أعرف حجم ما جرى. كنت أدعو لأبنائي وأحفادي. ولكن بدون صوت. يا رب سترك. يا رب نجي أولادي من كل سوء. اكتب لهم في كـل خطـوة سلامة. كرامة للنبي نجهم من كل شر. يا رب يا نصير كـل ملهوف.

نظرت إلى المشهد أمامي. العمارات العاليـة التـي تصل السماء بالأرض. تساءلت: ماذا جـرى لهـا لحظـة الزلزال؟ هل تأرجح الجسر على بحر النيـل الـذي يصـل الضفة الغربية بالضفة الشرقية للنيل؟! هل انقلبت القـوارب فيه؟ والعمارات العالية هل مالت من أجل أن تسـتند علـى بعضها؟ وماذا فعل ساكنوها لحظة الميل؟!

سمعت الناس تنصح الناس. قلت لنفسي: هل ينصلح الحال؟ هل يدفع الزلزال الناس إلى أن يظهروا أجمـل مـا فيهم؟ كانت الناس تطلب من الناس تفـادي المشـي بجـوار الحيطان على الأرصفة. وأن يكون المشي في بحر الشارع؛ لأن ذلك أسلم. قلت لنفسي. عن أي سلامة يتحدثون مـع أن الموت يفرد قامته في كل مكان ويوشك أن يقول: أنا هنا؟.

مصر أخيرا: تعجبت مـن حـالتي. إنهـا القسـمة والنصيب. المقدر والمكتوب. المكتوب على الجبين الـذي لا بد وأن تراه. منذ أن أقمت في البلد. وأنا أنوي الحضور إلى مصر. وأن ألف وأدور على آل البيت. وفـي كـل صـباح أنوي.

ولكن – في كل مرة – أؤجل تنفيذ نيتي إلـى يـوم آخر. مرة لأن اليوم ليس يوم جمعة وأخـرى لأن ملابسـي غير مكوية وثالثة لأن صحتي ليست على ما يرام. ورابعة حتى أرتب أموري مع أولادي، هل من المعقول أن أذهـب إلى مصر دون أن يعرفوا؟! أكون بذلك قد أجرمت في حـق نفسي.

ولكن ها هو اليوم الذي فرض علي تنفيـذ الرحلـة. دون ترتيب أو اتصال. سأمر على أولادي أولاً. اليوم يـوم أولادي. وغدا لآل البيت أعرف أن الغد ليس جمعة. ولكن ما باليد حيلة. أطمئن على أولادي ثم أقوم برحلة الشكر غدا.

حمدت الله. أن الأولاد يعيشون في بلد واحـد. هـو مصر. ماذا كان الحال لو كانوا يعيشون في أكثر من بلـد؟ ولد في الإسكندرية؟ وبنت في الصعيد؟ وولـد آخـر فـي بورسعيد؟ وواحدة في الواحات أو البحر الأحمر؟ يا داهيـة دقي. لو أن واحدة تعمل في مرسى مطروح أو أسوان. كلهم في بلد واحد. الحمد لله أن هذا جرى. إنه توفيق من صاحب كل توفيق يحدث لنا. فهو الذي يرتب أمور حياتنا. حتى قبل أن نأتي إلى هذا العالم.

حتى الابن والابنة المغتربان – ردهما الله من الغربة وجعلها غربة مؤقتة – الناس يقولون في البلد. الغربة تُربة. قرب اللهم من يوم عودتهما إلى مصر. ربما كان يوم العودة قريبا بالنسبة للولد.

فهو يعمل هناك فقط. وربما كان يوم العـودة بعيـدا بالنسبة للبنت. فقد تزوجت وأنجبت هناك. ولد وبنت. البلـد بلد زوجها وابنها وابنتها. ولكن لها شقة في مصـر. وهـذا يعني أن عودتها واردة. ولكن متى؟ علم هذا عند الله.

لم أعرف حجم الزلزال إلا عندما نزلت فـي بـاب الحديد. كنت متأكدة أن البلد تعرضت لزلزال. سمعت الناس تتكلم عنه وشعرت به في بيتي. وطوال الطريق من قريتي. قرية الروضة وحتى مصر. لم يكن للناس كلام سوى عنـه. لقد وصل عندما كنت أتفرج على مارلين مونرو. والرجـال الذين يفضلونها ساخنة. ومع هذا لم أتصور حجمـه؛ لأننـي عندما كنت أنظر للناس كنت أجدهم يعيشون حياتهم بشـكل عادي، وأن الأمور تجري مثل أي يوم آخر.

سيارات ترمح، قطارات تجري. وأخرى متوقفة على جانبي الطريق. وركاب مزدحمون. ومشاة علـى الصـفين.

ومقاهي ومحلات الكاوتشوك مفتوحة. وباعة الفاكهة يلوحون لنا. يشيرون إلى الفاكهة. كل هذه الأمور أشاهدها فـي كـل سفرية. وهي تحدث اليوم بدون أي تغيير.

في باب الحديد، قابلت الزلزال فعلا. وجدت نفسـي أمامه وجها لوجه، ذعر وفوضى. رمح وجري في كل اتجاه. كان المارة يبتسمون لبعضهم. كانوا سعداء بالنجـاة. وكـل واحد يقول لنفسه. أو يحاول أن يقول لنفسه بأنه سعيد؛ لأنـه ما يزال على قيد الحياة. رغم ضخامة ما جرى. كان اللغـط المحيط بي ذا أصوات زجاجية. تصورت أن صخرة طائرة. نزلت علينا من السماء فتعكر صفو الجو وزرقته الخريفيـة. القريبة من اللون الرمادي.

حالة سفر غير عادية. من مصر وإليها. الأكثر كان الخروج من مصر. والأقل هو الحضور إليها. نـاس تهـج مكروشة النفس متعبة الصدور. يغطيها العرق. رغم بعـض نسمات الخريف التي تسللت إلى الجو. تجري في كل اتجاه، ناس تحمل أشياءها. ولا أحد يجلس بالقرب مـن المبـاني. والذين يجلسون يفضلون الجلوس في الأماكن البعيدة عن أي شيء تم بناؤه على الأرض.

مع أنه في هذا الوقت مـن النهـار. يحـب النـاس الجلوس حيث توجد الظلال التي تحميهم من الشمس. لكـن الخوف من المباني جعلهم يضحون بالظلال ومـا يمكـن أن تمنحه لهم من طراوة يفتقدونها في هذا الوقت من النهار.

احتارت بأي الأبناء تبدأ؟ بمن تحبه أكثـر؟ أو مـن تخاف عليه أكثر؟ وقفت. يطن الموضوع في رأسها. حكايـة أولادها. وتوقع ما يمكن أن يكون قـد وقـع لهـم. ولكـن الأتوبيس الذي وقف أمامها في هذه اللحظة بالذات. هو الذي حسم ترددها. ما إن انفتح بابه، حتى نزل ركاب وما إن نزل منه آخر راكب فيه. وهو في العادة راكب لكعي لا يعـرف إلى أين يريد الذهاب. ويسير بدون هدف. وقد تقوده الصدفة. أكثر من أن يقوده تصميمه الداخلي على الذهاب إلى مكـان معين.

وجدت نفسها تصعد إليه واعتبرت أن هذه الصـدفة رسالة من الله لها. أمر لا بد من تنفيذه. إلهام أو رغبة إلهية كل ما عليها أن تنفذها وهي سعيدة؛ لأن من يحركه الله. ماذا تخشى من الناس؟ كل الناس؟ كان الأتوبيس ذاهبا إلى المنيل. الذي نقول عنه منيل الروضة، وبهذا تكون قد جـاءت مـن

الروضة إلى الروضة :الروضـة القريـة الخضـراء إلـى الروضة الحي الذي يحيط به الماء من كل جانب، ومع هـذا هناك فوارق بين الروضة التي جاءت منها، والروضة التـي هي في الطريق إليها. جاءت من الجنة إلى عذاب النار. إلى جهنم إبليس. ترددت قليلا، قالت لنفسها إن الأمور لا يمكـن أن تصل إلى هذا الحد في المقارنة.

صعدت الدرجات الثلاث. وجلست. ومضى بعـض الوقت حتى حان موعد تحرك الأتوبيس. كان خاليا من زحام الناس المهول في هذا الوقت من النهار. فقـد شـعرت أنـه يمكنها أن تغير مكان جلوسها. تتبغدد وتختار. تقبل وترفض. وهذا لم يحدث لها من قبل في أي أتوبيس. ولا حتى سـيارة بالنفر، وإن كان قد جرى مرتين في هذا اليوم الغريب.

كانت قد جلست بمجرد صعودها في آخر صف من الخلف. فوق الكنبة العلوية. التي يكون موتـور الأتـوبيس تحتها. تعرف هذا من سخونتها. وإن كان الجلوس عليها يبدو محببا في الشتاء؛ لأنه يدفئ الإنسان ويطرد عنه البرد. فـإن الاضطرار للجلوس عليها في الصيف يجعل الإنسان. كما لو كان في جهنم الحمراء. ويصل إلى المكـان الـذاهب إليـه

مشويا. ثم إن الجلوس في الخلف يجعل الإنسان ملطشة لكل الصاعدين. وربما شال عنهم ما يحملونه. وإن لـم يجـدوا أماكن للجلوس فيها. تبقى الأشياء التي يحملونها معهم حتـى يحين مكان نزولهم. ربما يتركونها معها كنوع مـن حجـز مكانها. إن نزلت هي قبلهم. وهم يفعلـون هـذا. إن كـانوا يركبون من المحطة الأولى وحتى المحطة الأخيرة في الخط.

في اللحظة التي تقوم فيها، قبل أن تصل إلى محطتها كنوع من الاستعداد وما إن تسلم صاحب الشيلة شيلته حتـى يجلس مكانها.

أمامها فرص نادرة للجلوس في مكان أفضل. ذكرها بهذا حر جهنم الذي تجلس فوقه. كل هذا جرى والأتوبيس لم يتحرك من مكانه، فماذا سيجري عندما يمشي ويرتفع صوت الموتور. وتزداد الحرارة؟!

قامت من مكانها. قبل أن يحل عليها التعب. مسكين البني آدم. لا الزحام يريحه. ولا الكراسي الخاليـة تشـعره بالراحة أيضا. احتارت أيـن تجلـس؟ نظـرت وتفحصـت وحاولت أن تحسب في عقل بالها مزايا وعيوب كل مكان من الأمكنة الخالية أمامها. اتجهت إلـى الكرسـي الـذي وراء

السائق مباشرة، جلست فيه. هذه الأتوبيسات الموحدة الأجرة لم تجعل التسلل من الدرجة الثانية إلى الدرجة الأولى مغامرة مالية. تدفع الفارق فيها بمجرد صعود المفتش الـذي يفـتش على التذاكر. وهي لم تدفع ثمن تذكرتها بعد.

كل ما همها أن يكون الكرسي بجوار نافذة. يـدخل منها الهواء الذي يعد أكبر وأعظم رحمة. الحمد لله إنه مازال ببلاش. في هذه الكتمة الكبيرة. بمجرد جلوسها شدت الزجاج المتحرك؛ حتى تتأكد أنه من السهل أن تغير مكانها قبـل أن يهل خلق الله. وتحدث أزمة ليس في الأمـاكن. ولكـن فـي الهواء الذي يمكن أن يستنشقه الإنسان.

حركت الزجاج. بدأ هواء الله في الدخول إليها.

إنه ليس مثل هواء البلد. ولكنه هواء والسلام. أفضل من الكتمة والحر.

بعد وقت خيل إليها أنه طـال. تحـرك الأتـوبيس، راحت تنظر حولها. وهي تحاول أن تتذكر كم مرة قطعـت هذه الرحلة معه؟ وكم مرة مع الأولاد؟ كان المرحوم يقـول لها. من نعم الله علينا وجود هذا الأتوبيس الذي يتحرك مـن

باب الحديد ولا ينزلون منه سوى عند البيـت، العـذاب أن يضطر الإنسان إلى تغيير الأتوبيس ولو حتى مرة واحـدة. فما بالك بالذين يغيرون أكثر من مرة؟ كان يقول إنه من نعم الله أيضا أن هذا الأتوبيس يتحمل العائلة كلها.

تساءل بصوت عالٍ: دلوني على تاكسي في أي مكان من البلد يمكن أن تركبه العائلة مرة واحدة؟ يحتـاجون إلـى ثلاثة أو أربعة تاكسيات. ولأنه من المستحيل أن تسير مـع بعضها. فقد يتوهون من بعضهم في الطريق.

كان يحاول أن يجعل من فقره جنة لهـم. وأن يجـد لهذا الفقر مزايا في كل ما تقع عليه العـين وتسـمعه الأذن وتشمه الأنف. ولكنه رحل انخطف منهـا. وتشـتت شـمل الأولاد وسكن كل منهم في مكان بعيد عن الآخر.

تتوه الذكريات. وتتداخل وتختلط وتحتـاج لجهـود جهيدة حتى تستطيع أن تتذكرها وتربطها في سياق واحـد. كانوا يسافرون إليها في الشتاء والصيف بـل فـي الربيـع والخريف.

ربما كانوا يحضرون إلى البيت أكثر من الفصـول. كانوا يسافرون إلى البلد كثيرا، كلما شـح الـزاد والـزواد وضاقت عليهم الحياة. لم يكن أمامهم سوى السفر إلى البلـد. بلده وبلادها. وإن كان مازال له من سلساله أقرباء كثيرون في البلد. أما هي فقد تباعدت الأمور بينها وبين أقربائها لدرجـة أنها تبدو كما لو كانت مقطوعة من شجرة، لا أحد لها فـي هذا العالم سوى أولادها.

إنها البلد التي كانوا يحاولون ربـط أولادهـم بهـا وجعلهم جزءا منها. ويأخذون عليها وتربطهم بها ذكريـات جميلة وصداقات عذبة. حتى تصبح بلادهم في النهاية ويصبح التردد عليها ترياقًا. والسفر إليها علاجا، والبقاء فيها بـديلاً للذهاب إلى المستشفى إن أصابت أحدهم علـة. ومـا أكثـر الأوجاع التي يمكن أن تصيب الإنسان.

كانوا يسافرون إلى البلد بعد ظهر الخميس، يوم كله زحام وعرق وغبار، وهذا كان يجعل لحظة وصولهم إلـى البلد وقت الراحة المسروق من التعب. وكانوا يعودون مـن البلد مساء الجمعة؛ لأن أشغالهم تبدأ صباح السبت. وبقدر ما

كان وجودهم يسبب لها من البهجة والتعب فإن سفرهم كـان يترك وراءه حالة من الفراغ.

لفت نظرها أن الطريق كان خاليا. لـم تكـن ثمـة إشارات تتوقف فيها السيارات على شكل طوابير ولا زحـام على الأرصفة، والمشاة لا يسدون عين الشمس، كانت تسمع أن الإشارات والزحام يجعلون المسافة من باب الحديد وحتى البيت تأخذ من الوقت أكثر من الوقت الذي يحضرون فيه من البلد. وأحيانًا يصل إلى الضعف.

الركاب القليلون كانوا يتكلمون. وهل هنـاك غيـر الزلزال للكلام عنه؟ وإن كانت قد عجزت عن الاستماع إلى ما يقال؛ بسبب صوت الأتوبيس. ولأنه لم يجلس بجوارهـا أحد. اختار كل راكب كرسيا في أبعد مكان عـن الكرسـي الذي يجلس عليه الآخرون.

كان كل واحد عنده قصته الخاصة عـن الزلـزال. سواء في منزله أو مكان عمله. وكـان يقـدم الكثيـر مـن التفاصيل عما جرى له. ويا حبذا لو كانت هنـاك أعاجيـب وحكايات تفوق الخيال الإنساني. ذلك أن المآسي التي نتجت عن الزلزال لم تكن قد اتضحت بعد.

في دقائق ليست كثيرة. اقتربت من حي المنيل. كان المرحوم يحب أن يقول عنها جزيرة المنيل. وكـان الأولاد يحبون مناغشته عندما يقولون له: شبه جزيرة المنيـل؛ لأن الحي يتصل باليابسة من أحد النواحي، كانوا يعرفـون أنـه على حق ولكنها مناقشة والسلام.

لم تنظر في الساعة لحظة تحرك الأتوبيس من بـاب الحديد حتى تحسب الوقت الذي استغرقته الرحلـة بالدقيقـة والثانية، وتحسب الفارق بين الوقت في الظـروف العاديـة، والوقت في هذا اليوم.

أصبحت على مشارف المكان الذي عاشت فيه معظم سنوات عمرها. هنا كان السوق الذي كانت تشتري منه مـا تحتاجه من الخضر والفاكهة، منذ أن أصبح لها بيت. وهـي تحب شراء أشيائها بنفسها. ليست من ذلك النوع من النسوان التي تكتب قائمة طلبات لزوجها لحظة نزولـه مـن البيـت صباحا حتى يعود بها عند عودته وقت الظهر. وهنـا كـان البقال الذي كانت تستبضع منه طلبات البيت. وفـي مكـان قريب من النيل. كانت حلقة السمك الصـغيرة التـي كانـت تتسوق منها السمك.

نزلت بالقرب من البيت، في أقرب محطة إليه. نفس المحطة التي كانوا ينزلون فيها من قبل. عندما كانوا يعيشون هنا وفي الناحية الأخرى من الشارع. في المكان المقابـل، كانوا يركبون الأتوبيس؛ لكي يذهب كل منهم في حال سبيله. كما ارتبطت هذه المحطة وتلـك بحكايـات تنـاثرت وهـم يفطرون صباحا. قبل خروج الوالد من البيت على بـاب الله. مصحوبا بدعواتها. أن يرزقه الله برزق عياله. والأولاد كل إلى مكان دراسته أو محل عمله. والدعوات أن يحقق الله لكل منهم ما يريده. وأن يفتح في وجهه كل الأبواب المغلقة.

كانت الحكايات تمتد على الغداء كأنها وصلة ثانيـة. تكمل ما قيل في الصباح. وفي بعـض الأحيـان تسـتمر الحكايات إلى العشاء. مثل مسلسلات التليفزيون. وكـم مـن خناقات كانت المحطتان مسرحا لها، كانوا يسمعون الأصوات والصياح والصفير وهم في البيت ، ومن الشرفة كان يمكـن مشاهدة جزء من المشهد الذي يجري. فضلاً عمـا يحكيـه الأولاد بعد العودة. أما الوالد الكبير فقد كان ما يحكيه عـن عمله وما يجري له فيه من نوادر وحكايات وقصص تتغيـر كل يوم.

حاولت أن تتذكر. متى كانت آخر زيارة لهـا لهـذه المنطقة؟ وكم مر على هذه الزيارة؟ وما هي المناسبة التـي جاءت فيها؟ لم تستطع أن تتذكر. وهل مخهـا دفتـر حتـى تتذكر كل هذه التواريخ؟

كان حجم التغيير ضخما. بيوت قديمة اختفت. كأنها لم تكن موجودة من قبل. عمارات أقيمت، وحدائق لم يعد لها وجود، وميادين جديدة طالعتها ولم تشاهدها من قبل.

جديد في كل مكان. ربما لأنها غابـت أكثـر مـن اللازم. ولولا ما جرى اليوم. ما كانت قد حضرت. إن كـان التغيير قد طال البلد الصغير الذي تعيش فيه. فما بالك بـأم الدنيا؟ وإن كان ما أفزعها وأقلقها سرعة التغييـر وحجمـه وتسارعه.

تساءلت: هل تحضر في إحدى المرات فلا تجد البيت الذي يستأجرون شقة فيه؟ ما الذي يحول دون ذلك؟ ومـاذا يمنع؟ كل شيء جائز. وكل المستحيلات أصبحت ممكنة.

كانت تخاف من اللحظة التي ترفـع فيهـا الجريـدة الملوثة بالدماء عن وجه ميت. فيطالعها وجه ابن أو ابنة لها،

أو الثانية التي تمسح فيها الدماء عن وجـه جـريح، فتخرج من تحت الدماء تعرفها. لا تعرف – لا قـدر الله ولا كان – كيف تتصرف لو حدث هذا.

وهي تمشي في الشارع من المحطـة إلـى البيـت. تساءلت: هل تسرعت بالحضور؟ هل كان يجب البقاء حيـث كانت؟ لقد شهدت هزة أرضية كبرى. لم تشهدها من قبـل. وكان عليها أن تتحرك قبل أن تستقر الأرض من جديد؛ لأن الأوضاع إن استقرت سيكون من المستحيل تغييرها بعد ذلك.

توقفت. اكتشفت أن يدها اليمنى أمامهـا. وأن يـدها اليسرى خلفها. قالت لنفسها: يا كسوفي، يا ندامتي. أول مرة أزور أولادي. دون أن تكون معي هدايا. لكل مـنهم هديـة باسمه. الكل يعرف أن الوقت ليس وقت هدايا. هل كان فـي هذا اليوم وقت للهدايا؟ الفلوس هي الحل. توزع عليهم ممـا معها. حمدت الله أن معها فكة.

وقفت في منتصف الشارع، تساءلت: هـل يمكننـي التعرف على هذه المدينة التي غيرت من شـكلها وأوجـدت لنفسها إيقاعا جديدا؟ لا المعالم هي نفس المعالم، ولا النـاس هم نفس الناس.

زحام الشوارع لم يعد له وجود. انتقل من الشوارع، أمام المحلات، إلى الحدائق العامة. سألت عن السبب فقيـل لها: إن الناس تتوقع توابع الزلزال. حجمه يؤكد أنه لا بد من توابع له؛ ولذلك هربوا من بيوتهم إلى الحدائق.

أسر بأكملها انتقلت إلى الحدائق. حيث قضت بقايـا النهار. والليل الذي جاء بعده. ومعهم أدوات الشاي وتنـاول الطعام. البيوت التي كانت أسرارا من قبل أصبحت جزءا من الشوارع. لم يشعر الناس بالفضيحة ولا معنى الستر. ذلك أن ما جرى قد غير كل المفاهيم.

إنه الزلزال.

٥

.. نظرت، فرأيت البيت. حمـدت الله فـي سـري. مازال البيت واقفًا، كنت أتصور أن هـزة صـغيرة كفيلـة بالقضاء عليه وجعله كومة من التراب. فما بالك بزلزال هز أم الدنيا؟ من الصعب وصف فرحتي لمجرد أن البيت مازال في مكانه.

إنه البيت الذي عشت فيه سنوات جميلة وطويلة من عمري. حيث توجد الشقة التي عاشت فيهـا العائلـة معـا. عرفت معنى اجتماع الشمل في هذا المكان. وعندما خرجت منه خرج هذا المعنى من حياتي في نفس اللحظة. ولم يعـد إليها إلا في حالات نادرة.

عندما اقتربت أكثر من البيت، خيل إلي أنه هدية من الماضي، فيه رائحة الزمن الجميل الذي مضى ولن تعـود.، استعادته أكثر من مستحيلة. الصدفة وحدها هي التي جعلتـه أول مكان أصل إليه بعد البلد مباشرة. بدا لي البيت وكأنـه يميل.

بيت قديم. كان هذا هو أول انطباع في الذهن. بعـد أن وقعت عليه عيناي. وهل في ذلك أي اكتشـاف جديـد؟ عندما سكنا فيه منذ أكثر من ثلاثين سنة مضت. كـان مـن البيوت القديمة في الحي، ولكننا أقنعنا أنفسنا بجدته. وقلنا هذا للأولاد. الذين جاءوا إلى الدنيا فيه. فـوق رءوس بعضـهم. واحدا وراء الآخر. ولكن مع مرور السـنوات كـان مـن الصعب إقناع الأولاد بحكاية أنه بيت جديد. بدا قدمه واضحا وسط العمارات الجديدة. والأبراج العالية التي تغطي الفضاء. وتحجب الشمس بالنهار والقمر ليلاً.

العمارات الجديدة. أكدت قدم البيت. دون أن تقصـد ذلك، وأشعرتنا أن البيت من عمر الأهرامات. يبدو أن الذي بنى الأهرامات. هو الذي بنى البيت. في نفس السنة. وبنفس العمال الذين بنوا الأهرامات.

كان صاحب البيت يتكلم عن ضرورة هدمه. قبل أن يقع على من فيه. كان يعيش معنا في الدور الأرضي منـه. وكان يقول – دائما وأبدا إن الذي بناه هو من بنـى مصـر، الذي كان في الأصل حلواني.

أصل المشكلة أننا بعد أن سكناه أصبح من المستحيل تغيير البيت. أصبح البيت مثل القبر. لا يمكن النقل منه، كنا نسمع من المرحوم عن لافتة "للإيجار" التي كانت موجـودة بكثرة. ولم يعد لها وجود. وحكايات الذين كـانوا يغيـرون سكنهم لمجرد أن النفوس تغيرت مـع الجيـران. أو بسـبب الكسل.

أو عدم وجود الرغبة في طلاء جدران الشقة. فيكون الحل الأسهل هو التعزيل وتغيير الشقة.

قبل أن نصل إلى مصر. ويقول زوجي إنه هنا نهاية المطاف وحسن الختام. ولن نجد أحلى من هذا المكان. كنا قد غيرنا شققنا أكثر من مرة في مدن أخرى متناثرة فـي بـر مصر. وفي هذه المدينة كانت شقة المنيل هي الأولى. وهي أيضا الأخيرة.

وأصبح التغيير مستحيلاً. البيت الـذي يولـد فيـه الإنسان. هو الذي يزوره فيه ملاك الموت. من الرحم إلـى البيت. ومن البيت – نفس البيت – إلى القبر. ثم بدأت حكاية التمليك. ومن يقدر على دفع ثمن شقة؟ مـن بعـدها انتهـى الأمر. أصبحت الشقة هي قدر الإنسان ونصيبه.

بيت من بيوت الزمان القديم. يوحي بعز لم يعد لـه وجود. مبني من الحجارة وقطع الدبش. حوله حديقـة. ولـه سور خارجي. وباب على الشارع. كنا نسميه باب السكة. في وسط السور. مواجها لباب داخلي. كنا نغلقه في الليل. ومـع كل ساكن من السكان نسخة من المفتاح.

مشاية من الباب الخارجي إلى الباب الداخلي. كـان زوجي سعيدا بحكاية البابين. كان يقول في هذه المدينة لا بد من باب يغلق في كل الأوقات. من يطرق هذا الباب لا بـد وأن يكون غريبا. وغرباء المدينة لا يحملون سوى الشر. لا خير من ورائهم أبدا.

مشاية من البلاط المضلع. تصل من الباب الخارجي وحتى الداخلي. وفي الحديقة زرع أخضر. عندما كنا نسـكن هنا. كان في الحديقة جرجير وفجل وكزبرة وبقدونس وبصل أخضر. لكن كل هذه الزراعات تم استبدالها بزهور. المهـم وجود الزرع حول البيت من كل ناحية.

شاهدت سكان البيت يقفون في الحديقة. لم يحدث أن اجتمعوا بهذه الصورة. ما يفرقهم أكثر مما يجمع بينهم. لا بد

وأن الذي جرى هو السبب؛ ولهذا فهم يدوسون على الـزرع بكل قسوة وغلظة.

كانت ابنتي تقف بينهم. شاهدتها قبل الوصول إلـى البيت؛ فشعرت بالاطمئنان عليها. بداية الرحلة مطمئنة. هـا هي لم تصب بسوء. لم يحدث لها أي شيء، حمدت الله فـي سري وشكرته. عندما يستقر بي المقام في أي مكان. سيكون أول ما أقوم به هو الصلاة: صلاة شكر. شـكر لله سـبحانه وتعالى.

أشكره على أن البيت لم يقع. كان البيـت مصـيره يقلقني منذ بداية الرحلة. هذا البيت نوع وكل البيوت الأخرى نوع آخر وأشكره على أن ابنتي مازالت على قيـد الحيـاة. نجت من المصير المؤلم. الذي وفره الزلزال لكثير من سكان هذه المدينة.

قليل من عفش السكان معهم على الأرض. متنـاثر بينهم. يبدو أنهم تركوا البيت ونزلوا إلى الحديقة، إنها أكثـر أمانًا من كل الشقق. لا يوجد فوقها سوى سماء الله العاليـة. وهل هناك من هو أرحم منها؟ في أيام تبددت فيها الرحمة؟

شقتنا في الدور الأخير: الرابع بعد الأرضي. هكـذا كنا نقول. حتى لا نضطر إلى القول: الدور الخامس. وبعض الأبناء كانوا يقولون إنه يقابل الدور السابع فـي العمـارات الجديدة، يوجد متران زيادة في ارتفاع كل دور، عشرة أمتار تساوي ارتفاع دورين. كانوا يقولون إننا نغالط فـي الأدوار والارتفاعات. كنا نقول لهم: إن ذلك أفضل من المغالطة في أمور أخرى.

عندما كنت أقترب من البيت. وما إن شاهدته واقفًـا في مكانه، حتى بدأت التفكير في عناء صعود السلم. الـذي يبدو مثل الجبل في وقفته. عمري لم يعد يسعفني. وصـحتي لم تعد تساعدني. وقلبي الذي يطفطف ويرفرف عنـد أقـل مجهود أقوم به سيخونني قبل الوصول إلى شقتنا. تسـاءلت: كم مرة صعدت السلم؟ عندما كانت هنـاك صـحة وعافيـة وروقان بال. إنها أمور أهم من كل ما عداها، كنـت أخـذ السلمتين في قفزة واحدة.

أدركت تقدم العمر من البطء في صعوده. اكتشـفت هذا عندما ضبطت نفسي أعد الدرجات. من الدرجة الأولى. وحتى الدرجة الأخيرة قبل شقتنا. وفي كل مرة كنت أصـل

إلى رقم مختلف عن رقم المرة الأخرى. لا بد وأن العيب في عدي. أو قدرتي على العدد. لأن عدد الـدرجات واحـد لا يتغير. من غير المعقول أن تكون قد سرقت درجة في الليل.

بعد ذلك أصبحت لا أسـتطيع الصـعود. إلا بعـد الإمساك في الدرابزين. لا أعرف كيف كنت سأصعد بدونه. وعلى الرغم من شكله الذي يبدو لامعا من بعيـد. إلا أننـي كنت أكتشف بعد الاعتماد عليه في الصعود، كم من الأتربـة والقاذورات عليه. بعضها أصبح جزءا منه. بعـد أن جـف وجلد.

أتذكر أن أوبخ البواب علـى هـذا الإهمـال. مـن المفروض أن ينظف السلم يوم الخمـيس أسـبوعيا. ولكنـه يكتفي بدلق المياه عليه. ويتركها تنزل على أسفل ورغم هذا التصميم. كنت أنسى.

عندما بدأ الدرابزين يهتز تحت يـدي. قلـت إننـي السبب. من يمسك به سواي؟ إمساكي به قلقله مـن مكانـه. جعله مهددا بالسقوط. لا بد من الاعتماد على وسيلة أخـرى بدلاً من الإمساك به. قبل أن يطلـب منـي الجيـران عـدم الاعتماد عليه.

بدأت أستريح. وآخذ نفسي بين دور وآخـر. كـان الجيران يفتحون لي أبواب شققهم ويعزمون علي. أن أستريح في شققهم، وأن أشرب الشاي والقهـوة والمثلجـات. كنـت أشكرهم وأقف حيث وصلت. أستند إلى الدرابزين واقفة. أو أسند ظهري إلى الحائط.

حتى التوقف لم يعد يريحني. المهم هـو الجلـوس. الوقوف بالنسبة لي عملية صلب حيل وصلب طول. أشـعر بدقات قلبي المبهورة. أسمع دقات قلبي على قفص صـدري. أسمع صوتها وأنا واقفة أحاول أن أستريح.

سمعت من أولادي. أن بعض عمارات زمان التـي بناها أولاد الذوات. فيها كراسي في كل دور. من أجل هـذه الراحة. والكراسي مثبتة في الجدران. وهي عبارة عن مستند من الخشب في الزاوية بين جدارين.

هل يمكن أن يبني صاحب البيت مثل هذه الكراسي؟ لو فاتحناه لرفض. الشيء الوحيد الذي يبدو مستعدا للقيام به في أي وقت – دون أن نطلب منه ذلك – هو هـدم البيـت. وأي طلب آخر يرفض حتى مجرد الكلام فيه.

ولو تكلمت مع السكان لكي نقيم هذه الكراسي بأنفسنا سيجعلون أذنًا من طين وأخرى من عجـين. كلـه إلا دفـع الفلوس. التي لا تخرج من الجيوب سوى بطلوع الروح.

ما إن أصل إلى الدور الأخير. إلا وتكون روحي قد أوشكت على الطلوع. أفتح باب الشقة بمفتاح معي. حتى لـو كان بالداخل أحد الأولاد. لا أنتظر حتى أدق الجرس. ويفتح لي الباب. فهم من أجيال اللكاعة التي لا تسعف مكروبـا ولا تريح متعبا.

أفتح الباب. أضع قدمي على أرض الشقة. أوشك أن أجري إلى أقرب مقعد في الصالة. أجلس عليه. أشعر أننـي ولدت من جديد.

عندما كنت أقترب من البيت. فكـرت فـي مشـكلة الصعود. كنت متعودة على هذا الأمر. والتعود على شـيء نصف الطريق للقيام به. منذ متى لم أصعد هذا السلم؟ الأمر الآن أكثر صعوبة. قد لا أستطيع الصعود وأنا غريبـة عـن السكان. من سيفتح لي باب شقته؟ كنت أخجل من الـدخول وأنا أعيش بينهم. فماذا أفعل بعد أن أصبحت غريبة؟!

أن أصعد السلم في المرات السابقة. الحل هو إرسال ابن أو ابنة البواب إلى الشقة. سأضع في يده جنيهـا. حتـى يسعد بدلاً مني. من أجل الاطمئنان على الآنسـة نجيبـة أو الست نجيبة التي تسكن بمفرده.

وحيدة ابنتي. تعيش لوحدها. في المدينـة الكبيـرة. وأعيش أنا بطولي في البلد. لم أعد قادرة على العـودة مـن أجل الحياة هنا. بمجرد عودتنا إلى البلد. انفرط عقد العائلة. وتشتت شمل الأسرة. شرق من شرق. وغرب من غـرب.، وقبل من قبل. وبحر من بحر. ولم يبق فـي الشـقة سـوى نجيبة.

عمرها يقترب من عمري. أعتبرها أختي، وإن كانت تغضب من ذلك. نجيبة استمرت هنا؛ لأن الأمل في العريس الذي لم يأتِ كان ما يزال يراودها. لم يبرح خيالهـا. كـان يعشش بين طيأت مخها. كان الحنين إليه ما يزال يكلبش في حشاياها ويلتف حول حبة القلب. وإن لم تصرح بذلك. وهل نحن في حاجة إلى قول ما لا يجب أن يقال؟!

الناس هنا أكثر. لا يعرفون بعضهم، والفرص أكثر. والبقاء أفضل من البلدة الصغيرة، التي يعرف كل إنسان فيها

الآخرين. كل واحد أصله وفصله معلق على جنبه. كالإعلان عنه. عروسة بشقة والشقة في حي كان يسكنه الأغنياء، وهو الآن حي متوسط الحال. لم يبق للأغنياء غنـاهم. وعنـدما يمضي الغنى يترك بقايا وروائح العز تقول كان هنا غنى.

والشقة ترمح فيها الخيل فلا تجيب آخرها. شقة مـن شقق الزمان القديم الواسعة. البراح. التي تسـتوعب عائلـة حتى ولو كانت مكونة من ثلاثين فردا. بيعة وشروة من يقدم عليها فهو الكسبان.

وهكذا ظلت الست نجيبة. أختي وبنت عمري. قبـل أن تكون ابنتي البكرية في انتظار العريس الذي لم ولن يصل إلى محطتها.

كانوا يقفون في الحديقة. متكومين حـول بعضـهم. وبينهم حالة من الكلام. التي تحولت إلى صـراخ وشـجار. وإن كان لم تصل إلى العراك بعد.

اقتربت منهم. فلم يشعر بي أحد. لم يرحب بي واحد منهم. وابنتي لم تجر إلي. وترتمي في أحضـاني وتقبلنـي وتهنئني بالنجاة من الزلزال. وتبكي على صدري ما جـرى.

وأبارك أنا لها أيضا. كل الذين يقابلون بعضهم. كتـب لهـم عمر جديد غير العمر الذي كان مستمرا حتى لحظة وقـوع الزلزال.

كان بينهم نقاش قادر على أن يأخـذهم حتـى مـن زلزال جديد يمكن أن يقع، ألم يحذروا الناس من توابع يمكن أن تتبع الزلزال الأم؟

كان صاحب البيت. يقف في منتصفهم. يبدو سعيدا. باضت له في العش. جاءت على الطبطاب. لو أنه هو الـذي صنع الزلزال. لما وصلت نتائجه إلى ما وصلت إليه. انتهى البيت. بينه وبين الانهيار لحظات التقاط الأنفاس فقط.

هذا يومك يا وجه النحس، من يومك وأنت لا كـلام لك إلا عن هدم البيت. وثمن أرضه. والعمارة التي يمكن أن تقام مكانه "برج الروضة" هكذا كنت تحلـق فـي سـماوات الأحلام. وأنت تتكلم عن البرج الذي تنوي أن تقيمـه مكـان البيت.

أتى الزلزال ليحل لك مشكلة عمرك. الشقق إيجارها قديم. الشقة بأقل من الخمسة جنيهات. وثمن الأرض فقط لو

هدم البيت. وبيعت الأرض ووضع ثمنها في بنـك. وجلـس على المقهى واضعا قدما على قدم. لأصبح أحد الأغنياء هذه الأيام. التي كثر فقراؤها. وكثر أغنياؤها أيضا وبنفس القدر.

لكنه لم يتمكن من طرد أحد من السـكان. أو إقنـاع أحد بقبول فكرة هدم البيت. لم يكن أحدهم يسمح له بـالكلام في هذا الأمر. مهما كانت الظروف.

حاول أن يستصدر قرار إزالة من الحي. ولكنه فشل. بذل كثيرا من المساعي. حتى يصدر قرار بتشريك المبنـى. والإقرار بأنه لم يعد صالحا للسكنى فيه. ولأنه لـم يـتمكن، سعى في انصاص الليالي للحفر حول الأساس الـذي بنـي البيت عليه. ولكن أحد السكان ضبطه. ولم ينته الأمر سـوى بمذكرة في القسم.

كان يعيش في البيت مع السكان. ومعه أسرته. وهذا لم يمنعه بأن يحلم في نومه أن يقع البيت. فجأة مثل ديكـور أنشئ لتصوير فيلم سينمائي. أو مسلسل تليفزيوني. مـع أن تحقيق حلمه. وهو في سابع نومة ربما كان معناه أن يمـوت هو وأسرته. قبل السكان الآخرين. ولكنه جنون الجري وراء المبلغ الذي كان سيبيع به الأرض.

عندما انتشرت الآلات الحاسـبة. اشـترى واحـدة صغيرة. ربما قدمها له أحد العائدين من الدول العربية هدية. آلة تعمل بالطاقة الشمسية. يعرضها للشمس فتعمل. وبعد أن تغيب الشمس تعمل بالمخزون فيها من حرارة الشمس.

كان يسأل كل صباح عن ثمـن متـر الأرض فـي المنطقة، ويذهب إلى المكاتب العقارية التي انتشرت في كـل حي. ويخرج الآلة الحاسبة من جيبه.جيب جلبابـه الأبـيض الذي على شمال صدره. ويعرضـها للشـمس ويبـدأ فـي الحساب.

يضرب مساحة الأرض المقام عليها البيت، ثم يعود ويحسب ثمن أرض البيت والحديقة معا. ويحـدد الفـارق. عندما أقيم البيت. كان الناس يحافظون على فكرة البناء على ٦٠% من مساحة الأرض. والباقي يخصص حديقـة. أمـا الآن. فالناس تبني من الرصيف إلى التلطـوار. لا يتركـون سنتيمتر واحد. لا حديقة ولا يحزنون. ومدخل البيت يصـبح محلات، وأسفله جراج. يتحول إلى محل كبيـر فيمـا بعـد وخلفه مخازن.

وفي الجـانبين. محـلات نصـفها تحـت الأرض. ونصفها الأعلى فقط هو الذي يمكنـك أن تـراه. يؤجرهـا لمكوجي. ومنجد وكنترجي. وتاجر فحم ومحـل للطرشـي البلدي.

كان قد أوشك عقله أن يهج. أصبح نصف مجنـون ونصف عاقل. يتحرك نصفه المجنون عند الكلام عن مصير البيت. وما يمكن أن يعود عليه من ثمن الأرض. أما نصـفه العاقل الذي يحضر مع خاله الطيـب عنـدما يتقبـل فكـرة استحالة الهدم. ولا بد من بقاء البيت كما هو. ويتعامل معنـا على هذا الأساس. وإن كان يبدأ في المحاولـة مـن جديـد: محاولة الهدم. إلى أن أتى الزلزال. فعل له ما لم يقدر علـى فعله من قبل. فأعطى خاله الطيب إجازة مفتوحة. حرر لـه استمارة ستة. استمارة الإحالة على المعاش. واسـألوني أنـا عن هذه الاستمارة وما فعلته بي وبحياتي.

كانوا يتناقشون. وكان صاحب البيت يعرض علـيهم أحد أمرين. إما أن يتركوا المكان مؤقتًا لحين بنـاء البـرج الجديد. الذي سيرتفع حتى تتساوى الرءوس. الأبـراج مـن شرقي البيت ومن غربه. من أمامه ومن ورائـه. والحيطـة

الواطية الوحيدة في المكان هي هذا البيت. من يرضي عـن هذا الوضع؟ من يقبله؟!

ستكون لهم أولوية مطلقة في الحصول علـى شـقق البرج الجديد. بعد الانتهاء من بنائه. سأله واحد من السكان: شقق بنفس شروط الشقق الحالية؟! إيجـار وبـنفس المبـالغ المالية؟ رد عليه: عندما نصل إلى التسليم سيكون هناك كلام. لأن برجا جديدا قد أقيم. ومصاريف قد أنفقت. فهل سيتساوى الدور الأرضي بالثاني؟ بالثالث؟ ثم إنه سيكون هناك مصعد؟ والذي منه؟ وكل مستلزمات العمارات الحديثة؟

الحل الثاني أن يحصلوا على تعويض مـالي. عـدا ونقدا قبل أن تجف الكلمات على الشفاه. ويرحلون إلى بـلاد الله الواسعة. والمبلغ الذي سيحصلون عليه منه. يمكنهم مـن البدء في مكان جديد. وبظروف أفضل من الظـروف التـي عاشوها هنا.

كان يتكلم وكان البيت قد انتهى أمره. وتم تشـريكه وأنه سيقع في غمضة عين. أو بعد برهة. وعلى الأكثر غدا، والبقاء فيه أصبح خطرا على حياة سكانه. ولا بد من تشريكه فورا.

كان يستعجلهم ويوهمهم أن الوقوف في الحديقة خطر عليهم. وقد يقع البيت بين لحظة وأخرى. كان يؤكد لهـم أن الشروخ أصابت البيت. وأنه ليس مبنيا بنظام المسلح. وأنـه محمل على جدران، والجدران سميكة ولكنها تشـققت مـن الزلزال، البيت سيقع سيقع. واقع واقع. قد ننتظر سـاعة أو ساعتين، يوما أو يومين. أسبوعا أو أسـبوعين، شـهرا أو شهرين. سنة أو سنتين. ولكنه سيقع في النهاية.

ومن الذي يمكنه أن يستأمن مثل هذا البيـت علـى حياته وروحه؟ وحياة أهله وناسه وأطفاله؟ إن البقاء في مثل هذا البيت محكوم عليه بعدم الاستمرار. ثم إن الحكومة ستقدم شققًا للذين هدمت بيوتهم بمناسبة الزلزال. هل هناك مناسـبة أهم من الزلزال؟ الحكومة ستقدم. وبعض رجـال الأعمـال سيقدمون. بل والدول الأجنبية ستمد يـدها. منـذ كـم مـن السنوات ومصر لم تعرف زلزالاً بهذا القدر مـن العنـف؟ والدول العربية والملوك والأمراء والشيوخ ستكون لهم حصة في هذه التبرعات. التي ربما سدت عين الشمس. ولو تركوا هذا البيت. ربما كانت لهم حصة في هذا المولد الكبير. الذي ينصب في هذه اللحظة.

لم تكن المرة الأولى التي يطرح عليهم فيها هذا الكلام. قاله من قبل ورفضوه. بدأ طرحه عندما كان أبو نجيبة يعيش مع أسرته في الشقة. وقد قال له ذات صباح: إلى أين سيذهب بكوم اللحم الذي يحمله على أكتافه؟! أي شقة جديدة يمكن أن تستوعبهم؟ وبأي إيجار سيسكنون؟ وهل هناك من يؤجر شقة؟ أم أن جنون التمليك لم يترك شقة واحدة للإيجار؟ وأين سيجدون شقة في وسط البلد مثل هذه تمكن كل منهم من الذهاب إلى عمله ومدرسته ومعهده وكليته بسهولة وبمواصلات تتكلف أقل القليل؟

كان والدها يرفض الكلام في هذا الموضوع على طول الخط. وكان يسمي صاحب البيت " غراب البيت" ما إن يشاهده في الصباح وهو ذاهب إلى عمله، حتى يتوقع الشر في عمله لمجرد أنه اصطبح به. ولو كان يمكنه العودة وعدم الذهاب. ما ذهب.

كان هذا هو موقف السكان الآخرين.

وإن كان الرجل الذي توقف عن الكلام – مؤقتًا – لم يعرف اليأس طريقه إلى قلبه. بدليل أنه استأنف الكلام الذي توقف منذ سنوات. وكأنه يتكلم فيه بالأمس فقط.

إلى أن أتى له الزلزال. وكأنه هو الذي صنعه. وكأنه هو الذي صلى وصام حتى يقع الزلـزال. ويصـبح علـى السكان أن يغادروا؛ لأنه أصبح من الصعب إن لم يكن مـن المستحيل البقاء في البيت.

بدون تفكير وافقت الآنسة نجيبة على تحرير عقد لها في برج الأحلام الآتي من الغيب. بينما توزع موقف بـاقي السكان، بين من يرغب في كتابة عقد. ومن ينـاقش مسـألة التعويض. كم؟ وكيف؟ ومتى يدفع؟!

كان بعضهم يسأل عن فترة البناء. كـم تطـول؟ رد صاحب البيت إن هذا الأمر يخرج من يده. حسب التسـاهيل والظروف ونحن نسمع كل يوم عن أزمـة العمـال. البنـاء وعامل المحارة والمبيض والمبلط وعامل القيشاني والسباك. قال بالعربي الفصيح لا يكلف الله نفسا إلا وسعها. وهو عليه بالدفع. أما الإنجاز فتلك مسألة أخرى.

تكلموا معه عن الشقق الجديدة. هل ستكون إيجـارا؟ وبدلاً من أن يقول إن الإيجار راحت عليه. قال ربنا يسـهل. وهل سيكون الإيجار مثل إيجار شققهم القديمة؟ قال إنه يتمنى ذلك من كل قلبه. ويتمنى أن تمكنه الظروف من تنفيـذه. أم

سيكون هناك نظاما جديدا؟ هو التمليك القاسي الذي لم يعـد سواه في مصر. والذي لا يقدرون عليه. وهل ستكون الشقق الجديدة في نفس وسع الشقق القديمة. المبنية في أيام الرخاء؟

قال لهم إن الشقق الواسعة تكون متعبة في تنظيفهـا. ومع هذا سيطلعهم على الرسومات – في اجتماع مثل هذا – قبل البدء في التنفيذ. أما النظام. تأجير أو تمليـك؟ وإيجـار بكم؟ وتمليك بكم؟ فكل هذه الأمور خاضعة للتفاوض. وقابلة للأخذ والعطاء. وهو لن يفعل ما يرفضـونه. إنهـم أهـل. والعشرة لا تهون سوى على ابن الحرام.

كان الرجل يحاول أن يكلفتهم في الإجابـات. يقـول كلاما ليس له معاني محددة. كلام من الصعب الإمساك بـه عند اللزوم. فرصة وأتت له. كان يرد على هذا بكلمة وعلى ذاك بكلمة أخرى وهو يحاول أن ينهي الموقف بأسـرع مـا يمكن.

سأله أحد السكان. هل معه فلوس في التو واللحظـة؟ كان السائل يفكر من قبل في الذهاب إلى المـدن الجديـدة. اقترب سن معاشه. لماذا يهجون بعد الإحالة على المعـاش؟ عليه أن يبحث عن مكان هادئ يعيش فيـه أيامـه الباقيـة.

وقريته بعيدة. ولم يبق له فيها ولا حتى القبر. وجاء الزلزال ليحسم تردده. ليس هناك سوى الرحيل إلى المدن الجديـدة. فأين هي الفلوس قبل السؤال عن قيمتها؟!.

قال صاحب البيت. إنه ليست معه فلوس. هل كـان يعرف موعد الزلزال مسبقًا؟ هل كان على موعد معه؟ حتى يحضر فلوسه في جيبه. استدرك قائلا: إنه ليس اسـتغلاليا. ولا انتهازيا. إذا كانت أجهزة الدولة نفسها بجلالة قدرها. قد عجزت عن التنبؤ به. وهو نفسه لم ير في أحلامه ولا فـي كوابيسه هذا الذي جرى. فكيف ستكون معه الفلـوس وأيـن يشيلها؟ إنه ليست عنده خزنة في شقته. كل ما معـه عبـارة عن شيكات. ولأن رصيده لا يسمح بتعويض هذا العدد الكبير مرة واحدة. سيكتب شيكات بتواريخ مختلفة. يقصد تـواريخ صرف واستحقاق متباعدة.

كان الاستمرار في الصمت مستحيلاً. كان لا بد من الكلام. تقدمت من ابنتي التي لم تصافحني. سـألتها: مـاذا ستفعل؟! تجاهلت أنني شاهدتها. قالت إنها توافق على تحرير عقد في البرج الجديد. مع أن الجميع يعلم أن هذا الرجل الذي يأكل مال النبي. ينوي بعد هدم البيت. عرض الأرض للبيع.

وحكاية العقود نصب في نصب. ومن سيحرر له عقدا. يبلـه ويشرب ميته.

أخذتني ابنتي على جنب. وقالت إنها رحبت بفكـرة عقد بشقة جديدة في البرج الجديد. الذي سيكون مـن مائـة دور. وفي الدور أربع شقق تصل إلى ست. أربعمائة شـقة. وقد تكون ستمائة، تتوقع وتحلم أن تهل على البيت الجديـد. تقصد البرج الجديد. البيت راحت عليه. وراحت أيامه. مـن أربعمائة إلى ستمائة عائلة جديدة. حيث تهل علـى البـرج. وجوه جديدة.

ويا ترى ويا عالم؟!

صحت فيها بصوت عالٍ. لدرجة أن بـاقي السـكان استمعوا إلي رغم حدة النقاش. سألتها: هل هذه الشقة ملكهـا وحدها؟ هل من حقها أن تتصرف فيها؟ إنها تعيش فيها كأمر واقع وبموافقة أشقائها. لكن هذه الشقة يرث فيها كل أشقائها. لقد تركوها لها. بشرط أن تتزوج فيها وتؤسس أسرة. وتظل بيت العائلة لكل من يبحث عن بيـت العائلـة. إذا تعـرض لضيق أو لكرب.

ولكن هذا الزواج لم يتم. وبيت العائلة القديم. مازال هو الحقيقة المؤكدة. فيه بقايا عشنا القديم. ومن حق أي فرد من العائلة أن يعود في كلامه وأن يرجع إليه بصرف النظر إن كانت قد وقعت له أزمة أم لا.

أكثر من هذا. طلب أي واحد لنصيبه في الشقة. حق لا يمكن مناقشته فيه. وحكاية العقد الجديد في برج الأحـلام الجديد الذي في علم الغيب. ويا ترى من يعيش حتـى يـتم الانتهاء من البناء الذي قد يستغرق سنوات؟ هـذا إن كـان الرجل صادقًا في نية البناء. وإن كانت معه الإمكانيات.

هل نسيت الآنسة نجيبة كلام هذا الرجل النصاب عن نيته في بيع الأرض؟ ووضع الثمن في البنك ثم يعيش هـو والأبناء والأحفاد من ريعه. ألم يقل هذا الكلام أكثر من مرة عيانًا وبيانًا وعلى رءوس الشهود؟ ما الذي غيره؟ من أيـن يأتي الصلاح للنفوس بعد أن يفسد حالها؟ وهل ينصلح الذي ينكسر؟!.

إن كان في الأمر نصب. ستكون مصيبة. وإن كانت هناك نية تسليم الشقة الجديدة. " موت يا حمار" فإن تسـليمها سيصبح موالاً. ثم نصل إلى مشكلة نصيب كل واحـد مـن

أشقائها في الشقة المستحيلة. إنها نفـس المصـيبة مـن أول وجديد. وكل من يعاني من مشكلة في حياته.

ومن منهم لا يعاني؟ سيعتبر أن الشقة الجديدة أتـت لتحل له مشكلته وسيرجع الكل في حكاية التنازل عن الشـقة لها. وهو تنازل شـفوي. هـذا إن أخرجـت نفسـي مـن الموضوع؛ فأنا أيضا لي نصيبي.

كانت نجيبة تسمعني وتوافق بهزة من رأسها.بدا لي أنها توافقني والسلام. أي تأخذني على قد عقلي. أهو كـلام ابن عم حديث. لن يغيرها هذا الاستماع إليه. هل هي عـادة الآنسة نجيبة أم ستشتريها؟ تسمع كل ما يقال ولكن مـا فـي ذهنها تنفذه في النهاية ومحروق الكـلام. والـذين يقولـون الكلام. ما دامت ليست هناك فائدة من الكلام مع هذه البنـت لأتكلم مع باقي الجيران. أما نجيبة فلها إخوة كبار يشكمونها ويمنعونها. توقيعها على العقد باطل.. ويمكن الرجـوع فيـه بسهولة.

علا صوتي أكثر وأنا أوجه كلامي لبـاقي السـكان. قلت لهم إن البلد فيها نظام ،وإن هناك بلدية هي التي يجـب أن تقول: يهدم البيت أم يبقى؟ صاحت نجيبة في وجهي قائلة:

البداية راحت عليها. فيه الحي يا ماما أنتي مش دريانة واللا إيه يا نينة؟.

رفعت يدي. كدت أن ألطمها على وجها. لم تعجبني طريقة البنت في الكلام كانت عيناها تندب فيهما رصاصـة. وحركات يديها فيها تزيد بجاحة وخروج على المألوف. كما لو كانت البنت لم تجد من يربيها ومن يملأ عينها بعد رحيل والدها وسفر شقيقها الكبير. مع أني لا أحب أن أقـول إنهـا أكبر منه؛ حتى لا أجعل بختها يميل أكثر مما هو مائل.

عدت أوجه كلامي إلى الواقفين: أعرف أنني بـذلك أخطئ كان لا بد من السلام عليهم أولاً. إنهم جيران العمـر. وبعد السلام أهنئ كل منهم بسلامته من الزلزال. وأسأل عن الأولاد: أين هم؟ منها لله نجيبة. ما فعلته هو الذي جعل الدم يغلي في عروقي. وما دمت قد بدأت الكلام مع السكان. ليس أمامي سوى الاستمرار هدفي صالحهم، والسـلام يمكـن أن يؤجل إلى ما بعد.

قلت لهم إن مجلس الحي هو الذي يمكنه أن يقرر إن كانت هذا الشقق صالحة أم راحت عليهـا؟ وهـل الزلـزال

أصابها بصورة تجعل السكن فيها خطر؟ أم أنهـم يمكـنهم الاستمرار فيها؟

إن صاحب الملك منذ أن ورث البيت عن أهله، هـو لا يكف ولا يتعب من الكلام عن ضرورة هدم البيت. كـان يتعامل معهم باعتبارهم ليسوا سكانًا. بل لصوصا يسـرقونه تحت سمعه وبصره. بعقود محررة بموجب قوانين لا بد من تغييرها. هل كان يسأل أحد منكم عن إيجار في أول الشهر؟! إن ذلك ليس كرما منه. ولكنه كان يحلم أن يتوقف ساكن عن الدفع، حتى ينكسر عليه مبلغ لا يستطيع أن يدفعه؛ ويستصدر أمرا بطرده. ذلك أن الملاليم التي تدفع على أنها إيجار أكبر دليل على السرقة. فالمبلغ لا يتناسب مع أسعار هذه الأيـام، فضلاً عن الموقع والمكان ومساحة الشقة.

كان يدعو في الليل والنهار أن يصـحو فـلا يجـد البيت. وعندما كان يكتشف أنه قد يروح في داهية مع السكان إن استجابت السماء لدعائه. كان يعدل من دعائه ويقول: إنه من الأفضل أن يكون على سفر ويعود من سـفره ليجـد أن البيت كوم من الحجارة والتراب والخشب. أي كوم؟ قل هرما

رابعا يشونه ويعرض الأنقاض للبيع أولاً. ثم يبيـع الأرض بعد ذلك بالشيء الفلاني.

صحت فيهم: من قال لكم إن مصاص الدماء ينـوي بناء برج ولا حتى عشة؟ إنه يقوم بعملية تسليك الفلـوس – البناءون يعد لهم مكان في مصر – ويضعها في البنـك ثـم يلبس جلابية بيضاء وطاقية بيضاء برفرف من نفس قمـاش الجلابية. ويضع قدميه في بلغة بيضاء سوقي، ويمسك فـي يمناه سبحة بيضاء، ويركب سيارة بيضاء، ويتزوج من امرأة بيضاء، ويحاول أن ينجب منها بنتًا بيضاء، ويبحـث عـن شغالة بيضاء، وتصبح له صديقه بيضاء.

حياة كلها أبيض في أبيض. ليس مهما أنها تكونـت من دماء السكان. فهذا الأمر سيحاول إخفاءه في كل وقـت. المهم عنده هو اللون الذي سيشاهده الناس المهم هو الفاترينة ، أما ما في الداخل فمن قال إنه مهم؟ ويجلس كـل صـباح على مقهى أبيض وفي المساء يبحث عن مقهى آخر أبيض. يتحرك في عالم من البياض: لون النقاء والطهر والحب.

ويصبح مثل العواطلية الجدد. أو النهابين الجدد. من محدثي النعمة الجدد. يعيش على ريع المبلغ الذي سيقبضـه

من ثمن أرض البيت. إنه حلمه القديم تجدد اليوم. كان يتكلم عنه ليل نهار. حتى قبل أن أعزل مع زوجي. ونحن نستمع إلى هذا الكلام منه. حتى تعبنا من مجرد الاستماع إليه وهو لم يتعب من الكلام.

ناشدتهم أن يرفضوا. أن يقولوا لا لهذا الرجل الجشع. وأن يبقوا هنا حتى تحضر لجنة التنظيم من الحي. وتكشف على البيت، وتقول لهم هل يبقى كل منهم في الشقة أو يعزل منها. وإن كان البيت لم يعد صالحا للسكن فيه. فأمام رجال التنظيم أن يقوموا بعمل تنكيس له أو عمرة، أو أن يصلبوه فوق عواميد من أجل إصلاحه، ويسألوا عن مصير الشقق في هذه الحالة.

والدولة ستوفر للسكان الذين سيتركون شققهم بسبب ضرورات التنكيس شققًا بديلة. وذلك إلى حين إصلاح البيت ثم يعودون إليه بعد الإصلاح.

من هو المجنون الذي يترك مكان مثل هذا؟ شقة بالقرب من النيل؟ شقة ترى النيل؟ مثلما يقولون في إعلانات تنشر في الصحف، من يضحي بها حتى من أجل شقة في برج الأحلام؟

لم تبد عليهم ردود فعل قوية وفورية ومباشرة. كـان السكان عينًا في الجنة والأخرى في النار، قلوبهم معي ولكن عقولهم مع ما يقوله صاحب البيت. لم ينطق واحد لكي يقول إنهم موافقون على ما سمعوه أو أنهم يرفضونه. مساكين. لم الحيرة؟ مع أن الحق بين والباطل بين. إن المصلحة واضحة، وما يضر في وضوح الشمس.

تركهم صاحب البيت واتجه إلـي عرفنـي، ربمـا عرفني منذ وصولي رفض أن يسلم علي، سألني.. أي ريـح رمتك علينا؟ كنا قد استرحنا منك بعد سفرك إلى البلد.

أرحت واستريحت، ماذا أتى بك؟ لم يكـن ينقصـنا سوى وجودك. الآن اكتملت الأمور.

شخطت فيه. جئت لأطمئن على شقتنا وعلى ابنتـي. لا يسأل الإنسان عندما يقرر العودة إلى بيته، لم عاد إليـه؟ فوجئت بأن نجيبة هي التي ردت علي هذه المرة، قالت لـي لست في حاجة لأن يطمئن علي أحد اتركينا نقـرر مصـير حياتنا كما نريد.

يصفق اللص الكبير بيديه، ويقول مثل الحاوي، بعـد أن تحول السكان إلى دائرة حوله: اتفرج يا سلام. الابنـة لا تريد الاستماع إلى كلام الأم المجنونة.

ابتعدت عنه قليلا، جلست على السور الذي طالمـا جلست عليه في الزمان الخالي. شـعرت بتعـب مفـاجئ، تساءلت، كان السؤال حادا ومدببا مثل إبرة انغرزت في نـن عيني.. ماذا جرى لابنتي؟ هل جنت؟ هل أصابها خلل مـا؟ إنها تتصرف فيما لا تملكه. وتقرر قرارا. عليها أن تعود إلى إخوتها قبل أن تفكر فيه. فهي لا تملك أن تحرر عقدا بشـقة جديدة، ولا أن تتنازل عن الشقة القديمة.

لقد حضرت بالصدفة. لم تكن تعـرف أننـي فـي الطريق إليها. وهي لم تفكر في أخذ رأيي فيما هـي مقدمـة عليه. ماذا تفعل هذه البنت المجنونة؟ سـنها لـيس صـغيرا ولكنها ستظل بنت بالنسبة لي حتى لو أصبحت جدة.

بدأت أصواتهم تغيب عني. تبتعد عن أذني. ولم أعد أستمع إليها واضحة. يخيل إلي أن صاحب البيـت قـرر أن ينهي الكلام الجماعي معهم. وأن يبدأ مساومات فردية مـع كل ساكن على حدة. فهمت هذا بالنظر وليس بالاستماع. بدأ

بأضعف الحلقات. نجيبة ابنتي. التي أعاملها كما لـو كانـت شقيقتي. أليست بكريتي؟!

أخذها بعيدا. وبدأ يتكلم معها. كـان الرجـل يـتكلم ونجيبة تحرك رأسها دلالة على الموافقة، لم تناقشه، كانـت تكتفي بالاستماع. تبدو موافقة. فكرت في القيام من مكـاني والذهاب إليها لكي أتكلم معها. أن أقول لها منبهـة، إن مـا تفعل هو الخطر بعينه. وإن الصواب هو الانتظار والارتباط مع باقي السكان. ولكن لم أجد في نفسي القدرة على القيـام، ولا الرغبة في الكلام معها.

ناديت على ابن البواب. وطلبت منه شربة ماء. كان البواب وزوجته وأبناؤه يقفون في ركن بعيد. وهـم يـرون مصير حياتهم ومستقبلهم يتحدد. إن وافق السكان على البيـع وهدم البيت، ليس أمامهم سوى الشارع. وإن تمسك بعـض السكان وظل البيت قائما ومفتوحا وعمرانًا بسكانه. ترن فيه أصواتهم، سيظلون يعيشون في الغرفة بمنافعها المبنية خلف الحديقة وراء البيت، منذ سنوات من عمر البيت نفسه.

كان البواب يومها شابا صغيرا أعـزب. فـي هـذه الغرفة تزوج وتحت سقفها استقبل أبناءه. كان البيـت وجـه

خير عليه. شاف حظه وهو يعمل فيه. كان يتصرف كما لـو كان واحدا من أهل البيت. ولكن صـاحب البيـت، الرجـل الكبير رفض أن يحرر له عقد إيجار بالغرفة. قال إن ذلـك ينقله من مجرد بواب إلى ساكن وصاحب سكن. وإن وقعت الفأس في الرأس لن يضمن احد إعادته مرة أخرى إلى عمله كبواب.

وبعد أن مات صاحب البيـت الكبيـر، فـإن أولاده أصروا على نفس الموقف، وها هو يقف. لا يعرف ما هـو مصيره. جرى البواب وزوجته والأولاد للسلام عليها. رأت في وجوهم لهفة من وجد من ينقذه في اللحظة الأخيرة، طلب منها البواب إلا تفرط في الشقة. ألا تسـتجيب لكـلام هـذا اليهودي. الذي يحول المحنة إلى مكسب خاص به. لم يـتعظ مما جرى. لم يجد فيه سوى مصلحته وما يمكـن أن يعـود عليه منه. لقد كان ينتظر مثل هذا اليوم منذ زمن بعيد.

هكذا قال لي البواب وهو يوشك أن يبكي. من الـذي يجري أمامه. شكا لي من سلوك ابنتي. قال لي إن السـكينة سرقتها، وإنها لا تعرف مصـلحتها. وإن الرجـل يضـحك عليها. ولن يعطيها الورقة. وإن أعطاها لها، لن يكون أمامها

سوى وضعها في الماء وشربه. على ذكر المـاء والشـرب أحسست بالعطش. كيف نسيت عطشي؟! دفع البـواب ابنـه وطلب منه أن يحضر لي الماء. قبل أن أغمض عيني جرى الولد وعاد، قال لوالده وليس لي. إن المياه مقطوعـة. أخـذ كوبا وجرى يبحث عن المياه في أي مقهى أو مطعم أو محل قريب. أو من حنفية الحريق التي لا تنقطع المياه منها، عندما تنقطع عن كل البيوت.

ازداد إحساسي بالعطش عندما قيل أمامي إن الميـاه مقطوعة.ليتني ما تذكرت العطش. كان يمكنني نسيان حكاية الشر والمياه يوما. الآن من المستحيل علي نسـيان العطـش والشراب والمياه والارتواء ؛وصل بي العطش إلى درجة من الصعب وصفها.

لكن الولد عاد كما ذهـب. يقـول إن الميـاه كلهـا مقطوعة وإن الحل أن يشترى لي زجاجة مياه معدنيـة مـن السوبر ماركت، شاهدها مرصوصة في الثلاجة والثلج يحيط بها. والزجاجات مغبشة من كثرة البرد. أفتح حقيبتي، أخرج منها جنيها ليشتري زجاجة والباقي أتركه لـه. هـم هكـذا

البوابون وأولادهم. كل كلمة وكل حركة لا بد من دفع مقابل لها. لم أنس هذا منذ أن كنت أعيش هنا.

أعاد الولد الجنيه لي. قال لي إن الزجاجة الواحـدة ثمنها أكثر من جنيه، طلب منه والده أن يشتري لي زجاجـة صغيرة نصف لتر، فرد عليه الولد إنها لن تكفينـي، فضـلاً عن أن الزجاجات الصغيرة لا وجود لها. وهكـذا أخرجـت الجنيه الثاني وأنا غاضبة. كم جنيها في جيبي حتى أبعثرهـا بهذه الطريقة؟ عشت حتى أرى أن الماء يباع. مـن كـان يتصور هذا؟

لقد رحم الله زوجي ؛لأنه أخذه قبل أن يرى ما أراه. هل يعرف البواب كم جنيها أحصـل عليهـا هـي معـاش المرحوم الغالي؟ والذين قرروا نصيبي من المعـاش الـذي يشاركني فيه بعض أبنائه، لم يدركوا أنني سأشـتري المـاء ضمن ما أشتريه.

ماء ثمنه أغلى من ثمن الحليب. ماء أغلى من المياه الغازية وما أكثر أنواعها.. ياه. لم أكن أتصور أن الأمـور وصلت في بر مصر إلى هذا الحد؟ زمان عندما كنت أعيش هنا. كانت شربة الماء ثواب. والأزيار كانت تمـلأ مـداخل

البيوت، وتحت الأشجار المزروعة على الأرصـفة. وفـي الحدائق العامة حتى شط النيل.

كل بيت كان أهله يقيمون سبيلاً يقولـون إن تقـديم المياه لعابر السبيل ثواب ما بعده ثواب، كل قطرة مياه نقدمها لعطشان في الدنيا تقابلها سبع قطرات، يجدها الإنسان حتـى لو كان في جهنم الحمراء.

جفت الرحمة من القلوب. وتراجعت الإنسانية مـن الصدور.. وعلي أن أشتري الماء.. رغم قرب النيل منـي. أقول ولكن لنفسي عشنا وشفنا، لكن الولد قـال لـي وهـو يخطف الجنيهين إنها مياه معدنية تعالج الناس مـن بعـض أمراضهم وأوجاعهم. وإنها مياه لم تحدث مـن قبـل. إنهـا حكاية.

بعد أن يحضر لي المياه وأشـرب وأروي عطشـي الذي لن ترويه كل مياه الدنيا. سأعطي الولد قليلاً منها؛ لأنه من الواضح أنه يراها فقط .سمع عنها ولم يشربها، لم تجـر له في زور.

كانت نجيبة تبتعد عني. لا أدري هل كانـت تتعمـد ذلك أم أنها الظروف. من المفروض أنني ضـيفة عنـدها. وأنني غريبة. وأنني جئت من أجل الاطمئنان عليها، كنـت أتوقع ترحيبا منها بي أكثر من هذا. وهل رحبت بي أصـلاً. لقد تقابلنا كالغرباء.، ثم نسيت أنني هنا، مع أنها كـان مـن المفروض أن تعزم علي بشيء، أي شيء.

كنت أتصور أن نتقاسم معا هذا الوضع الغريب الذي نحن فيه، ولكنها أخذها موضوع البرج الجديـد حتـى مـن نفسها. وأنساها أنني هنا. بدت لي نجيبة غريبة عني، وليست ابنة بطني، الحقيقة أنني ندمت ؛لأنني بدأت بها. ألم يكن من الأولى البدء بأحد الأولاد الآخرين؟!

عندما وقف الأتوبيس أمامي في باب الحديـد، قلـت لنفسي إن البدء من بيوت العائلة فأل حسن. من يدريني ربما كانوا قد ذهبوا إلى بيت العائلة. البيت الـذي تربـوا فيـه. وعاشوا تحت سقفه. وقد أقابلهم في البيت وأستريح من عناء اللف والجري. الذي علي القيام بـه. فـي مدينـة واسـعة. مترامية الأطراف.

قد تحدث المعجزة، ويلتقون جميعـا بـين جدرانـه وتحت سقفه. الجدران التي شاهدتهم وهم قطعا مـن اللحـم الأحمر. حضرت ولكني لم أجد ابنتي، ولا الشقة التي عشت فيها. ولا المكان الذي كنت أعتبر أن ابنتي تعيش فيه بشـكل عابر، حتى تحل مشكلتها وتخرج من أزمتها.

مسكينة نجيبة. كيف جمع والدها بينها وبين نجيـب في الاسم؟ لقد جاءت عاطلة من الجمال.لم تكمل تعليمها مع شقيقاتها البنات وأشقائها من الصبيان. عندما جاء العرسـان إلى البنت الأصغر منها. قال أبوها: لا بد من جواز الكبيـرة أولاً. وأنا التي تحايلت عليه. ألا يميل بخت البنت، وأن تلك هي إرادة الله. كان والدها يفكر في حكاياتها. وكأنـه يلـوم نفسه؛ لأنه لم يعلمها. سأستمع إلى كلامهـا وأخرجهـا مـن المدارس. كان يقول إنه كان لا بد من علامها حتى لو كـان ذلك بالقوة.

أخوتها ألقوا علي اللوم في عدم زواجها. قـالوا لـو كانت أمنا تختلط بالجيران وسكان الحي لتزوجت نجيبة مـن زمان، أقل جمالاً منها ويتزوجن. أقل جمالاً ومعهن صـبيان وبنات.. الحلاوة حلاوة الطبع. ونجيبة دمها خفيف، ولكـن

المشكلة أن طبعها لا يعرف إلا بالعشرة. ونحن عائلة ضـد الاختلاط، الأب براوي، والأم انطوائية.

عندما التحق إخوتها بالوظائف، قالوا لو أنها اشتغلت لجاء العرسان وراءها. أولاً؛ لأن لهـا دخـلا. والأهـم أن الوظيفة أكبر خاطبة، وهكذا لم تفعل سوى الانتظار. كنـت أقول لأبيها: علينا أن نبحث لها عن عريس. كان يقول لـي مشكلتها أنها جاءت بعد زمان الخاطبة.

إن كان سن الستين هو الجرح الذي تقيح في أعماق زوجي دون أن أدري. فإن سن الخمسين كان المأساة التـي هزت ابنتي البكرية دون أن أخذ بالي. عندما كانـت تمشـي معي. كانوا يقولون عنا أختين، وفي بعض الأحيـان كـانوا يقولون عني أنا الأخت الصغرى. وكنا نحول الأمر إلى نكتة ونضحك. كانت تقول إنها الأخت الكبرى لي. وكانت تحكي أن الفارق الوحيد بيننا هو أنني خلفـت، شـجرة وطرحـت وأثمرت أكثر من مرة. أما هي فتقول عن نفسها أن خيبتهـا دكر.

كانوا يقولون: إن سن الخمسين هي السن التي تتفتح فيها حياة الإنسان على احتمالات لا حدود لها، تختلف عمـا

سبقها. ولكنها كانت خاتمة المطاف. ونهاية العمـر لابنتـي. أكثر من هذا كانت بداية النزول إلى منحدر العمر الأخيـر. أصبحت نجيبة مثل حصاة وقعت من فوق الجبل. وأصـبح من المستحيل وقف تدهورها. كان الاستمرار أسـهل شـيء بالنسبة لها. أما التوقف – حتى إن قدرت عليه – فقد أصبح مستحيلاً.

شربت الماء الذي أحضره ابن البـواب. كـان مـا شربته أقل من النصف. فكرت في الاحتفاظ بالزجاجة معي. أواجه بها احتمالات يوم لا أعرف عنـه أي شـيء ولكـن نظرات الولد ابن البواب كانت تصعد وتهبط مع تفاحـة آدم وهي تصعد وتهبط في زوري.. أعطيته ما بقي من المـاء. تعامل معه كما لو كان دواء. أخـذ قطـرة صـغيرة وبـدأ يتذوقها. مسكين. وهل هناك أحلى من ماء النيل؟

كنت أستعد للمشي وأنا أفكر في حالها. قبل هذا اليوم كنت أقول عنها إن بختها مائل. وها هو البخت المايل أصبح يسكن في البيت المايل "ما جمع إلا ما وفق".

هذه البنت لها أخوة رجال. الرجل العاقل فيهم غيـر موجود. الباقون فيهم الكفاية. سيتصرفون معها. سأحكي لهم

ما جرى وما حصل. لا فائدة من محاولاتي أنا معهـا. أمـا صاحب البيت فلا بد من تحرك أخوتها ضده. وعندما أعـود إلى البلد سأخرج عقد الإيجار الذي حرره والد صاحب البيت باسم المرحوم، ربما احتجناه فـي الأيـام القادمـة.. مـن يدري؟!.

٦

.. كان مشوارها الأول إلى بيت المنيل هو المشوار الوحيد الذي قامت به من الذاكرة، تعرف المكان جيدا، اسـم الشارع، ورقم البيت، والعلامات التي يمكن أن تقودها إليـه. محفورة في الأعماق بعدد السنوات التي عاشتها فيه. أما باقي المشاوير فكانت تعتمد على نوتة معها.

فتحت حقيبة يدها. أخرجت النوتـة. سـتبدأ قـراءة العناوين. انتهت الرحلة التي من الذاكرة. ولا بد من دليـل. والدليل هو النوتة الصغيرة. أهم ما في حياتها. تفتح النوتـة. تحاول القراءة. تخرج النظـارة الطبيـة. نظـارة القـراءة. وتلبسها. أول مرة تضعها على عينيها في الشـارع. نظـارة على عيني امرأة. يا عيب الشوم. تلبسها في البيت نعم؟ ولكن ليس في حضور أحد من الغرباء؟

تعاود قراءة العنوان بصوت عالٍ هذه المرة. السـيدة زينب. القاهرة، ٢٦٥ شارع بورسعيد، تطوي النوتة، تشيلها مكانها. تقول بصوت سمعته جيدا: استعنا على الشقا بـالله. تدعو وهي تنظر إلى السماء: اللهم أعني على ما أنا مقبـل

عليه. فكن لي خير المولى وخير النصـير آمـين يـا رب العالمين.

فكرت في العودة إلى بيت العائلة؛ لكي تسأل ابنتهـا نجيبة عن أشقائها وشقيقتها، يا حسرتي، تسألها عن شـقيقتها الوحيدة فالثانية ليست في مصر. ربما تعرف أخبارهم منها. يطمئن قلبها الملهوف على الأبناء تسمع ما يمكن أن يكـون تصبيرة قبل أن تصل إليهم. قد يحضر أحدهم ويأخذها بدلاً م البهدلة التي ستتعرض لها. منظر الابنة الواقفة فـي حديقـة البيت جعلها لا تجرؤ على العودة إليها. قالـت لنفسـها لـو فكرت أن لها أخوة. ما كان هذا هو حالها.

تركتهم الست محروسة عبد الحي الحلواني. ومشيت دون أن يشعر بها أحد من الواقفين. لم تمسك فيها ابنتها. ولم تعزم عليها أن تبقى معها على الخير والشر معـا. الوحيـد الذي اقترب منها كان البواب، ودعها، وكان بجـواره ابنـه سعيدا بالمياه التي في يده.

هل أخطأت بتركها ابنتها واقفة في الشارع؟!

وهل كانت تملك غير هذا؟! سـألها البـواب بلهفـة وجزع: ستتركهم لمين؟ بقاؤها كان صمام أمان لهـم ضـد فكرة هدم البيت. لو بقيت لوقفت الأمور عنـد الحـد الـذي وصلت إليه، لم تكن عندها رغبة في البقاء. وراءها مشاوير كثيرة عليها القيام بها.

أول القصيدة كفر. بداية الرحلة لا تشـجعها علـى إتمامها والقيام بباقيها. لكن لا مفر. أتت وعليهـا أن تكمـل مشوارها، مازال هناك أبناء آخرين لا بـد مـن الاطمئنـان عليهم، فكرت: هل ستعيش نجيبة في هذه الحديقة إلى الأبد؟ وهل سيضحك عليها صاحب البيت؟ كان والدها.. يقول عنه أبو الكباير لاستعداده أن يفعل أي شيء. وكل شيء، طالمـا أن هناك مصلحة. هل سيبيع لها الوهم والخيال؟ ويؤجر لهـا الترام؟ إنها تبدو مستعدة لأن يضحك عليها أي إنسان ؛جريا وراء السراب الذي يملأ خيالها.

فكرت الست محروسة في العودة إلى الآنسة نجيبة. ولكن تعود لمن؟ البنت قالت لها بصريح العبارة. لا دخل لها فيما لا يعنيها. طلبت منها ألا تحشر نفسها فـي مثـل هـذه

الأمور. وجعلت الناس يضحكون عليها.. لو عادت لن تسمع منها كلمة واحدة تبل الريق.

أخوتها هم الذين سيمنعونها من التصرف في طوبـة واحدة من طوب الشقة. والتوقيع علـى أي ورق للحرامـي صاحب الملك. ثم إن الشقة مازالت باسـم الأب. لـم يـتم التصرف في التركة. المعاش فقط هو الذي جـرى تقسـيمه على من يستحقونه. هي تتصرف فيما لا تملكـه. هـذا مـا جرى. أي تصرف من حق الرجل الكبير الذي مات وانتقـل إلى ورثته. ولا بد من إعلان وراثة يحدد نصيب كل مـنهم في الشقة.

تراجعت عن فكرة ترك الشقة بمـا فيهـا لنجيبـة. كنصيب لها، باعتبار أنها الوحيدة في البنات التي مال بختها، هذا خطر، لو تركوها لها أسلمتها للرجال بـدورها. ومـن سيلهف الشقة سيضحك عليها. وتقع نجيبة في قرابيزها.

فكرت أن تعود لها. وتخبرها بهذه الفكرة الجديـدة. ولكنها كانت متعبة، وكانت تريد مكانًا من أجل الجلوس فيه. تخلع حذاءها وشرابها.

وتقلع البالطو الأسود الذي تلبسه في هذا الوقت الذي ليس باردا من السنة. وأن تفك الطرحة السوداء. التي تضعها على رأسها. وأن تجلس وأن تمدد طولها في مكان فسيح.

كانت تتمنى أن تفعل هذا عند ابنتها، وكانت تحلم لو أن تليفونات مصر الداخلية توصل الناس ببعضهم؛ لتطمـئن على باقي الأخوات من عندها بدلاً من اللفة الجهنمية. التـي عليها القيام بها، لكن ابنتها الشعنونة كانت قد اقتربـت مـن حافة الجنون. ولم يعد الكلام معها مجـديا. ولا أن يجعلهـا تتواصل معها.

حتى فكرة الصعود إلى الشقة، بدت مسـتحيلة، لـم تجرؤ حتى أن تفكر فيها. الكل في الحديقـة. ويقولـون إن أصغر هزة ستجعل البيت كومة من التراب.

وقفت عند رأس الشارع. نسيت أنهـا اسـتخرجت عنوان ابنها القاضي الذي يسكن في السيدة زينب. كيف ذهب ضميرها إليه؟ سألت أحد الواقفين. أيهما أقرب تل العقـارب أم السيدة زينب؟ طلب منها أن تسأل غيره. ذلك أنه غريـب مثلها عن البلد قالوا لها إن تل العقارب فـي الطريـق إلـى السيدة. هو أولاً. وهي بعده. القلب وما يريد. القلب له أحكام

لا تسيطر عليها. إذن الدور على ابنها المسكين. الذي وقـع من قعر القفة. يعيش في مكان قريـب مـن بيـت العائلـة. ضحكت في سرها وهي تقول لنفسها بيت العائلة. الذي يجب أن يظل مفتوحا للجميع: أين هو البيت؟!

أوشكت أن تتساءل: وأين هي العائلة؟ ولكنها بلعـت السؤال. كتمته،؛ لأنها لم تشأ أن تطل على الجحـيم القـادم. وهي في هذا الوقت المبكر من رحلتها.

وقفت تفكر أي المواصلات تركب؟ قالت لنفسها من المتعوس إلى خايب الرجا. يا قلبي لا تحزن.ليس بعد الظلـم كفر. إن كانت نجيبة لم يظلمها أحد. فهل يمكن قول هذا عن ابنها الذي تذهب إليه بعد قليل؟ إن كانت نجيبة قـد ظلمـت نفسها أو ظلمها قبحها. لا إن كلمة القبح أكبر من ثقيلة. لتقل ظلمها عدم جمالها. فإن هذا لم يحدث بالنسبة لابنها. الـذي تفكر في الذهاب إليه لأول مرة. إن كان شكل نجيبـة خلقـة ربنا ولا اعتراض على ذلك. فإن جمال الروح الـذي كـان يتحدث عنه أبوها من الممكن أن يعوض جمال البدن. الـذي حرمت منه ابنتها البكرية.

سألت نفسها، ومن المسئول؟ ذلك أن الأبناء الآخرين لم يكن لهم دور في الأمر، فكلهم جاءوا بعدها. سألت عـن المواصلة التي يمكن أن تذهب بها إلى تل العقارب الجـواب يبدو من عنوانه. والذي يسأل لا يتوه في مدينة تبدو مزدحمة بكل هذا العدد من خلق الله.

الذي سألته: نظر لها من فوق لتحت. قاسها بنظراته. وقبل أن تبدي استغرابها من نظراته. قال لها ستمشين كثيرا. وأنت ست كبارة. الأتوبيس الوحيد الذي يمكـن أن تركبـه يوصلها إلى شارع قصر العيني. ثم تمشي على قدميها مـن مستشفى أبي الريش للأطفال إلى تل العقارب..

- خذي تاكسي يا أمي.
- بكم؟!

نظر لها مرة أخرى:

- إنت وحظك.

شرح لها. إنه لا توجد في هذه البلاد قواعد. عدادات التاكسي أصبحت للزينة. ديكورات معلقة فـوق تابلوهـات السيارات. ثمة اتفاق ضمني بين الجميع. على أنها لا تعمل.

قال لها: إن وجدت تاكسيا يركب فيه راكب واحد. ربما كان سائقه من النوع الذي قد يرق قلبه لحالتهـا. فتركـب معـه مشوارها لا يتعدى الجنيه بالعداد. ولكن اعملي حسـابك إن الرقم قد يصل إلى الخمسة جنيهات كحد أدنى.

حسبت في عقل بالها المبلغ الذي معها، أدركـت أن أمامها مشاوير كثيرة. عليها القيام بهـا. المشـوار طويـل طويل. وعليها أن تقتصد في فلوسها. لـو كـان المشـوار واضحا في ذهنها أو أنها قامت به من قبل لعرفت رأسها من رجليها. ثم إن هذه الفلوس لابد وأن تكفيها في رحلة العـودة على البلد. ومصاريف الأيام الباقية من الشهر. وهي أكثـر من النصف.

انتظرت طويلاً حتى جاء الأتوبيس. الذي أوصـاها الشاب أن تركبه حتى شارع القصر العيني. جاء الأتـوبيس نصف مزدحم ونصف خالٍ. ركبته، كان الكمساري يتكلم مع السائق. وكان الصعود من الباب الأمامي، والنزول من الباب الخلفي، طلب منها الأجرة قبل أن يسمع كلامها. سألته عـن ثمن التذكرة سألها: هل تركب الأتوبيس لأول مرة؟

قال السائق ساخرا: ربما نزلت من المـريخ سـاعة الزلزال. قالت: إنها لم تركب أتوبيسا منذ سنوات. نظر إليها باستغراب.

قال لها الكمساري: الأجرة ٣٥ قرشًا. انشرخ وجهها من الدهشة بلعت ريقها وهي تقول: كم تغيرت يا مصـر؟! عموما هي لم تغب يوما وليلة فقط. غابت أطول ما ينبغـي. ولأن فلوسها كلها مجمدة. ليست من أهل مصر حتـى تفـك فلوسها.بدلا من الضحك عليها بحكاية الباقي. دفعت جنيهـا. كل ما معها جنيهات. من المؤكد أن أزمة الفكة التي كانـت في مصر عندما عزلوا منها إلى البلد ليست مسـتمرة حتـى هذه اللحظة.

فوجئت بالكمساري يكتب لها البـاقي علـى ظهـر التذكرة. تجاهلت ما يقوم به. وسألته عن الباقي. فأخرج لهـا جيوبه ويده كانت كلها جنيهات. قال لها إن هذا المشوار هو الأول في ورديته. سألته عن مصير الباقي قال لها إن تـوفر الباقي قبل نزولها. سيعطيه لها. وإن نزلت قبل توفره؟! هي التي سألت. قال لها. تذهب إليه في أول الخط. أو في آخره.

وأمامها ثماني ساعات هي وقت الوردية. وسيعطيها البـاقي بموجب توقيعه لها على التذكرة.

قال لها السائق: الذي يبدو أنه يقسـم البـواقي مـع الكمساري. إن هذه التذكرة من لحظة نزولها. تعـد إيصـالاً على الهيئة تطالب بقيمة المبلغ المدون فيها وهو ٦٥ قرشًـا. لم تعلق بكلمة واحدة.

كانت ترغب في سؤالهما. قبل حكاية ثمن التـذكرة هذه. عن المحطة التي ستنزل فيها.قالت لهمـا إنهـا تريـد النزول عند مستشفى أبي الريش قال لها السائق. إنه ليست له محطة بالقرب منها.. ومع هذا سيحاول أن ينزلها في مكـان تمشي منه أقل القليل. سألت بلهفة عن هذه المسافة. قال فـي صوت واحد: محطة أتوبيس. سألها الكمساري عن المكـان الذي ستذهب إليه بعد ذلك. انكسفت من قول تل العقـارب. فقالت إن المكان قريب من مستشفى أبي الريش. مع أنها لـم تكن تعرف موقعه من المستشفى.

ليس بعد الظلم كفر. هل معقول أن هذه هي المـرة الأولى التي تذهب فيها إلى ابنها؟ ودليلها الوحيد ورقة فيهـا العنوان الذي نقلته من ورقة فيها إلى النوتة التي لا تفارقها.

فعلاً، لقد ظلموا هذا الابن كثيرا. في آخر مرة رآها فيها قال لها. في كل عائلة. لا بد من شخص يقـوم بـدور المظلوم. وأنا قررت القيام بهذا الدور. وأنا سعيد بـه. إنـه الدور الذي لبسني ولبسته وتعايشت معه. المشـكلة أن لكـل مظلوم ظالما واحدا. ولكن لي أكثر من ظالم. كلهم ظلموني. كلكم ظلمتوني. وأنا قبلت دور المظلوم وسأمثله حتى نهايـة النهايات.

وهي في الأتوبيس فكرت في حال ابنها. المشكلة أنها تفكر في وقت لم يعد متاحا فيه إنصافه. أو أن تعـدل حالـه المايل. نسيت أن تحضر معها خريطـة لمدينـة مصـر أو القاهرة، كما يسميها أولاد البنادر الذين يعيشون فيهـا. وأن تحدد بقلم أحمر أماكن أولادها. حتى ترسم خطـة سـيرها. ولكن يبدو أن خطة السير تتم بشكل معقول.بدون خريطة.

عندما نادى عليها الكمساري والسائق معـا. وطلبـا منها الاستعداد للنزول في المحطة بعد القادمـة. كانـت قـد مرت على محطتين. والباقي محطتان. أربع محطات لهـف فيها الكمساري جنيها. كل محطة بربع جنيه، لو كان حيلها لم ينهد. ولو كانت ما تزال قادرة على المشي. لسـارت علـى

قدميها ولوفرت الجنيه لوقت صعب لا بد وأنه قادم خلال هذا اليوم.

مسكين يا نادر عملت سـمكري سـيارات. يشـعر إخوتك بالعار منك. يتبرون منك. الصـبيان قبـل البنـات. يحاولون التعامل معك. كما لو أنك لم توجد. ما ذنبك؟! مـا جريمتك؟! لم تكن تحب العلام من يومـك. رفضـت فكـرة العلام في المدارس والكليات والمعاهـد. قلـت إن العـلام الحقيقي في دنيا الله الواسعة. في مدرسة الله التي لا تحصـل رسوما، ولا تعقد امتحاناتٍ ولا تعطي شهاداتٍ فـي نهايـة المطاف. عمل الممكن وعمل المستحيل حتى لا يكمل تعليمه. حاولوا معه. وأخلوا ذنبهم منه. أرضوا ربهم، ولم يظلموه في مسألة العلام.

وافقوه على ترك المدرسة من كثرة الغرامات التـي كان مطلوب دفعها. لكنه بكى وأقسم لوالده إن مستقبله فـي عدم العلام. وإنه لم يخلق لمذاكرة. وإن مخـه لا يسـتطيع التعامل مع الورق والقلم والمذاكرة. وإنهم لو تركـوه يبـدأ مشروعا جديدا لكان ذلك أفضل له.

كان وحده – ألف رحمة ونـور عليـه – لا يحـب الظلم. ولم يكن يحب أن يوصف بأنه ظالم. وكان يرى فـي إخراجه نادر من العلام ظلما كبيرا له. إنه ليس ابن البطـة السوداء. هو ابن تسعة مثلهم. لم يرضع من لبن الحمير. فلم يكون أقل؟

ومع هذا كان نادر رأسه وألف سيف. أنه لن يجلس على التختة في الفصل. آخر مرة حضر إلينا فيها. في حيـاة أبيه. قبل وفاته. طلب من والده مبلغًا من المال مقابل عـدم تعليمه. كان يتكلم بطريقة منطقية ولكن من يستطيع أن ينفـذ له المنطق الذي يتكلم عنه؟.

قال إنه لو أخذ حقه في التعليم مثلما حصـل عليـه أشقاؤه الآخرون، لأخذ مبلغًا كبيرا من المال. إنـه لا يريـد سوى تعويض مالي بسيط. مقابل حرمانه من التعليم. يرغب في أن يحصل على حقه ناشف. فلوس. ومرة واحدة. وهـم أخذوه شهادات ووجاهة ومراكز اجتماعية ولكن فلوسه يـوم أن يحصل عليها وينفقها. لن تبقى حتى ذكراها.

كان يقول إنه لو أخذ المبلغ الذي يطلبه. فهم الـذين كسبوا وليس هو. وافقه أبوه على المبدأ. رغم أن نادر هـو

الذي رفض التعليم. والده كان نفسه أن يعلمه. كان يتمنى أن يقول إنه ترك أولاده كلهم متعلمـين. الكـل تخرجـوا مـن الجامعات. حصلوا على الشهادة العالية. كان هذا هو حلمـه. كان يريد أن يفعل من خلالهم. ما لم يتمكن من فعلـه فـي حياته. ومع ذلك. فإن نادر هو الذي هو الذي رفض.

قال له أبوه. حتى وإن كان ذلك من حقك. فمن أيـن نأتي بالمبلغ المطلوب نادر هو الذي قال: إخوتي الذين تعلموا يدفعون لمن لم يتعلم. حتى وإن كان هو الذي رفض. قال له أبوه إنه سيعرض الأمر عليهم في أول فرصة قادمة يجتمـع فيها شملهم.

عندما أتوا. وكان يوم عيد. وتعمد نادر أن يتغيب في هذا اليوم عن الحضور؛ حتى يعطيهم حرية الكلام والأخـذ والعطاء في غيابه. بعيدا عن الإحراج. واضـطرارهم إلـى قول أمور لا ينوون تنفيذها. كنوع من المجاملة.

ما إن عرض أبوهم عليهم الفكـرة. حتـى ثـاروا. رفضوا. قالوا كلمات كان والدهم يسمعها لأول مرة تقال بين أشقاء.بعضهم قال: إن ما فعله نادر ابتزاز وقال آخر: شـغل نصابين. والثالث قال: مبدأ خطير ومرفوض. لو قررناه لـن

ننتهي من هذه الحكاية. إن الفرص لا تأتي للنـاس. ولكـن تؤخذ. ونادر رفض فرصة تعليمه. ماذا سنفعل له؟ وعلى أي أساس ستحسب المبلغ الذي كان سيتكلفه نادر في تعليمه؟ هل على حساب التعليم الحكومي؟ في هذه الحالة ليس له سـوى ملاليم. أم في التعليم الخـاص؟ وهـذا سيضـاعف المبلـغ المطلوب له أكثر من مرة. ولكن من في العائلة وضع قدميه في التعليم الخاص؟ أم على حسـاب التعلـيم الاسـتثماري الجديد؟ تعليم الخمس نجوم. وفي هذا ظلم للآخرين. الـذين تعلموا في الحكومة. إن المسألة صعبة. ولا بد من صـرف النظر عنها.

حاول والدهم إقناعهم. كان يرى في هـذه المشـكلة والكلام عنها. بداية شق الأسرة. وتفتيتها وضرب تماسـكها. الأسرة التي أفنى عمره وهو يكونها. كان يقول عنها العزوة. ورفض كل ما كان يقال عن تنظيم الأسرة. كـان يقـول إن الولد الذي يأتي إلى الدنيا يحضـر ومعـه رزقـه. كـانوا يصرفون علاوات مع كل طفل.

وكان يقول عن كل مولود جديد إنه أتى ومعـه مـا سنصرفه عليه. كان يقول إنه سيمضي من الدنيا وهو مطمئن أنه جمع هذه الأسرة على الحب والمودة.

كان يتكلم كثيرا. عن أنه سيموت وهو على الحميـد المجيد، لا يملك من الدنيا سوى البيت الذي اشتراه في البلد، والشقة التي تعيش فيها نجيبة في مصر. والقبر الذي امتلكـه للعائلة في جبانات البلد. كان يقول إن كثرة الطـين. وكبـر الميراث وثقله تشتت الأبناء. كان يقـول لزوجتـه. إن أول جريمة وقعت على الأرض كان شقيق يقتل شقيقه. وكانـت محروسة تستبشع هذا. كانت تطلب منـه أن يسـتغفر. وألا يلوث لسانه بمثل هذا الكلام. وألا يدوش به سمعها.

شقيق يقتل شقيقه؟! إن هذا قد يحدث. ولكن مع الأيام الأخيرة للدنيا، قبل يوم القيامة بساعات. كان والدهم يقـول: الفقر حشمة والعز بهدلة. وإنه سيموت مطمئنًا لأنـه مـات فقيرا، ولأن الفقر جعل أبناءه يحبون بعضهم ؛لأنه لم يتـرك ما يتعاركون حوله. وما يختلفون بشأنه وما يقيمون المشاكل الكبيرة بسبب توزيعه.

لكن يوم أن أتى إليه نادر وعرض عليه فكرة دفـع تعويض تعليمه لكي يبدأ مشروعا. حتى يعيش في مسـتوى أشقائه. ولا يستعرون منه. ويصبح جزءا منهم. هل يرضي إخوته أن يتركوه يعيش في تل العقارب؟! هل يرضـون أن يعيشوا معا في زمان واحد؟ وفي بلد واحد؟ ولم يدخل بيتـه واحد من أشقائه. ولا حتى أمه أو أبيه؟ أليس هذا ظلما؟!

قبل أن يعرض والدهم الأمر عليهم. كان يدرك أنهم سيرفضون. كان أمله في موافقتهم ضعيفًا. وفي الليلة السابقة على عرض الأمر على أبنائه. فكر كثيرا في أن يفعـل أي شيء. إلا اللجوء إلى أبنائه. لو لم يكن ينـوي أن يسـتبدل جزءا من معاشه من أجل بيت البلد والقبر. لاستبدله من أجل نادر. وأعطاه المبلغ. فكر أن يستبدل جزءا ثانيا. ولكنه خاف أن يقل المعاش لدرجة لا يقوم بطلباته مع الحاجة. لو كـان عنده ما يمكن أن يبيعه لباعه بدون تفكير.

نظر ليلتها إلى يدي زوجته وإلى صدرها. ليس مـن باب تذكر الإعجاب الذي كان. ولكن بحثًا عن مصاغ.ربمـا نسيه هو ونسيته العائلة معهما. حتى لو كانت قطعـة ذهـب

واحدة. يمكن يبعها ويجمع عليه مبلغًا من المـال. ويعطيـه لنادر بدلاً من عرض الأمر على الأبناء.

فكر في السلف. أن يستدين مبلغًا. من المال. يمكنـه أن يسدده. دون إرهاق ومتاعب. كانت المرة الأولـى التـي يفكر فيها في السلف.. مع أنه كان يقول دائما. إن الـدين ذل بالنهار وهم بالليل. وكان يقول إننا من الأفضل أن نمد لحافنا على قد أقدامنا. بدلاً من مد اليد للآخرين من أجل الفشـخرة الكدابة.

لم يكن هناك بد من عرض الأمر عليهم. اختار أخف الكلمات واختصر كثيرا من التفاصيل. وابتعد عن كـل مـا يمكن أن يهدم الحكاية. قبل أن يصل إلى منتصف الحكايـة رفضوا. أعاد الأمر عليهم ثلاث مرات ورفضوا. أوشك أن يتحايل عليهم. كأن يقول لهم إن هذا المبلغ من المال من أجله هو وليس من أجل نادر، لكن رفضهم كان نهائيا وكلامهم لم تكن فيه رجعة.

لم يشأ الاقتراب من شقة المنيـل فهـي موضـوع مؤجل؛ وهو كان سعيدا – من جانبه – لأن نادر لم يتكلم عن الشقة. لا بالتصريح ولا بالتلميح. وأن الأبناء لم يتكلموا عن

فكرة أخذ الشقة من أختهم. تركوها – مؤقتًا – لهـا. ربمـا كانت مهرها لمن سيتزوجها، وتحل مشـكلتها؛ لأن حياتهـا وحدانية. فردانية، في المدينة الكبيرة. كانت تكوي القلوب.

جاء نادر أباه يسأل عن النتيجة. حاول أبوه أن يؤجل الإجابة. أن يسوف، أن يماطل. أن يمد الحبال إلى ما بعـد. طلب منه أن يعطيه مهلة؛ ليعرض الأمر على إخوته. لعـل وعسى. ففهم أن الحكاية انتهت وأن أخوته رفضـوا فكـرة الدفع.

رفض نادر بدوره فكرة التأجيل. قال إن الأمـر قـد يحتاج أكثر من سنة. حتى يجتمع الشمل مرة أخـرى. فهـم الحدوتة دونما كلمات. قبل أن يترك أباه وأمه ويمشي. كرر معزوفته عن الظلم الذي وقع عليه. وعـن المصـيبة التـي حاقت به. وعما جرى له منهما. وقال إنه لن يأتي بعد ذلـك أبدا.

قال إن الظلم الذي وقع عليه. كان من أقرب النـاس إليه، من أكثرهم حنانًا. الحنان المفترض. أقسم إنـه سـيغير اسمه ليصبح مظلوما. سيقوم بعمل إجراءات تغيير الاسم. إن كان من حقه تغيير اسمه. فهل من حقه أن يغير أسماء أشقائه

وأباه وأمه؟ كل منهم لا بد وأن يحمل اسم ظـالم. إن كـان ذكرا سيحمل اسم ظالم. وظالمة إن كانت امرأة. إنه يعـرف أن في العائلة أكثر من رجل وأكثر من امرأة. وفـي هـذه الحالة سيكون أبوه ظالم الأول. وأمه ظالمة الأولى. ويجري ترتيب باقي العائلة. أخوه الأكبر يصبح ظالم الثاني. وأختـه الكبرى ظالمة الثانية وهكذا. حاول أن يخفف من وقع الكلام عندما قال: الملوك يفعلون هكذا. ونحن ملوك الفقر.

بعد الثورة والهيجان. عاد إلى هدوئه. هكـذا كانـت عادته. يصفو بنفس سرعة الفوران، وربما كان ذلك أسرع. بعد أن هدأ أعطى أمه عنوان بيته، وقال لهـا مـن يضـمن الدنيا؟ إنه يترك لها العنوان. قال إنه يعرف أن أحدا لن يفكر في زيارته.لكنه يتركه والسلام.

من يدري؟! ربما وجدوا لقية في قلب أحد جـدران شقة المنيل. قد يمتلك أحد إخوته سيارة ويحتاج لسـمكرتها. وهو أولى من الغريب. وأحن من الـذي لا يعرفونـه. لـم يأخذوا كلامه على محمل الجد. لا بد وأنه يهزر.

كان آخر ما لاحظت محروسة في ابنها نادر. دمـع في عينيه. ظلت معلقة. لم تنزل. وانحناءة في ظهره. وهـو

يمشي مبتعدا عنها وعن أبيه. وبعد أن أصبح بعيدا عنهمـا. وقف ولوح لها تلويحة وداع لا تدري محروسة لمن؟ لها؟ أم لوالده؟ أو للهواء؟!

بلغهم – بعد ذلك – أنه عمل سمكريا للسيارات، إذن فقد كان كلامه عن مهنة السمكرة حقيقيا. فاعتصـر الحـزن قلب أمه عليه. وشعرت بألم في معدتها. وإن كانت لم تدرك لِم؟ ما الضرر في أن يكون سمكريا وشـريفًا؟ ثـم توالـت الأخبار السيئة. عرفوا أنه تزوج من امرأة " مـش ولا بـد" امرأة من النوع البطال. قالوا راقصة. أكدوا أنها من عـوالم شارع محمد علي.

لم يشرك أهله في موضوع زواجه. ولا عملـه ولا مشروعات حياته. انقطعت صلته بهم. وتباعدت أخباره. وإن كان قد ظل له وجود في حياتهم. كأن يقول أحد أشقائه إنـه شاهده في ميدان التحرير صدفة، وشقيق آخر يقسم إنه خبط في شخص في ميدان العتبة الخضراء. اتضح له بعد الخبطة أنه شقيقه نادر، وأنه سلم عليه. وسأله عـن حالـه وحـال العائلة. وعرف منه أنه أصبح أبا. لم تكن أخباره كلها ممـا

يمكن أن يسر القلب، ويطمئن النفس، ولكنها كانـت أخبـار والسلام.

لكن أمه كانت تبدو سعيدة في كل مرة تهف عليهـا فيها سيرته. لسبب أنه مازال على وجه الدنيا. وأنـه يحيـا. ليس مهما. إن كان يحيا بشكل جيد أو بصورة تعيسة، وربما كانت أموره مائلة، لكنها كانت تحلم أن تنصلح ذات يوم.

كان لدى محروسة. إيمان صوفي ويقين مطلـق، أن كل الأمور المعوجة ستنصلح. ولكن السؤال كان: ومتى يأتي هذا اليوم؟! ومتى تصل العائلة إليه؟ وأين؟ وكيـف يرونـه؟ وهل يمتد بهم الأجل حتى يعيشوا لحظة منه؟ تلك كلها كانت أمورا قابلة للتأجيل من وجهة نظرها. لكن المهم أن هذا اليوم في الطريق إليهم.

نزلت من الأتوبيس. سألت عن مستشفى أبي الريش. أشاروا لها على مبنى كبير. وقالوا ها هي. كانت المستشـفى قريبة، وإن كانت هي قد رأتها بعيدة، أبعد مما يتصـورون. جهدها هو الذي صور لها المستشفى كما لو كانت على مـدد الشوف. استطاعت أن ترى المستشفى طشاش. ليس بسـبب البعد؛ ولكن لضعف البصر والجهد والتعب.

عليها أن تصل إلى المستشـفى وتسـأل عـن تـل العقارب ثم تبدأ في البحث عن العنوان المدون معها. فهـل يكتب لها رؤية ابنها بعد كل هذا العناء؟ مشيت كثيرا كم كان المشي متعة في الزمان الذي مضى. قبل أن يولي الشـباب ولا يترك لها سوى الحسرات. استراحت أكثر من مرة فـي الطريق. لم تكن هناك أماكن يمكنها أن تستريح فيها. كانـت تجلس على

التلطوار. تنظف مساحة بسيطة تجلس عليها. وتمـد قدميها أمامها.

كانت في سباق مع الوقت. تريد أن تسـتريح حتـى تغفو. ولو في الشارع. كانت متعبة. ومتى لم تكن متعبـة؟! منذ أن جاءت إلى الدنيا لم يمر عليها يوم خلا من الجري في الشوارع والشحططة والبعترة كانت تعتبر أن كل ما جـرى لها كوم. ولكن هذا اليوم كوم آخر. ربما يفوق كل ما وقع لها من قبل.

تساءلت: وهل إن جلست ستستريح؟ ! تعرف مقـدما أنه لا راحة لإنسان في شارع. ولا حتى فـي بيـت أقـرب الناس إليه. لماذا لم تبق هناك؟ ومن يرد الاطمئنـان عليهـا

يحضر إليها؟ لماذا فكرت في القيام بهذه الرحلة الجهنميـة؟ أشيطان أوحى لها بالفكرة؟ ووز عقلها عليها؟ ودفعها إليهـا؟ رحلة بلا نهاية. غلطة؟! نعم. ولكن لـيس أمامهـا سـوى إكمالها. مادامت قد ذهبت إلى نجيبة. لا بد من الذهاب إلـى الباقين. وما ذنب نادر بالذات حتى تظلمه في هذا اليوم؟ الذي أصاب الجميع الفزع فيه علـى أنفسـهم وأهلهـم. وحتـى معارفهم.. لا بد من الذهاب إليه.

ثلاث مرات فكرت فيها في عدم إكمال مشـوارها. والعودة من منتصف الطريق. كانت تدرك في كل مـرة أن الصعب هو الذي ما قامت به. وأن السهل هو ما ينتظرهـا. وأن العودة أصعب من الاستمرار.

ربما عندما تصل إليه، يوصلها إلى بيت شقيقه التـي ستزوره بعده. ولا يتركها وحدانية. ربما يمسك فيهـا لكـي تبيت عنده. ولا يعزم عليه عزومة مراكبية للبقاء. ربما تجد أن حاله انصلحت فتسعد وتخرج من عنده مجبورة الخاطر. ويتبدد إحساسها بالتعب ويزول. وتستريح يكفيهـا أن تجـده مبسوطا.

وصلت إلى أول تل العقارب. كأنها قلبت صفحة في جريدة أو مجلة أو كتاب. بلاد أخرى غير البلاد التـي كانـت فيها. أقل من اللحظة وأبسط من الثانية. كيف تتجاور البيوت الفاخرة والبيوت البائسة ويتداخلان بهذه الصورة؟ الشوارع المسفلتة والشوارع التي من التراب. والهواء المكـون مـن الذباب والعفاشة. والهواء المحمل برائحة ماء النيل والمعطر بالمورد البلدي والياسمين. الذي كانت تشمه من دقائق قليلة.

نقلة موجعة ومؤلمة. وجدت نفسها في حي من الغبار والوحل. الأطفال وجوههم كتل من الذباب المتحرك. وجـوه من الوحل. أخرجت النوتة التي معها. دليلها العائلي. عناوين عمرها العاطفية، سكتها التي في القلب إلى أهلهـا وناسـها. قرأت العنوان وسألت الناس عنه.

تحركت من شارع إلى شارع. ومن شبه شارع إلـى حارة. ومن حارة إلى عطفة إلى شيء من الصعب تسـميته. كانت تقول كل هذا تزوير. لا الشارع شـارع ولا الحـارة حارة، ولا العطفة عطفة. لا بد من البحـث عـن الأسـماء الحقيقية لما تشاهده ولما تراه.

كان الأطفال الذين حولها يتزايد عـددهم ويمشـون معها؛ لأنه لا يوجد عندهم ما يقومون بـه. وشـكلها كـان غريبا. والعنوان في يدها يقول إنها ربما كانـت آتيـة مـن كوكب آخر. وملابسها السوداء التي لم تغيرها منـذ مـوت المرحوم. كانت تبدو فخيمة في وسط البؤس الذي كان يحيط بالناس والأولاد والأشياء والمكان.

حفاة، عراة، على وجوهم عماص. وشعر مجلد مـن الوساخة والقذارة. والملابس فوق أجسادهم تاهـت ألوانهـا الأصلية. وأصبحت كلها أقرب إلى لون التـراب والأطفـال يحيون بألفة وسط كل هذا البؤس الذي يعيشون بداخلـه. لا يشعرون أن ثمة ما يستوجب التغيير في حياتهم.

كانت تمشي في وسطهم تمني نفسها أن نادر لا يمكن أن يعيش هنا. إما أن هناك خطأ. أو أن هذه المزبلة تصل ما بين الحيين. معبر بين شاطئ للنيل. وشاطئ آخر للنيل. مـن الناحية الأخرى، لا يمكن أن يعيش خلفتهـا وابـن بطنهـا وتربيتها هنا، مهما كانت ظروفه صعبة وتعيسة.

كانت تمني نفسها بذلك. وتتمنى لو أنه كان صحيحا، وكانت تتوقع في كل لحظة مفاجأة من نوع ما. تؤكد لهـا أن

نادر لا يقبل أن يعيش هنا. لم تربه على ذلـك ووالـده لـم يغرس بداخله ما يمكن أن يجعله يطيق البقاء في هذا المكان.

ما إن رأت سيارات كثيرة. يعمل فيها صنايعية. حتى توجست وخاف. من احتمال أن نادر ربما كان يعمل هنا. ألم يقولوا عنه إنه سمكري سيارات؟ المؤكد أنه يعمل في ورشة لا يمتلكها. ألم يحلفوا لها إن رزقه يوم بيوم. وإنه لـو بقـي يوما في البيت لما وجد ما يعيش به. وما يعيش في الـدنيا. وإنه.. وإنه.. وإنه.. حتى اللحظة التي اقتربوا فيها من بـاب البيت. كانت تمني نفسها بأنها لن تجد نادر. ألا يتكلمون عن تشابه الأسماء؟ ربما. قد يكون نادر آخر موجود في المكـان يحمل نفس الاسم. وربما نفس الاسم. وربما نفس الشـبه. ألا يقولون إن الله سبحانه وتعالى يخلق من الشبه أربعـين؟ قـد يكون هناك أربعين شخصا يحملون اسم نادر وربما شبهه.

لا بد وأن هناك مفاجأة في انتظارها عندما تقف على باب البيت. ويخرج من الداخل من يعتذر أن هناك خطـأ أو تشابه في الاسم. هذا هو الحل الذي يريحها.

أما لو وجدت نادر فإلى أين ستهرب من ضميرها؟! وإلى من؟! كيف ستبرر ما فعله به الذين أوصلوه إلى هنا؟

هو مسئول؟! نعم لكنهم يتحملون من المسئولية ما هو أكثـر منه.

كان الأولاد يسألونها عنه وعن وصفاته. قالت لهـم اسمه بالكامل. نادر نجم الدين النجومي. لكن يبدو أن الأسماء لم تصل إليهم. سألوا عن شغلانته. خجلـت أن تقـول لهـم سمكري سيارات. فسألوا عن ملابسـه وصـفاته وأوقـات خروجه.

لاحظت أن طفلاً يهمس لطفل. حاولت أن تستمع لما يقوله. كان يحكي له. إن زوجته – لابد وأنه يقصد زوجـة ابنها – يقولون عنها في الحتة " هشك بشـك" ورغـم أنهـا استبعدت أو استبشعت معنى الكلمة. إلا أنها انغرسـت فـي لحمها. لم تشأ أن تفتح كلاما مع هؤلاء الأولاد عـن ابنهـا وعن زوجته. تفضل أن تسأله بنفسه وأن تستمع إلى الإجابة منه. فهي تعرف – منذ أن كانت تعيش في مصر – ما يمكن أن يقوله الجيران عن الجيران. زوجته هشك بشك؟ من كان يتصور هذا؟ من كان يتوقعه؟!

كانوا يتكلمون متسائلين عن أبناء له لم تسمع عنهم، ولم تعرفهم، ولم ترهم. هل خاف نادر دون أن تعرف؟ أحـد أشقائه قال إنه أصبح أبا ولكنها كانت تتصور أنه يهرج.

أو يخلط الأماني بحقائق الواقع. إذا كان قد تـزوج من وراء ظهورهم. فهل هناك مبرر لأن يعرفهم أنه أنجب؟ كم كانوا بعيدين عنه. وكم كان هو أيضا بعيدا عنهم؟

بالقرب من البيت الذي أوقفوها عنده على أن بيـت ابنها. لم تكن قادرة على أن ترى جيدا ما حولها. كانت تفكر في الحال الذي تركوه عليه. والحال الذي وصل إليه. هل من قلة البيوت عندهم يعيش ابنها هنا؟ هي تعـيش فـي بيـت لوحدها. تجري فيه الخيل. لا تجيب آخره، تحتاج من يؤنس وحشتها، ويبدد وحدتها، ومن يقضي معها نهاراتها الطويلة. وأخته تلهو وتعبث وتوشك أن تبيع شقة واسعة. وتعيش فيها لوحدها.

كيف كانوا ينامون ويأتيهم النوم ويحلمون في الليـل ويصحون مع الفجر. ونادر يمر بهذه الظـروف؟ مصـيبة. والأكثر أنها تكتشف الحكاية. ولكن بعد فوات الأوان.

٧

.. وقعت الفأس في الرأس. حلت المصيبة. أوقفوني أمام بيت. القول إنه بيت يعد كذبا مفضوحا. لم يكن بيتًا. كان كشكًا خشبيا. وحوله أكشاك من الخشب. وكـل كشـك دور واحد.

الحسنة الوحيدة لهذا الكشك أن الزلزال لم يؤثر عليه. ربما كان أصحاب العمارات يحسدون سكانه. ربمـا كـانوا يبحثون عن مثله؛ لكي يعيشوا فيه. فماذا سيفعل الزلزال لمثل هذا الكشك؟!

هل أعود من حيث أتيت؟ حدث ما تمنيت أن يكـون وهما. أصبح واقعا ما توقعت أن يكون كابوسا. ثم من الذي يدريني إن الذي بالداخل هو نادر؟ حتى وأنا على الباب كان ثمة أمل ألا يكون هو. كان الأطفال يواصلون الخبط والرزع على الباب. لا يوجد جرس. ويبدو أن الخـبط هـو اللغـة الوحيدة. وهل من المعقول أن يكون ثمة تيـار كهربـائي أو مياه في هذا الكشك؟!

مضى وقت طويل. قبل فتح الباب. خرجت لنا مـن ورائه امرأة. خارجة لتوها من نوم طويل. نوم كالموت. تنام ووجهها مغطى بالأحمر والأصفر والأبيض والأخضر. وجه كالكرنفال، كان النوم يطل من عينيهـا. شـعرها الأصـفر الأقرب إلى اللون الناري كان منكوشًا.

كانت تلبس قميص نوم على اللحم.عندما نظرت في وجهها. كان الانطباع الأول. كما لو كانت امرأةً عجوزا في السبعين، مع أنها ربما لم تصل إلى الأربعين بعـد. تثاءبـت أكثر من مرة. كانت من ذلك النوع من الناس الذي يقضـي عمره، وهو لم يشبع من النوم. جوعه الأساسي يكون للنوم.

ما يبدو من جسمها أكثر مما يستره القميص. كـان مفصلاً من قماش رمش عين الحبيب. أطلت من الباب وهي على هذا الحال. فركت عينيها. كان وجود الأحمر والأصفر والأخضر على وجهها. وهي صاحية من النوم. يدل على أنه كان كثيفًا قبل أن تنام. هل تضع لزوجها كيلو ألـوان علـى وجهها في البيت؟!

عندما وقع بصري عليها. تذكرت كلمتـي " هشـك بشك". ربما كانت من لوازم عملها. نظرت إلـي. وتجولـت

بنظرتها في الواقفين. في الزحمة التي حولي. كانت تنظـر بدون اهتمام. وسألت: لم كل هذا الرزع والخبط على البـاب بهذه الطريقة؟ لم يوقظون عباد الله من أحلاها نومة؟!

يشير الأطفال والصبيان والبنات إلي. إلـى الحاجـة التي تلبس السواد. يقولون لها: جـاءكم ضـيوف. تضـرب صدرها العامر والوافر ضحكت زوجة ابني ضحكة عاليـة. اكتشفت في لحظة الضحك التي لم تنر وجهها أن في فمهـا لبانة، وأن ثمة أسنانًا ذهبية متناثرة وسط أسنانها الطبيعيـة. اللبانة ضخمة تطرقع بها. بصوت مسموع. سألت نفسـي: هل كانت تنام واللبانة في فمها؟! هذه أول مرة أرى فيها هذا الحال. لو حكى لي أحد عنه ما صدقته.

التعارف الأول. اللقاء الأول. السـلام الأول. منـذ سنوات تم الزواج غير المعلن. وهذا هو اللقاء الأول بين الأم وزوجة الابن. وزوجة الابن اسمها هاجر أمين. اسم فنـي. وينادونها في البيت نوسة. وفي الشغل يقولون لهـا ننوسـة. زيادة نون. حتى حرف النون تجده هنا. عندما جاءت ابنتهم الأولى. وقرر والدها أن يبدأ اسمها بحرف النون زعلت منه.

قلت: إن في ذلك انحيازا ظالما لحروف اسمه ولكنه أصـر على ذلك.

نظرت هاجر إلى حماتها فوجدت امـرأة خارجـة لتوها من الليل. يبدو أن الليل نسي عباءته السوداء عليهـا. نظرت محروسة إلى نوسة بعين حماتهـا. فوجـدت امـرأة خارجة لتوها من نوم غريب. نوم بالألوان الطبيعية. بالأحمر والأخضر والأصفر. هل من الممكن أن يكون ما يقوله أولاد الحي عنها "هشك بشك" صحيحا؟! عموما عليها أن تنتظـر وترى.

سحبتني إلى الداخل. اكتشفت وأنا أمشي وراءها أن في قدميها شبشبا له وردة حمراء، وأنها تطرقـع بـه مثـل الغوازي في مسلسلات التليفزيون التي لا أفعل شيئًا سـوى مشاهدتها كل يوم وليلة.

تأخذني إلى الصالة. ترفع الملابس والفوط والأشياء من فوق الكراسي. كل شيء مبعثر، وثمة حالة من الفوضى كما لو كان البيت يسكنه العزاب. لا توجد فيه لمسة تقول إنه يعيش هنا امرأة.

كنت أبحث عما يمكن أن يؤكد لي أن هذا البيت هو بيت ابني. في البلاد مليون نادر. وقد يكون في هذه المدينـة أكثر من واحد اسمه نادر النجومي. نظرت فـوق الحـوائط الخشبية. أبحث عن صورة معلقة له. لم أشـأ أن أسـألها إن كانت زوجة ابني نادر أو أي نادر آخر. قليل مـن الوقـت وتتضح الحقيقة. وحتى لحظة جلوسي في صالة بيته " أقصد كشكه الخشبي " كانت في حبة القلب آمال ألا يكون نادر هذا هو ابني، ولكن متى تتحقق آمالنا وأحلامنا؟!

منظر الصالة جعلني أوشك أن أسألها: وماذا تفعـل هي هنا؟ ما دام المكان بهذه الفوضى؟ جلسـت قلـت مـن الأحسن ألا أبدأ كلامي بالانتقاد الذي يمكن أن يتحـول إلـى شجار.

عندما مشت ننوسة أمامي. بدت متثاقلة. محنية، كأن السنوات تحني ظهرها وتفقدها القدرة على أن تفرد طولهـا. ومع هذا كانت في وجهها قوة امرأة تريد أن تهيمن على كل شيء حولها.

قلت لها هروبا من الصمت الذي فرض نفسه علينا. إنني جئت من أجل الاطمئنان عليكم، وهل حضـوري إلـى

بيت ابني يحتاج إلى تبرير أو شرح؟ لم ترد علـي. حـلاوة الروح جعلتني أكمل الجملة، مع أنـه مـن المفـروض أن يطمئنوا هم علي.

وهي لم تقل سوى إنها مشغولة في البيت، لم تـتكلم عن شغلها معي ونادر في الورشة. التي لم تعد تعمل. صالة ضيقة. ومع هذا تصر أن تضع فيها سفرة، لا بد أن نادر قال لها إن أخيه عنده سفره. وهم ليسوا أحسـن منـه. السـفرة والكراسي حولها. ودولاب من المفروض إنه للفضيات. بلعوا الصالة. لم تبق منها مساحة للمشي. من يتحـرك، عليـه أن يلف ويدور. ويمشي بجنبه حتى يسلك نفسه في الزحام.

كان أسهل علي أن أشد كرسي. وأجلس عليه. بـدلاً من اللف والدوران. فضلاً عن أن المشوار أنهكني. رميـت الصرة التي في يدي على السفرة وشددت كرسـيا وجلسـت عليه.

لم ترد علي. أمسكت بعلبة سجائرها. أين أنـت يـا نادر؟ كان يقول: إن تدخين المرأة نوع من الاسترجال، وإنه ضد الأنوثة، وكانت تبحث عن عود كبريت، بعد أن أصبحت السيجارة بين أصابعها التي احترق آخرها من كثرة التدخين.

لم أر صفار أسنانها وطبقة الدخان التي تغطيها سوى في هذه اللحظة، والعقلة الأخيرة من كل أصبع. والأظافر. مصبوغة بلون بني يثير التقرز في النفس.

عندما لم تجد الكبريت. توقعت أن تـدخل المطـبخ؛ لكي تشعل ورقة من البوتاجاز. تولع بها السيجارة.ثم ترميها مشتعلة في صفيحة الزبالة. وهي لا تخشى الحريـق. الـذي يمكن أن يأكل الكشك في أقل من دقيقة. كشك مـن الخشـب ونار مشتعلة. ماذا يمكن أن ننتظر أكثر من هذا؟

فوجئت بها تلم المفرش من فوق السـفرة، وتخـرج عود كبريت من علبة كبريت بدون شـطاطة وتحكـه فـي السفرة حتى يشتعل. منه ولعت السيجارة. ثـم رمتـه علـى الأرضية قبل أن ينطفئ.

يكن أمامي سوى موقفين لا ثالث لهما. إما إن أدخل في شجار معها. ينتهي بأن أترك البيت وأمشي، أو أن أحاول أن أبدو مثل الأطرش والأهبل في الزفة، أطنش أنا لا آخـذ بالي من هذه الأمور، وهذا ما فعلته.

وأنا في الطريق إلى البيت، فكرت أن أسـأل عـن الورشة التي يعمل فيها نادر وأن أمر عليه فيها. قلت لنفسي من المستحيل ألا يكون في البيت. في مثل هذا الوقت، الذي لم أكن أعرفه أنه ليس بيتًا. إنه مجرد كشك خشبي.

خاب ظني. وظهر فشلي. وعدم قدرتي على التوقع، يبدو أن جحيم البقاء خارج البيت في هذا الوقت أسهل مـن العودة إليه، لقد نسيت أو تناسيت كل هذا اللمعان الـذي أراه في عيني نادر كلما نظرت إليه. دموع جفت. لمعان غريـب كنت أعتبره دليل جمال العين. ولم أتصور أنها دموع لم تشأ النزول.

سألتها عن نادر. طلبت منها أن ترسل مـن يخبـره أنني هنا. اتجهت إلى الباب، نادت على أولادها الذين كـانوا يلعبون في الشارع. ولم ينتبهوا للضيفة، ولم يعرفـوا أنهـا جاءت لهم.

يدخل ثلاثة من الأولاد. ولدان وبنت .الولد الكبيـر نجم الدين. فرحت وحزنت. ابتسمت وشكشك الدمع عينـي. هنا يصبح الشك نوعا بيديها. توشك أن يتشـخلع جسـمها.

تنظر ناحيتي. وتقول: أول مرة يغلط ضيف ويـأتي إلينـا. تكمل بصوت عالٍ: دي حادثة. أمد له يدي مصافحة.

كنت مازلت أمني نفسي أن يكون في الأمر خطـأ ما. بل إنني أصبحت أكثر تصميما على ذلك. يدي الممدودة تطفئ الحماس في وجه المرأة التي من المفترض أن تكـون زوجة ابني. ولا تدعوني إلى الدخول، أقول إنني والدة نادر، وحتى لا يكون في الأمر مجال للخطأ أعدت الاسم. اسم نادر بالكامل.

- والدة نادر نجم الدين النجومي.
- أهلاً.
- هل يعيش هنا؟ أم شخص آخر اسمه الأول نادر؟
- صاحب البيت. هو صاحب الاسم الطويل الـذي نطقت به وهو زوجي ووالد أطفالي.

ولأن الشك كان ما يزال يعبث بنفسي. وكان الأمـل مازال قائما ألا يكون هو.

- لونه مثل العسل والطحينة؟
- تمام.

- عيناه سوداوان؟!
- فعلاً.
- عنده شامة في كتفه الأيسر؟

قالت لي بطريقة لا تقال أمام الآخرين:

- إن هذه الشامة كانت مفاجأة ليلة الدخلة التـي لا أنساها.

سألتها. وهل تعرف أين تعيش عائلته؟ قالـت لـي: كانوا في المنيل.

كنت أشعر أن الأسئلة قد أتعبتني. وشعرت أنه لا بد وإن الإجابات قد أرهقت المرأة التي صحت من النوم لتوها. ومع هذا سألتها: ماذا تعرف عن أسرته؟

قالت لي وهي تتعمد رفع صوتها. أن له شقيقًا يعمل قاضيا. يقول: حكمت المحكمة. يقف لـه المخـاليق لحظـة دخوله قاعة المحكمة. ولا يجلسون إلا بإشارة من يده. وتقول بنفس الصوت العالي. إنهم سمعوا نسبه وأصـله وفصـله. ولكن أين هم أهله؟ إنهم يستعرون منه، ويخجلون من نسـبه إليهم.

تقول لوالدته: الأمارة إنك تعيشين في العزبة لرعاية الأرض التي ورثتيها عن المرحوم. سيتحول المشهد لمحاولة للفشر والفشخرة الكدابة. الوقفة أصبحت إعلانات كاذبة عـن مستوى لم يصلوا إليه. لو كان ما قالته صحيحا لفتحنـا لـه "أجنس" عربيات جديدة. بدلاً من بهدلة السـمكرة، أو علـى الأقل كانت ورشة السمكرة تصبح ملكه. بدلاً من أن يعمـل عند الآخرين.

في هذا الكشك الصغير الذي أراه بأم عيني. يعـيش نادر. وهذه المرأة المقصعة التي لو شاهدتها في أي مكـان آخر لما نظرت حتى نحوها. هي زوجة ابني، وأنا حماتها.

من الجنون. لقد سمى ابنه على اسم أبيه، يحاول أن يحفظ سلسال الأسماء في العائلة، والبنت اسمها المحروسـة، تأكدت منها. محروسة أم المحروسة؟ قالت لي وهي تضـغط على الألف واللام: المحروسة. أضاف الألف واللام لاسمي. الذي تعود على النطق به محروسة. كتر خيره، عداه العيب. لا أعرف إلى أين يمكني أن أدير وجهي منه عندما يأتي؟

فعلنا معه ما فعلناه، ولكنه طلع ابن أصول، أكثر مما كنت أتصور عمل بأصله، يبدو أنه أفضل منا دون أن ندرك،

الولد الثاني كان اسمه نجيب، نظرت إلى نفسي كما لو كنت أحلم، الواقع واقع، والهروب منه من رابع المستحيلات.

لكن ربكم والحق، ما أحزنني في الزيارة كثير. ومع هذا أسعدني أمران، الأول أنه ملأ البيت بالأطفال. ثلاثة من الأطفال. لا يمكن أن أطلب من أحد من أبنائي أن يصل إلى رقم الأطفال الذي وصل إليه نادر، كان المرحـوم زوجـي ينظر إلى الأمر على أنه رسالة، ونادر زرع بيته بالخلفـة، الولد سر أبيه، قد يعكر صفوي أن أمهم هشك بشك، ولكـن الابن ينسب لأبيه. قد أكون متحاملة عليهـا ومعـي بعـض الحق، نحن بشر. أوجع قلبي لحد الألم أنها لم ترحب بي، ولم تعاملني بود، ولم تقدم لي شيئًا.

الأمر الثاني الذي أسعد قلبي. إن نادر كان حريصـا على أن يرش أسماءنا على خلفته. صبيان وبنـات. سـمى الأول على اسم أبيه. والبنت على اسمي، والثالث على اسـم شقيقه القاضي، يبدو أننا لم نتمكن من رؤية نادر جيـدا، لـم نحدق فيه وننظر إليه بالقدر الكافي، أهملناه ولم نر كم نـادر يتصرف بشكل نادر.

لقاء فاتر؟! ربما لقاء يخلو من الترحيب؟! جائز. بعد أن تأكدت أن هذا هو بيت ابني. كان علي أن أتقبل الأمر ولا أرفضه. ولا أحزن عليه. وأن أتكيف معه. إن الأم التـي لا تعرف المكان الذي يعيش فيه ابنها لا يمكـن أن تعـد أمـا. إحساس الأم لا يكذب، وقد قال لي إحساسي: إن نادر هنا.

كله يهون أمام الاكتشاف، ثلاثة من الأبنـاء، متـى وأين ولدوا؟! ومتى حملت فيهم هذه المرأة؟ كل هذا تم حتى دون أن نعرف، كم يقسو الزمان علينا جميعا.

وننوسة لم تعزني في وفاة حماها. المناسـبة كانـت بعيدة، والذي يعزي بعد الأوان إنما يجدد الأحزان، فضـلت التصامت والتغاضي، لم أشأ تقليب الدفاتر القديمة، وهاجر لم تعزني؛ لأنه عندما حدثت الوفاة ذهب نادر بمفرده. والـذي جاء لكي يبلغه بموت أبيه، أبلغه في الورشة ولم يحضر إلى البيت. ونادر لم يفكر في أخذها معه، وهي لم تكن حريصـة على أن تذهب للعزاء. في إنسان لا تعرفه، ولا تشعر تجاهه بأي مشاعر، ونادر لم يصل حزنه إلى الذروة التي يمكن أن تعديها.

لا الست محروسة كلمت هاجر عن زواجها من نادر وباركت لها. ولا ننوسة عزت حماتها في وفاة زوجها. فالذي يبارك بعد سنوات طويلة من الفرح، يبدو كمن يسـخر مـن الذين نسوا حتى فرحهم؛ لأنه لا يذكره بفرح مضى، ولا يعيد خلق سعادة ولت. بقدر ما يعترف أمامه أنه لم يشاركه فـي الفرح في حينه، لذلك قررتا معا دونما كلمات، أن تتجاهـل كلاً منهما مناسبة الأخرى.

جلستا معا. تحاولان البدء من جديد.

بعد أن قدمت لي الأولاد. اعتذرت لهم ولها؛ لأنني لم أحضر معي هدايا. إن ظروف اليوم العصيب هي السبب في حضوري منفضة.

قلت أكثر من مثل شعبي يصف حالي، وقلت إننـي في نصف هدومي، وإنني مكسوفة، أوشـك أن أذوب مـن الخجل، كان من المفروض أن أحضر معي هدايا لهم، ولكن هذا ما كان.

أخرجت كيس نقودي. فتحته. مررت إصبعي بداخله وحاولت رؤية الفلوس قبل إخراجها. أن أحسبها قبل أن تخرج أمامهم، فلوس قليلة على الحفاظ عليها.

لا أضمن أن أحدا من أبنائي قد يعطيني أي فلوس، ولا أحب أن أذهب إلى أحد منهم وأطلب منه مليما واحدا. قد يتصور إن طلب الفلوس هو سبب الزيارة.

علي أن تكفيني الفلوس حتى موعد معاش الشهر القادم. لا أذكر إن كان في البيت أي فلوس، أم لا. النسيان نعمة، أحيانًا أنسى فلوسا تقدم لي حلولا سحرية غير متوقعة في أوقات الأزمات.

قبضت المعاش منذ يومين. وأمامي شهر وشهير. شهر بطوله وعرضه، صباح اليوم كانت ذكرى المرحوم، خرجت إلى التُرب.

وأنفقت وتصدقت، ودفعت ثمن ترتيل آيات القرآن الكريم، خرجة التُرب أخذت في وجهها مبلغًا ليس صغيرا.

صحيح أنني أعرف المناسبة سلفًا. وأن هذا التاريخ مدون على حبة القلب، لكن المبلغ الذي أخذته أكبر من أي

سنة سابقة. هناك نسبة زيادة كل سنة. لكن زيادة هذه السـنة فاقت كل ما عداها.

ثم جاء هذا المشوار الذي لم تعمل لـه أي حسـاب. خبطتان في الرأس توجعان. سيقولون عني بخيلة. هذه هـي زيارتي الأولى، وكان لا بد من بحترة مبلغ أكبر، ما باليـد حيلة، ابني الوحيد الذي يعطيني غير موجود، وأنـا أفضـل الموت على أن أمد يدي لأحد أبنائي أو إحدى بناتي.

لست بخيلة. ولكني فقط حريصـة، ووضـعي هـو السبب، فالبيت الذي أعيش فيه بمفردي، يعد بيتًا مفتوحا رغم أني بذوري فيه. نور ومياه، حليب ومكوى وشاي وبن وسكر وخضار وفاكهة مهما كانت الكميات قليلة. يكفي أن تمد يدك في جيبك، تحاول أن تخرج بها الفلوس. حتى تطيـر منـك كالعصافير التي كانت محبوسة.

في أيامنا التي مضت كانت الفلوس تـدفئ الجيـوب والمحافظ. ولكن يوجد في أيامنا عداء بين القرش والجيـب. وعداء أكثر بين القرش والمحفظة.

أخرجت أقل من القليل من الفلوس. وزعتهـا علـى الأولاد. لفت نظري أن الأولاد لم يتمنعوا. لم يقولوا لا. قلت في نفسي أزمة تربية. المشكلة في الأم. كان يجب أن تربيهم وأن تعلمهم الأصول. وأن يرفضوا حتى وإن كانوا في أمس الحاجة. أن يحاولوا إظهار التمنع. على الأقل أمام الغرباء.

ربما لم يعتبروني غريبة. ولم يتعاملوا معي على هذا الأساس، ربما نظروا إلي بوحشة. قالت لهم إنني جـدتهم، أم أبيهم الذي. لم أكمل الجملة. كنت أريد أن أقول. أبوهم الذي لم يعرفني عليهم، أو يحضرهم إلي. خفت أن أفـتح البـاب لعاصفة، لا أعرف كيف يمكن الخروج منها.

كيف وقع نادر في هذه الشيطانة؟ وهل أهملت فـي تربيته؟ هل لم أعرفه الصواب من الخطأ؟ حاولت أن أفعـل هذا كثيرا، ولكن من أين أتى الخطأ؟ عـاودت النظـر إلـى جدران الصالة، بحثت عن صورة لوالده. أو لي، أو لأحد من أخوته. أبسط ما كان يمكن أن يفعله. أن يعلق صورة والده، يحيطها إطار أسود بعد وفاتـه ؛حتـى يشـاهده الأطفـال، ويعرفون أنه جدهم الذي لم يرونه وربما لم يسمعوا عنه. لم تكن في الصالة صورة لهما، نادر وزوجته ليلـة زفافهمـا.

الصورة التقليدية للزوج الجالس. والزوجة التي تقف بجواره. وربما لم يكونا قد تزوجا على سنة الله ورسوله. من أين أتى بهذه الشيطانة التي تبدو بنت شوارع؟ لم تعرف الأصـول، كيف وقع فيها؟ قديما قالوا أجدع الرجال يقع في أنتن النساء. وهذا ما جرى لابني طيب القلب، وقـع فـي قرابيـز هـذه الإنسانة التي تبرى منها لسانها.

كان خشب الجدران كالحا. خاليا من أي رسـومات فوقه. لم أستبق وأركض نحو المشـكلة، لأوجـل الأمـور. جلست ننوسة أمامي، وضعت ساقًا على ساق، معلنـة عـن جسد سخي ممتلئ، وكانت تهز قدمها بطريقة عصبية، قالت للأولاد أن ينادونني نينة، كدت أن أشكرها، ولكنـي بلعـت كلامي من جديد.

نظرت إلى زوجة ابني.

- أين نادر؟!
- في شغله.

لا تحب أن تحضره من عمله، فهو يعمل – إن كانت أمه لا تعرف – باليومية والساعات التي يغيبها عن الورشة.

يخصمها منه صاحبها، شخطت: أين ذهبت الرحمة من قلوب الناس؟

دافعت هاجر عن قسوة صاحب الورشة. ولم تـتكلم عن الظلم الواقع على زوجها. قالـت إنـه – أي صـاحب الورشة لو ترك كل واحد على حل شعره لما تم عمل فـي الورشة وما يفعله من حقه. قلت في سري: كسر الله حِقك، يا ربيبة العوالم.

عدت ألح عليها أن ترسل في طلب نادر، أمرت نجم الدين أن يذهب إلى أبيه. وأن يجعله يستأذن خمس دقـائق، وهذه إشارة منها لي. إن الوقت الذي سيقضيه ابني معنا. لن يطول.

لتقل ما تشاء. شغل نسوان أعرفه. عندما يحضر نن عيني سيكون لي معه تصرف آخر، هل معقـول أن تكـون الكلمة كلمتها والشورة شورتها؟ مشى الولد، أخذ أخته وأخاه معه، قامت أمهم ورائهم، سمعت همسا وشـدا وجـذبا وراء الباب في الطرقة الصغيرة التي تفتح على الصـالة. لا بـد وأنها تأخذ الفلوس من الأولاد. لن تتركهم يشترون بهـا مـا يرغبون في شرائه. فكرت في القيام والتحرك إلـى حيـث

يقفون. لكني لم أحب أن تتحول زيارتي الأولى لبيـت ابنـي إلى مشكلة.

حاولت أن أبدو كما لو كنت لا أعرف، مـاذا يـتم بالقرب مني. رأيت وأنا جالسة بابا صغيرا، وستارتين مـن قماش قديم ممزق. تاه لونهما الأصلي، لكني ميزت في ستارة منهما بقايا لون أحمر. وفي الستارة الأخرى، أطـلال لـون رمادي، ترك إشارات باهتة وراءه، خمنت أن الستارة التـي كانت حمراء، وتفتح على غرفة النوم. والستارة التي كانـت رمادية، تفتح على المطبخ وعفشة المياه. إن كان فـي هـذا الكشك مطبخ ودورة مياه، ولكن ماذا عن الباب الوحيد الذي يطل على الصالة، ولا توجد ستارة عليه؟ هل من المعقول أن يكون في هذا الجحر صالون؟ وإن كان الصالون موجـودا. فلماذا لم تفتحه لي؟ ربما عدتني من أهل البيت ولم تعـاملني باعتباري ضيفة.

كلما أتى نادر إلينا. في زياراته الخاطفـة والقليلـة، كان يقول عن المكان الذي يعيش فيه: الشقة، مسكين ابنـي، مسكين حبة عيني، ماذا رمي به في هذا المكـان المـوحش

والمقبض؟ أنا لم أر سجنًا في حيـاتي، ولا أحـب أن أراه، ولكن هذا المكان يبدو مثل السجن، وسجانه ننوسة عينه.

سمعتها تقول لأولادها.. عندما أصبحت معهم وراء الباب. وبعد أن انتهت حصة الهمس، قالت لهم بصوت عالٍ: إن البيت لا توجد فيه سوى غرفة واحدة، ينامون فيها خلـف خلاف. وإنهم في ليالي الصيف الحارة ينامون فـي الصـالة التي يجلسون فيها بالنهار. فالصيف حصيرته واسعة، كـان الهدف من هذه التمثيلية أن أسمع الكـلام، أنـا المقصـودة بالموشح الذي لا مبرر له.

الرسالة واضحة. ولكن هل وصلت؟ لن أسمع رسائل سوى من ابني؟ أما شغل النسوان فلن يصل إلى أذني. كـان في كلامها مزيج من الخشونة والقسوة، سأمشي ولكن بعـد حضور نادر، دعوت الله ألا تحكم علي الظروف بالمشي قبل اختلائي بابني، سأتجنب المرأة التي أمامي، يبدو أنها تخانق ذباب وجهها، والبعد عن التعامل معهـا غنيمـة، كفـى الله المؤمنين شر القتال.

عادت ننوسة، بعد أن سربت العيال، وأخذت مـنهم الفلوس، ووضعتها في صدرها؛ لأن شكله بعد عودتها كـان

يختاف عن شكله عندما قامت وراهم، جلست في مواجهتي. عينها في عيني، امرأة متوحشة، لم يعلمها أحـد الأصـول، وابني مشغول بعمله. سمكري سيارات، يذهب إلى عمله من طلوع الشمس، ربما من نجمة الفجرية، من الدقة أن أقـول يهرب إلى عمله، يعود منه مهدود الحيل. يكاد يسـقط مـن طوله.

كنت أسمع صوت مضغ لبانتهـا عاليـا. مختلطـاً بأصوات آتية من الخارج، كانت الأصوات تتكلم عن الزلزال الذي لم يصل إلى هنا، وأنا في الطريق إلى الكشك، لم أشاهد أي مظاهر، تقول إنه كان هنا زلزال. إنها المرة الأولى التي أسمع فيها من يتكلم عنه.

كانوا يتكلمون في الشارع بشماتة عن بيوت الأغنياء والحرامية، التي تصدعت أو وقعت. يحكون عن الزلـزال. كانوا يقصون قصة غريبة عن رجل ذهب يزني بامرأة قبـل وقوع الزلزال بدقائق. فماتا معا. في مطبخ الشقة التي كانـا ينويان ممارسة الرذيلة فيها. الموت حدث من هول الهـزة. فاجأتهما وهما عرايا كما ولدتهما أمهما فماتا، لم يوضح الذي

يقص. لماذا في المطبخ؟ ألم يكن في الشقة غرفة نوم؟! أم أن غرفة النوم تصادف أنها كانت مشغولة؟

كنت أسمع نتفًا من الحكايات. يأتي الصوت من بعيد ثم يقوى عندما يقترب. ويبدأ في الضـعف والتلاشـي؛ لأن الكشك الذي يقولون عنه بيتًا. مصنوع من الخشـب. كنـت أجلس وكأني في الشارع، ومن الخروم التي بـين الخشـب. كان ضوء النهار الرمادي المكون من الغبار المتناثر يتسـلل إلي.

كنت أوشك أن أرى عبور الناس واضحا، ونونوسة لم تتبادل معي كلمة واحدة، قالت كلمة أو كلمتين ترحيبـا بـي على سبيل المجاملة. لكنها كانت فاترة، لم تترك أي أثر فـي نفسي، كنت أحدق فيها بتركيز، أما هي فكانت مشغولة بلبانها وبالنظر إلى السقف أو الأرض.

منذ دخولي، لم تدخل نونوسـة دورة الميـاه، حتـى تشطف نفسها وتغسل وجهها وتسوي شعرها. وتنظف أسنانها من رائحة النوم؛ لتروق حالها من الأثر الذي يتركه النوم.

أوشكت أن أسألها، كيف تظل نائمـة حتـى سـاعة العصاري. أو ربما المغربية؟ من الذي أعد الإفطـار لنـادر وعمل الشاي له عندما خرج في الصباح؟ من الذي جهز لـه الغداء؟ ومن الذي فطر الأطفال عندما صـحوا مـن النـوم متأخرين؟ لا أعرف إن كان الولد الكبير يذهب إلى المدرسة أم لا؟ من الذي سخن الحليب وعمل السندويتشـات؟ كيـف طاوعها قلبها؟ وتركت بيتها مبهدلاً كل هذا الوقت؟

عن نفسي لم يكن من الممكن أن يهوب النوم ناحيـة عيني، طالما أن ضوء النهار موجود في الخارج. يتلألأ فـي الفضاء. كنت ومازلت أصحو من نجمة الفجرية. نادر يعرف هذا؛ لأنه تربى عليه. ورآني أقوم به حتى ترك بيتنا.

أصحو مع أول صياح للديك. في بيتنا القديم بالمنيل، كنت أربي دجاجا فوق السطوح، تلك هي الميـزة الوحيـدة للسكن في آخر دور. وكنت حريصة على أن يكـون بـين الدجاج ديك، وكان الديك يصيح؛ فينشر الفزع والاضطراب بين ديوك الحي كله.

أصحو على صوته. قبل آذان الفجر. أعد الإفطـار وأصنع الشاي، وأوقظ نجم من نومه حتـى يصـلي الفجـر

حاضرا. هذا ما كنت أفعله. أنام مع أول الليل. لم أتعود على السهر. أستغرب عندما أجد أبنائي يسهرون وقتًا طويلاً، كنت أتركهم يسهرون وأنام أنا. فلكل جيل عاداته التي تختلف عن الجيل الآخر.

أوشكت أن أسأل ننوسة، متى نامت ليلـة الأمـس؟ وأين سهرت كل هذا الوقت؟ في هذا المكان الذي يبدو مثـل الزنزانة؟ تذكرت ما قاله الأولاد الذين أوصلوني إليها "هشك بشك" هل تعمل راقصة؟! وإن كانت تعمل في هـز الوسـط والشخلعة فلا بد وأن عملها في الليل. تتجول بـين الأفـراح والليالي الملاح. من أول الليل وحتى ظهور نجمة الفجر في سماء الله العالية.

نادر النادر. كيف ارتضي لنفسه هذا الهوان؟ كيـف فعلها بعيدا عنا؟ كيف لم يعد إلينا، قبل أن يقدم علـى هـذه العملة؟ تضحك على ابنـي بـالأحمر والأصـفر والألـوان الملعاطة. تضعها لنادر ولغيره من مخاليق الله. ربما كانـت جزءا من عملها. هذا الجسد ضحكت به على نادر.

النداهة خطفت نادر. الجنية طلعت لـه مـن تحـت البحر، عروسة البحر أخذته ولم تُعِده. نزلت به إلـى سـابع

أرض تحت الأرض. أو سابع سماء فوق السماء. وعاشـت معه وبه.

احترت. هل يمكن أن أفعل شيئًا لإنقاذ ابنـي، أو أن أوان الإنقاذ قد فات؟!

٨

جاء نادر وحده. لم يكن معه أبناؤه. دخل سلم علـي بنفس حرارته المعهودة. لم تتغير. الذي تغير فيه كان شـكله الخارجي. لم يعد ابني شابا. رأيت شعرا أبيض في فوديـه. حاولت أن أتذكر آخر مرة رأيته فيها. كيف فاتني ملاحظـة بياض شعره؟ أنا التي لم يكن يفوتني ملاحظة شيء.

لم يعد نادر شابا. كما أنه لم يصبح رجلاً بعد. لم يعد قادرا على تحمل مسئولية نفسه. منذ أن جاء إلى الدنيا وهـو في حاجة إلى من يرعاه. ويعرفه الخطأ من الصواب. وكان نزقًا متهورا، لا يرى العواقب ولا يدرك الخواتيم، عندما يبدأ أي حكاية ووالده – يرحمه الله – هو الذي قال لهم اتركـوه. من يريد أن يتعلم العوم. يرمي بنفسه في الماء دون تفكيـر. والخطر والخوف من الغرق خير معلم.

جاء بملابس الشغل. هدوم ممزقة تكشف عن أجزاء كثيرة من جسمه ملطخة بألوان كرنفالية ومبقعة بقـاذورات متداخلة مع بعضها.

يمشي حافيا. ذقنه طويلة. وشعره منكـوش. متعـب لحد الموت. ومع هذا عرفت الابتسامة طريقها إلى شـفتيه، وأنارت وجهه ضحكة بريئة هي نفس ضحكة نـادر الطفـل الذي ربيته وأعرفه كما أعرف أصابع يدي.

قبل أن يسلم علي، شكر الزلزال الذي كان السبب في حضوري. الحضور الذي تأخر سنوات. خمسة؟! عشـرة؟! خمسة عشر؟! غاب فيها ابني عن عيني.

وغبت أنا عن فؤاده.

قبل يدي. ثم قبل خدي الأيمن. وخدي الأيسـر. ثـم جبهتي. كان سلامه وقبلاته بحنان حقيقي مهما طرأت عليـه من تغييرات، سيظل نادر هو نادر.

سألته إن كان قد اطمأن على إخوته. قال لي إنه لـم يطمئن على أحد. سألني من الذي يطمئن على من؟! وقبل أن أجيبه قال لي وهو يلوح بيده. إنه لا يريـد أن يفـتح معـي موضوعات.. عاد ليتساءل: يطمئن على من؟ ولم؟ ثم إنه بعد الذي فعلوه معه. لن يطمئن على أحد.

لا يريد أن تسمع زوجته هذا الكلام، خُيل إلي فيمـا بعد إن ذلك ربما كان مطلب زوجته. ألا يذهب إليهم وإننـي أول من يحضر من العائلة. قبلي لم يأت أحد. وبعـدي لـن يأتي سريخ ابن يومين. وأنا نفسي لـن أفكـر فـي تكـرار الزيارة. تكفي من الدست مغرفة واحدة.

بعد أن جلس، قال لي نادر، إن الزلزال فتح الشـغل على الرابع أمام أصحاب محلات المفاتيح، اسـتفهمت منـه. رغم أن زوجته بدت متأففة من امتداد حبل الكلام. غريـب أمر الزلزال. له وجه آخر في كل حي. وأثر مختلف في كل مكان. يبدو متغيرا عن أي مكان كان.

قال لي نادر: معظم سكان العمارات العالية. نزلـوا جريا لحظة الزلزال. ونسوا أن يأخذوا معهم مفاتيح شـققهم. وبعد أن انتهى الزلزال. عادوا إلـى البيـوت، اكتشـفوا أن الأبواب أغلقت. ولا مفر من إحضار الصنايعية. من محلات المفاتيح، حتى يولفوا لها مفاتيح بـدلاً مـن التـي تركوهـا بالداخل.

يقول: إن صاحب محل مفاتيح السيارات. بدأ العمـل من لحظة الزلزال ولم يعد إلى محله، ولن يعود قبـل الغـد.

قالت له ننوسة: والسيارات التـي وقعـت عليهـا البيـوت والعمارات. أليست في حاجة إلى سمكرة ودوكو؟ وقبـل أن يجيبها، أكدت أن سمكرة السيارات ستكون أكثر من حكايـة المفاتيح. كل سيارة كانت تقف في الشارع لحظـة الزلـزال أصيبت، ولا بد من سمكرة ودوكو.

قال لها: السيارات التي تأثرت من وقوع العمارات، لن يبدأ أصحابها في إصلاحها قبل أيام قادمـة، بعـد رفـع الأنقاض عن السيارات، قالت: السمكري حظه سيء. قليـل البخت، لا يروج عمله حتى بعد الزلزال، قال لها: إنه لو أتت كل سيارات البر مهشمة، فالعائد لصاحب الورشة، وإن حلمه أن تكون عنده ورشة خصوصي سيظل مؤجلاً لسنوات قادمة لا يعرف عددها.

غيرت موضوع الكلام، خفت أن يدخل إلى حكايـة المطالبة بالمبلغ الذي كان يطلبه: فلوس تعليمه. والتي كـان يريدها؛ كي يبدأ بها مشروعا. لسـت فـي موقـف الأخـذ والعطاء. لست أنا التي قلت له لا. لو كنت أمتلك وقتها مـا أعطيه له ما ترددت في إعطائه. فتح الكلام لن يؤدي ولـن يجيب ولن تكون له نتيجة.

كلما فتح نادر موضوعا للكلام فيـه قفلتـه زوجتـه ننوسة وذكرته بطريقة فظة بأن عليه العودة إلـى صـاحب الورشة؛ خوفًا على اليومية التي يمكن أن تضيع منه.

قال نادر: إن بيته ليس مهددا من الزلزال. يبدأ فـي الكذب علي. عندما يقول إنه اختار البيت مـن دور واحـد، ومن الخشب لمواجهة هذا اليوم. كأنه مكشوف عنه الحجاب، كان يعرف أن مصر لا بد وأن تتعرض لزلزال أن يسكن في بيت من دور واحد، ومصنوع من الخشب. هو الذي خطـط وليس صدفة ما جرى. ناقص أن يقول لي إنه هو الذي اختار هذا المكان ،واشترط أن يكون قذرا. منقوعـا فـي الزبالـة والوساخة والعفاشة. ولن يعدم أن يجد سبب الاختيار وهـو القرب من مكان عمله.

كذب علي، قال لي: إنهم منعـوا مزاولـة شـغلانة السمكرة في الأحياء الراقية، النظيفة والجميلة، فأتى إلى هنا وسكن بجوار المكان الذي كان مسموحا له بمزاولـة عملـه فيه.

ينسى أو يتناسى أنني أعرف من أخوته أنه بدأ سكناه وعاش هنا، ثم جاء العمل. كل ما يقوله لي كذب في كـذب.

أكاذيب بيضاء. كأنني راهنته في أول الجلسة ألا يقول فـي جلسته سوى الأكاذيب. علي أن أتظاهر بأنني أصدقها إلى أن اختلي به، لن أكلمه بطريقة قد تغضبه أمام المـرأة الغريبـة أبدا. لن أجعلها تفرح فيه، لن أسعدها وهي تسمعني أشـتمه. بيني وبينه كلام وحديث عندما نصبح بمفردنا.

سألته زوجته عن مدة الإذن الذي حصل عليه مـن صاحب الورشة. من أجل السلام على الحاجة؛ حتى لا يتأخر في العودة إليه، ويعاكسه عندما يقبض أجره آخر الأسـبوع. لم يجبها. فهم من سؤالها أنها تريد دفعي للمشي بأسرع مـا يمكن، رفض الإجابة عليها. بدأ غير راضٍ عن سلوكها.

بدا مغلوبا على أمره. لا يهش ولا ينش. لا يجـرؤ على أن يشيل عينيه في ننوسة فؤاده التي يعتبر زواجه منها أكبر تضحية يفعلها في حياته. سألت نفسي: متـى انكسـر نادر؟ متى حدث له ذلك؟ في أي السنوات؟ هل كـان هكـذا وأنا لا أعرف؟ هل كانت هذه طباعه وأنا لم أدرك؟!

شعرت بعطش حارق. طلبت من ننوسة بـق مـاء. قامت متأففة. متغاضبة. أحضرت لي كوب ماء بيـديها، لـم يكن موضوعا على صينية ولم يكن مع الماء فنجان شاي أو

قهوة – وابني – الذي من المفترض أنه رجل البيت – ولـم يعزم علي بشيء. ولم يأمرها أن تعد لي ما أشـربه أو مـا آكله. ظلت نوسة واقفة. إلى أن شربت الماء عـن آخـره. مسحت فمي بظهر يدي. أعدت لها الكـوب الـذي أخذتـه ودخلت إلى المطبخ ولم تخرج منه. هكذا فهمت أن الزيـارة انتهت. وإن علي أن أمشي.

وابني من جانبه. لم يكن عنده لـي سـوى همبكـة الترحيب والقبلات الكثيرة. لم يسألني إن كنت قد أفطرت أو تغديت، ولم يعزم علي بالبقاء. العزومة تكون على الغربـاء وأنا لست غريبة. المفروض أن يطلب مني تناول الطعام في بيته. وأن يكون طلبه حازما وجازما. بل ربما كـان أقـرب إلى الأمر منه إلى العزومة.

نادر لم يعرض علي أن أبقى في بيته معززة مكرمة. ويمر هو على أشقائه للاطمئنان عليهم. لو عرض علي هـذا لدفعت أجرة عمله في الورشة. وقد خشيت أن أطرح الفكرة؛ خوفًا من زوجته، لأنني لا أعرف كيف سيكون رد فعلها.

ونوسة لم تفعل ما تقوم به زوجة الابن عندما تحضر لها حماتها لأول مرة، لم تطلب مني خلع هدومي، والتحـرر

من الجزمة والشراب، ورفع غطاء الرأس. امرأة مع امرأة، ماذا يمكن أن يفرقنا عن بعضنا؟ لم تأخذني من يـدي لكـي تفرجني على الكشك. الذي يعيشون فيه.

لم تدخلني غرفة النوم. ولم تعزم علي بدخول دورة المياه. كنت تواقة لفرد جسمي على الكنبة التي في المـدخل، وكنت أريد أن أفك ميه، ولكني ترددت أن أطلب هذا منهـا. فبرود حفاوتها في التعامل معي طرد كل الرغبات التي كان يمكن أن أفكر فيها، لم تجعل البساط أحمديا. وتقول لـي يـا ماما. سدت كل أبواب التفاهم التي كان يمكن فتحها.

قمت من مكاني. الذي لم أغيره منذ أن جلست عليه. سويت ملابسي، أخذت حقيبتي وقررت المشي. كان عنـدي الكثير من الكلام الذي أريد قوله لابني. وأسئلتي كانت بـلا نهاية. نادى على ننوسة نن عينيه. التي كانت معتصمة فـي المطبخ حتى أمشي. كي تسلم علي. كان يستعجلها. كما لـو كان مشيي حلاً لمشكلة نزلت من السماء. كان يريـد إنهـاء الموقف قبل أن أرجع في كلامي.

تباطأت ننوسة وتلكأت. نادى نادر. أول مرة لم ترد. والنداء الثاني لم يصلها، وعند المناداة الثالث أتـت. كأنهـا

تمشي على قشر بيض. تسير كالراقصـات، تمشـي علـى أصابع قدميها. اقتربت منـي. سـلمت علـي بطراطيـف أصابعها.

وهو من جانبه بعد أن تأكد أنني سأمشي. عزم علي بطريقة توحي أنني لابد وأن أمشي. وأن يكـون ذلـك الآن؛ لأنه يجب أن يعود إلى عمله. خُيل إلي أنه يقول لنفسه وهـو يمشي بجواري " بركة يا جامع". بعد أن أصبحنا في الشارع احترت ماذا أفعل معه؟ هل أطلب منه الجلوس على المقهـى حتى أتكلم معه؟ وهل هناك عيب في هذا؟ هل أذهب معه إلى عمله لكي أتكلم معه هناك؟ وقد يسمع زملاؤه مـا سـأقوله هناك. يا عيب الندامة. أكلمه في شغله، حتى أجعـل رقبتـه أقصر من السمسمة. لن أفعل هذا حتى لو مت بحسـرتي إن لم أتكلم معه.

فكرت في الكلام معه ونحن نمشي. كانـت الحـارة ضيقة والبيوت – أقصد الأكشاك – متقاربة. والناس تجلـس أمامها. خشيت إن تكلمت معه في أي موضوع أن يسـمعني الناس. أن أفضح ابني، مع أنني كنت أريد بكلامي أن أستره. هل أعريه وأنا أريد أن أضع كل ملابس الدنيا عليه؟

لماذا لا أؤجل الأمر إلى ما بعد؟ إن كانت كل هـذه الصعوبات تحول دون الكلام معه هذه المرة. فقـد عرفـت قدمي طريقها إلى بيته والحتة التي يسكن فيها. إن كان فـي العمر بقية سأحضر له فيما بعد. سـألت نفسـي. أي بعـد سأحضر له فيه؟ هل أضمن رؤيته مرة أخرى؟

من جانبي لن أعود إليه. وهو من ناحيته لن يفكر في زيارتي. ربما كان من الأفضل أن يحضر لـه واحـد مـن إخوته؛ ليتكلم معه في أحواله.

سار معي. مشى بجواري في صمت. كـان يريـد الصمت. كان يحدق حوله في صمت. كان يشعر بالاكتفـاء عن الكلام، صام عن تحريك لسانه وشفتيه، لم يبق لديه وقت للكلام. من الذي زرع فيه هذه القدرة على التعامل مع نفسـه والاستغناء عن الآخرين؟ نادر قطعة من لحمي وقطرة مـن دمي ولمعة من نور عيني. لكن هذا الذي يمشـي بجـواري غريب عني.

سألته عن الورشة التي يعمل فيها. قال لي إنها فـي الناحية الأخرى. فهمت من كلامه أنني يجب أن أطلب منـه الوقوف عند هذا الحد، وأن أطلب منه تركي والذهاب إلـى

عمله. ما إن طلبت منه أن يروح إلى الورشة حتى بدا كمـا لو كان قد أُنقِذ من غرق. وقف. بدا سعيدا؛ لأنني طلبت منه تركي حفاظًا على الشغل، حاول أن يعرض علي السير معي حتى أركب. وما إن شكرته حتى أشار إلـى المكـان الـذي يمكنني الركوب منه.

لم يسألني إلى أين أذهب؟ وكان آخر ما أحزنني منه وضايقني ودفعني إلى حافة الرغبة في البكاء. عندما قلـت: إنني سأذهب إلى نجيب، قلت: نجيب الـدين. هكـذا كـان المرحوم يحب أن ينطقها. قلت: إنني أريد الاطمئنـان علـى زوجته. سألني: وأين هو؟! كان الرد مشروع دمعة تجولـت في عيني. الأخ لا يعرف أن أخاه ليس موجودا في مصر، لم كل هذا البعاد؟ مع أنه قريب من المكان الـذي يعـيش فيـه أخوه. لا يعرف هؤلاء الأولاد أن البعاد جفاء. وأن الجفـوة تجفف عروق المحبة. قرب المكان لم يشفع لهما؛ لأنه فرقت بينهما أمور كثيرة. ليس الذي يقرب الأخوة مكان السـكن أو الزوجة ولا المستوى الذي يعيش فيه هذا أو ذاك. المشكلة أن كلا منهما أصبح يسير في طريق لن يلتقي مع الطريق الذي يسير فيه الآخر. وربما لن يلتقيا بعد ذلك.

سألته ماذا أركب حتى أصل إلى أخيه. كنت أتصور أنه سيعزم علي. أن يوصلني بسيارة من السيارات التي كانت تحت العمل في الورشة، أشقاؤه هم الذين قالوا لي. في كـل مرة يقابلونه، يجدونه وقد ركب سيارة مختلفة عـن المـرة السابقة. سيارات الزبائن التي يسمكرها. فالزبون يترك لـه سيارته لأسبوعين أو ثلاثة أو شهر، وأنه يمتلك كل سيارات الزبائن التي تحت السمكرة.

لم لا يوصلني بسيارة يسمكرها ويريحني من عنـاء المواصلات؟ لم يفعل. كان يمشي معي وأنا أسـير بجـواره وعينا زوجته مغروستين في ظهرينا. تشاهدنا وترقبنا وترى ما يمكن أن نفعله بعيدا عنها. كان محكوما بغياب زوجتـه، خائفًا من عدم حضورها أكثر من مراعاته لوجودها الثقيـل. لا يجرؤ على أن يتصرف أي تصرف بعيدا عنها. يخاف إن وصلني أن تعرف زوجته.

لم تكن عندي مشاعر عداء وحب أو كراهية تجـاه ننوسة، لكني شعرت أن هذه المرأة الغريبة، التي تبدو أكبـر من ابني تقاوم الزمن وتحاربه بالألوان والمساحيق. وتستولي عليه خيالات هذا الجسد المربرب، لقد سرقته. نشلته. ونحن

لم ننتبه إلى هذه السرقة. لم نبلغ عنها. ولم نحاول استعادته. أشار إلى نهاية الشارع، وقال لي: إننـي يمكـن أن أركـب الأتوبيس من هذه المحطة. فسألته عن رقمه، قال لي: إن أي أتوبيس يتحرك من هنا لا بد وأن يمر على السـيدة زينـب. كان يحاول الهروب من لحظة الوداع. وأنا قلبي كان مشقوقًا نصفين. ونفسي مكروش. هف أولاده على بالي. لم أتصـور أنني سأتركهم بهذه السرعة، كنت أريد البحث عـن قـوانين الوراثة في ملامحهم. هل البنت شكلي؟! هل الولد الذي اسمه على اسم جده شكله؟! هل يعرف من هو جـده؟ هـل رأى صورة له؟!

لحظة تركه لي مشى مسرعا. كأنه يهـرب منـي. يخشى أن أرجع في كلامي، وأن أتمسك به، وأن أعود إليه. خُيل إلي أنه جرى. سألته: ماذا يعني هذا اليوم بالنسبة لـك؟ قال كلمة واحدة: الزلزال.

نظرت إليه على بعد. كان كالجنين في بطـن أمـه. يبحث عمن يحميه من أي خطر. ماضيه خلفه وليس أمامـه، مستقبله وراءه. عاد إلى ذات يوم بعيد، موغل فـي البعـاد، وقال: إنه لن يذهب إلى المدرسة. لن يتعلم. سيكون مهنـدس

سيارات تساءلت غير مصدقة: هيه؟! يا ألف حسـرة علـى الجدع. قلت له: خذ شهادتك وافعل بنفسك ما تشاء. قال: إن الشهادة لن تقدم ولن تؤخر بالنسبة لما يعد نفسه له.

أخوه نجيب قال لي إن ما يعاني منـه نـادر حالـة تخبط. حالة تحدث للكثير من الشـبان.خاصـة فـي الأيـام العصيبة التي نطاب الستر من آثارها، التي يمكن أن تصـل إلى الجنين في بطن أمه. كان قد أصبح في طريق بمفـرده، وأنا أصبحت في طريق آخر لوحدي، وإن كنت لا أعـرف إلى أين؟ سألت نفسي بفزع: هل أنسى أطيب أبنـائي هكـذا وفي غمضة عين؟ هل هذا معقول يا ناس؟!

نجيب هو الذي تكلم عن الطموح. إن الطموح يتطلب ومضة من الحياة. كان نادر يفتقدها. كان يعيش ولكن كالميت الحي. لا هو رافض لموته. ولا هو مقبل على حياته. كـان قادرا فقط على العيش حتى يموت. هذا مـا رأيتـه لتـوي. غريب أن أفكر في الموت بالنسبة لشاب لم يعش حياته بعد.

بعد زيارتي لنادر، بدأت تتضح لي معالم وإشـارات الطريق الصعب الذي ينتظرني.

٩

.. البيوت هي التي قادتها للبيوت.

والأماكن القريبة من بعضها هي التي لضمتها مثـل الخيط

والقربى رسمت لها خط سيرها.

نجيبة أوصلتها لنادر

ونادر قادها لنجيب.

من تل العقارب إلى المنيرة، انتقال تمر خلاله بابنـة ابنة الرسول شي الله يا أهل الله. كان عليها أن تختـار بـين أبنائها وآل البيت، ولكن الصدفة تضفر بين الجولتين، وهـي في الطريق من نادر إلى نجيب تقرأ الفاتحة للسيدة، شـي الله يا أم هاشم. يا رئيسة الديوان: عقبال ما أذهـب إلـى سـيد الشهداء ونصير المظلومين عندما تمر عليها سترمي السـلام وتقرأ الفاتحة من جديد توصيها على ابنها المتغـرب؛ حتـى يعود وزوجة ابنها المتغرب؛ حتى تضع ما في بطنها بسلام.

ولد أو بنت. كل ما يأتي من عند الله خير. المهـم أن تقـوم بالسلامة.

مضي وقت طويل دون أن يحضر الأتوبيس. سألت. عرفت أن حي السيدة زينب أقرب مما كانت تتصور قالـت لها امرأة تقف على المحطة: إنها يمكنها الذهاب على قدميها أن تأخذها كعابي لا تعرف أنها متعبة حتى الموت سألتها عن المواصلة. قالت لها عليها أن تنتظر. فـاليوم تعطلـت فيـه المواصلات.

اكتشفت محروسة أنها وحدها التـي تنطـق السـيدة زينب لكن الناس في الحي يقولون السيدة فقط. مع أنها كلمـا نطقت الاسم فكرت في أن تقول السيدة زينب رضي الله عنها وأرضاها، ربما فكرت في قراءة الفاتحة كلما هفـت علـى خاطرها قالت لها المرأة الغريبة: إنها لو ركبت تاكسيا لـن يأخذ سوى جنيه كانت تنظر إلى محروسة نظرات لصوص. عيناها من النوع الذي يعري من أمامه حتى من جلده، قالت هكذا هم أولاد البندر. نسوانها مثل النَور، بل هم غجر.

دقائق وكانت أمام بيت ابنها في السيدة. هل معقـول أن يعيش الابنان في هذين المكانين القريبين جدا ولا يلتقيان؟ ولا يعرف أحدهما مكان الآخر أو الطريق إليه؟

كانت في الطريق إلى بيت ابنها المتغرب القاضـي. أقرب الأبناء إلى قلبها. أحبته أكثر مـن حبهـا لنفسـها لا تستطيع وصف مشاعرها تجاهه. منذ أن سافر وكأنـه أخـذ قلبها معه إلى حيث هو هناك.

قال لها: الإعارة أو الشطارة. إما أن يسافر للعمل في الخارج. أو أن يمد يديه إن بقي هنا. ربما سرق أو هاب. من قبل كانوا يقولون. قيراط حظ ولا فدان شطارة. والشـطارة كانت تعني العرق والعمل. ومعناها في هذه الأيام الصـعبة. الفهلوة وكل ما يعفي الإنسان من العمل.

لم تكن موافقة على سفره. ليس أكبر أبنائها سنًا فقط. بل كانت تعتبره والدا لإخوته. وبعد وفاة والدهم. ومن يـوم أن مات أبوه. قالت له: أصبحت الأب لكل أشقائك. ورفـض وقال لها: إنها أصبحت الأم والأب معا. يسـتظلون بظلهـا ويتمرغون في جنة حبها. ويرمحون تحت ظلال حنانها.

قال لها: أنت كل من لنا في هذا العالم. كان مصمما على السفر. كبش في فؤاده مرض الترحال. انخلعت قـدماه من الأرض. قال لها وكان صادقًا السفر سيعصمه، سـيحميه من مخاطر كثيرة، ستهدده لو بقي في مصر. وافقت؛ لأنه لم يعد في يدها أن ترفض.

ظلت على اتصال بزوجته بعد أن سافر. بقيت فـي مصر مضطرة. كانت مصرة على السفر معه. لكنه أبقاهـا. قال لها إنه بعد أن يصل ويستقر وتضع مولودها هـي فـي مصر. سيبحث لها عن عمل. قال: إن فكرة البحث عن عقد عمل لها سيجرح حياءه كقاض. تحت إلحاحهـا قـال إنـه سيحاول. عرضت حماتها عليها أن تأخذ أجازة من عملهـا وتقيم معها في البلد.

لكنها اعتذرت قالت إنها ستوفر أجازاتها عندما يصل إليها قرار السفر، مطلوب منها إعداد أوراق كثيرة سـتحتاج إلى أيام. وإن نتعها الله بالسلامة ووضعت قد تحتـاج إلـى أجازات غير أجازة الوضع.

كانت حماتها تتصل بها وكانت تتصل بحماتها، ولـم تكن المكالمات محببة لحماتها أولها. كانتـا تتحـولان إلـى

امرأتين تتكلمان عن رجل واحد. الحاضر بغيابـه. الغائـب بحضوره. ابن أمه ورجلها. لم يكن بينهما كلام سوى عنـه. ماذا يفعل في الغربة؟ كيف يمارس عمله؟ كيف يعيش فـي بيته؟

كان يرسل لأمه ولزوجته رسائل كثيرة. كانتا تسألان من أين يجد الوقت لكتابة كل هذه الخطابات؟ لم تكونا تعرفان أن الوقت هناك يفيض عن حاجته. وعنـدما كانـت تتـأخر رسائله في القليل النادر. كان التليفون يسعفه. يتصـل بأمـه ويهاتف زوجته.

الأموال التي كان يبعث بها لأمـه أولاً، ولزوجتـه ثانيا. كانت تكفي وزيادة. لم يقطع عادة عن أمه، يوم سـفره كادت أمه أن تجن. سألت الهواء والغبار والسماء: لماذا هذا الابن بالذات؟ لماذا نجيب الذي يسافر؟ لماذا نجيـب الـذي يسكن قلبها ويجلس متربعا في عقلها، تكتب عليـه الغربـة القاسية دون سواه؟

أمه لا تنسى متى بدأت أحلام الغربة تداعبه، عنـدما تزوجت أخته وسافرت مع زوجها. وبدأ يتابع فـي صـمت التغيرات التي طرأت على حياتها. والنقلة التي جرت لها.

ابتدأ ولأول مرة يتكلم عن السفر على استحياء وعلى فترات متباعدة، وكما لو كان يتكلم عن سفر شـخص آخـر سواه. له نفس ظروفه. ثم بدأ يقترب من أمه بهدوء. خطـوة خطوة. إلى أن قال لها في النهاية: إن الـذي سيسـافر هـو وليس صديقًا له. وإن بديل السفر هو الجحيم. هل تحتفظ بـه متغربا بعيدا؟ أم تخسره وهو في حضنها؟!

كان سؤاله حادا وقاسيا ومدببا. مثل نصل السكين. لم تعرف كيف ترد عليه احتمت بالصمت. ربما فسـر الأمـر على أن السكوت علامة الرضا. وهي ما رضـيت بغربتـه بعيدا عنها. حتى لو كان الثمن هو مال قارون نفسه.

كان من الصعب على الست محروسة أن تخرج من حالة الدهشة التي ولدتها عندها المسافة القصيرة بـين بيـت نجيب وشقيقه نادر. ومع هذا فإن نادر لا يعرف أن شـقيقه غريب الديار. ولا نجيب عندما كان هنا فكر في الحضـور إلى نادر. مستحيل أن يعرف الخطأ طريقه إلى نجيب، نجيب هو الصواب نفسه.

إن كان ثمة خطأ فنادر هو الذي أخطأ ربما لا يعرف نجيب مكان بيت أخيه. من المؤكد أنه لا يعرف ولو عـرف

ما سكت. لذهب إليه وتصرف وأخرجه من الماخور الـذي يعيش فيه ،وأبلغه عدم رضاه عن الست التي تزوجها. ولكن إن غاب القط تلعب كل الفئران على هواها. وهـم يلعبـون بحريتهم وعلى راحتهم؛ لأن الرجـل غيـر موجـود وهـم يعرفون هذا. لكن نادر من الممكن أن يعرف ويطنش ربمـا يمر في السيدة زينب عشر مرات في اليوم. وربما أكثر ولا يهتم بوجود أخيه فيها.

لحظة مرورها على جامع السـيدة زينـب. أوقفـت التاكسي وحاسبته. نزلت. لا تعرف إن كان الجامع مفتوحـا في هذا الوقت من النهار أم أنه مغلق الأبواب؟ ولا تعرف إن كان المكان المخصص للحريم مفتوحا أم لا؟ لكنهـا ذهبـت والسلام لكي تقرأ الفاتحة وتمسك بيديها بحديد شباكها أو بابها الخارجي .محال أن تدخل حي السيدة زينـب دون أن تسـلم عليها أولاً حتى قبل الذهاب إلى بيت ابنها. ولو ذهبت إلـى بيت ابنها – لا قدر الله ولا كـان – دون المـرور عليهـا ومناجاتها والكلام معها لعدت ذلك فأل شؤم.

كان الباب مغلقًا، كان الوقت بين صلاتين. لم يكـن باب الرحمة مفتوحا. ولم تكن السماء في ساعة إجابة. لمـاذا

يغلقون المساجد؟ أمر غريب. لو كان نجيب في البلد لأتـى معها ولفتحوا لهما الباب. قرأت الفاتحة وترحمت على مـن ماتوا من وراء الباب. ودعت لأولادها وبناتها وأحفادها.

اتجهت إلى بيت ابنها على قدميها، فالبيت قريب من الجامع.

سارت وهي تشعر أنها خفيفة تسبح في الهواء، إنهـا ذاهبة إلى البيت الذي تحبه أكثر من كل البيوت التي يعـيش فيه أبناؤها الآخرون، فضلاً عن أنها زارته من قبل أكثر من مرة.

١٠

.. هذا أجمل مكان يمكن أن تستريح فيه. لكن ابنهـا غائب. وغيابه لا يمنع كل جزء فيه أن يذكرها به. يقول لها: إنه كان هنا ذات يوم. وفعل كذا. ولم يفعل كيت. جلس فـي هذا الركن. وقف في تلك النافذة. نام على السـرير. دخـل الحمام. جلس على السفرة وأكل طعاما. ثم شرب شايا مـن هذا الكوب.

زوجته حامل. حملها الأول. بركة إنها جـاءت مـن الزلزال؛ حتى تزور زوجة ابنها، وتراعيها، وتأخـذ بالهـا منها، وتتابع نمو الجنين في بطنها. قيمـة خلفـة الأولاد أن أولادهم يحملون اسم العائلة ؛حتى يستمر السلسـال وتمتـد العائلة إلى هذا الجيل ويتوقف. أما البنت فإنها قد تحمل وتلد. هي الحوض والوعاء. ولكن الاسم يعود إلـى الأب. نـادر أنجب ولدين وبنتًا. ولكن أبناء نجيـب سيصـبحون حكايـة أخرى أكبر أهمية. الأم غير الأم. والبيـت غيـر البيـت. والتربية غير التربية.

منذ أن بدأ الحمل وهي لا تتصور أن ما فـي بطـن زوجها ابنها إلا ولدا ذكرا يحمل اسم جده، صحيح أن العائلة فيها أطفال آخرون يحملون نفس الاسم. لكن ابن نجيب هـو الولد الذي تتصور أنه سيواصل رحلة جده دون سواه.

دقت جرس الباب. كم مرة عـرض عليهـا ابنهـا وزوجته أن يصنعا لها نسخة من المفتاح؟ وبعد سفره للخارج متغربا، كررت زوجته نفس العرض عليها أكثر مـن مـرة وصنعت لها نسخة من المفتاح مازالت موجودة ومعلقة فـي ظهر الباب، وإن كانت لا تحب أن تأخذها.

تضرب جرس الباب وتسمعه وهي تدرك أنها تلجـأ إلى الجرس لرفضها أخذ المفتاح الذي مازال موجودا وتحت أمرها؛ لأنها تدرك أن لكل بيت خصوصياته. بيت تعيش فيه زوجة ابنها. ربما كان لحظة حضورها المفاجئة أحـد مـن أهلها معها.

ثم إن زوجة ابنها منذ أن بدأت رحلة الحمل وهي لا تذهب إلى عملها إلا في القليل النادر. ما من مرة حضـرت إليها إلا ووجدتها. غابت عنها في الأيام الأخيـرة. وكانـت توالي الاتصال بها كل يوم تقريبا، تطمئن على من في بطنها

أساسا، لكنها من باب الذوق واللياقة كانت تطمئن عليها أولاً. ثم تبدأ السؤال عن الولد العكروت الذي في بطنهـا والـذي تسمع صوت حركاته منذ أن بدأت رحلتها وهي تعرف أنهـا ستبيت الليلة في الواحة، في بيت الحبيـب الغـالي، وعنـد زوجته حتى وإن لم تكمل مشاويرها، في هذا البيت يمكنهـا أن تستريح وتتغدى أو تتعشى ثم تنزل تسـتكمل مشـاويرها وتعود.

وإن كانت متعبة فيمكنها النوم وتكمل المشاوير غـدا صباحا. ربما تحدث المعجزة وتعـود الحيـاة للتليفونـات. وتطمئن على باقي أبنائها من خلال التليفون، أو تطلب منهم الحضور إليها، تفعل أي شيء يعفيها من إكمال المشوار.

شعرت بشفقة وعطف لا حدود لهما علـى الباعـة السريحة الذين قد يتجاوز البعض منهم السبعين من العمـر. يقضون النهار في اللف والدوران والنداء بالصوت الحياني. وربما الصعود بما معهم إلى الأدوار العليـا ؛حتـى يـتمكن الواحد من بيع ما معه. مساكين أشفقت عليهم. أكبر قسوة أن نرفض الشراء منهم. وأن نجري وراء أصحاب المحلات.

دقت جرس الباب مرتين. انفـتح البـاب. أول مـا شاهدته من زوجة ابنها كان بطنها؛ لأنها أول ما برز إليهـا. خُيل إليها أنها تسمع تنفس الجنين. تسمع كثيرا أنـه يمكـن معرفة نوع الجنين بكشف أو خلافه أو بأشعات. ثمة أجهـزة تمكن الإنسان من ذلك. ربما أثرت المواد التي تستخدم فـي معرفة نوع الجنين على الجنين نفسه. ربما خرج مريضا أو مشوها، لا قدر الله، لينتظروا إرادة الله وما يريده لهم حتـى اللحظة الأخيرة، لماذا يحاولون التدخل؟ ويحاولون أن يسبقوا الغيب؟

حتى عصر اليوم، كانت عايدة زوجة القاضي، هـي زوجة الابن الوحيدة التي تعرفها من قبل، منذ سـاعة فقـط عرفت هاجر زوجة نادر. عايدة تناديها بكلمة ماما، وتشـعر بصدقها. قريبة إلى قلبها. منذ زواج ابني منها لم أشعر أنهـا زوجة ابني وأنني حماتها.

بناتي زدن بنتًا أخرى، لم أحمل بها ولم ألدها ولكنها تبقى ابنتي، هكذا كنت أتعامل معها وأستريح لهـا. رفعـت عيني عن بطنها إلى رأسها شـاهدت ولأول مـرة غضـبا يتراقص فوق وجهها.

كانت تقابلني متهللة. تقاطيع وجهها تأخذ شكل وردة أو ورقة شجر. ابتسامتها هي أول ما أراه وآخر ما أودعـه. ابتسامة تنير الوجه ويمتد النـور إلـى المسـاحة المحيطـة بالوجه.

ثمة توتر ما. غضب مكتوم يطل من ملامح وجههـا الذي لم يطل منه من قبل سوى النور. كانت تتحرك بتثاقل. تسند ظهرها بيدها كما تفعل كل الحوامل. وتتحرك بصعوبة. وتنطق بصعوبة أكثر. وترحيبها تسلل إليه بعض الفتور الذي لم يكن موجودا من قبل.

سلمت ودخلت. لاحظت أن زوجة ابني، التي هي في مقام ابنتي، لم تقُبل يدي ولم تقُبل وجنتي. كان السلام عاديا. وأنا أخطو على الصالة. في الشقة التي أعرف كل شبر فيها. الشقة التي اشتركت في تأثيثها وبياضها ودهانهـا وسـباكتها وكهربتها ونجارتها وتبليطها. الشقة التي أعرفها كما أعرف كف يدي. سألت زوجة ابني: هل حدث شيء لنجيب، الشـر بره وبعيد؟

ربما يكون هناك ما لا تعرفه. ردت بكلمة واحـدة: بخير. قالت بعد فترة: بخير يا نينة. توقفـت أمـام الكلمـة،

استبدلت ماما بنينة، الفارق بين الكلمتين ليس كبيرا، المشكلة تكمن في السياق في مجمل ما جرى وما حصـل، وهـو أن هدوء البيت قد تعكر. سألتها سؤالاً ثانيـا بلهجـة محـددة: الزلزال أصاب شقتك؟! قالت باقتضاب: لا.

ليست هذه عادة ابنتي عايدة. زوجة ابني. التي كانت فيها عيوب أشكو منها وهي الثرثرة. أنظر إليها علـى أنهـا ثرثارة. تحب الكلام في الفاضية والمليانة وتكثر من طـرح الأسئلة، بين السؤال والسؤال سؤال، لو أحصيت عدد الأسئلة التي تطرحها في لقاء واحد لتعدت المائة، تحكي لماما بمجرد وصولي كل ما جرى لها وحدث عندها، منذ تركي لها وحتى عودتي إليها بالثانية والدقيقة والساعة واليوم والليلة والأسبوع والشهر.

تحكي كل ما جرى، كما لو كانت قد رتبت الأمـور في ذهنها من أجل حكايتها لي. ربما كانت تنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر من أجل أن تحكي لماما جميع ما حصل.

ثمة أشياء لم تكن تقولها عادة لنجيب عنـدما كـان موجودا في مصر، ولا تستطيع أن تكتبها له في الرسـائل، بعد أن تغرب وأصبح مقضيا عليه بوجع البعاد.

أمور لا تقولها امرأة إلا لامرأة، ولا تحكيها إلا ابنة لأم. أشياء حميمة داخلية وخاصة، بل وشديدة الخصوصية.

كانت زوجة ابني تجد سعادة وهـي تحكيهـا لـي، وتقولها على مسمع مني، وتستفيض في الكلام عنهـا. هـذه المرة كانت مقتضبة الكلمات تحكي ما عندها بكلمة أو كلمتين وتنهي الأمر. كأنها تهرب من الاسترسال في الكـلام، ثمـة شيء ما تحاول أن تخفيه عني ولا بد من معرفته.

دخلت، خلعت الطرحة السـوداء التـي أداري بهـا شعري، وقلعت البالطو الأسـود وعلقتـه علـى الشـماعة. ووضعت الشنطة. وأخرجت قدمي من الحذاء وسلت منهمـا الجوربين. وبقي الدور على الحمام دخلته كما لو كنت أدخل حمام بيتي الذي في البلد لم أستأذن، وزوجة ابني لـم تعـزم علي.

ما قلت لها ماذا أنوي أن أفعل. فهذا البيـت بيتـي. أشعر أنه امتداد للبيت الذي في البلد والبيت الذي في المنيل. جزء منهما أو هما جزء منه.

عندما سافر نجيب عرض علي الانتقال لكي أعـيش مع عايدة اعتذرت .تحايل علي. عرض الأمر أكثر من مرة. ليست حكاية عزومة مراكبية، نجيب لا يفعل هذا. لـو لـم أخرج من الدنيا سوى به لقلت إنه يكفي وزيادة.

شرح لي مزايا قبولي لطلبه قال لي: سيكون مطمئنًا علي وعلى عايدة وعلى ما في بطنها لكن الأهـم أن نجيـب كان يحب الونس واللمة واجتماع الشمل، ولم يكن يحـب أن يتركني في ناحية وعايدة في الناحية الأخرى.

قال إن وجودنا معا سيخفف عنه غربته، ويجعله كما لو كان معنا في البلد، لا تفصله عنا بلاد وبحور. لـم يكـن نجيب مستريحا لفكرة لم تقلها عايدة . أن تحضر واحدة مـن أهلها لكي تعيش معها كان كل همه أن أكون معها.

أخذت على حياة البلد وعلى هدوء الريف. تعـودت على الوحدة أقول"وحدانية" بعض الصبيان والبنات يقولـون عن حالتي إنها عزلة. لم أكن أشكو. وحدة أم عزلة؟ الأمـر سيان، وأنا سعيدة بها، وحزينة أنني لم أكتشف الطريق إليها من قبل. لم أكن أشعر أن ثمة شيء غريب أمر به أو أعاني منه ويسبب لي مشكلة ما.

تعودت على الكلام مع نفسي ومناجاة روحـي فـي البلد. يقولون: إن الوحدة تورث الجنون. الوحيـد مجنـون. هكذا يقولون. كلام فاضي. الوحدة اكتشاف توصلت له بعـد كل هذه السنوات. بعد أن أصبحت ممكنة وكانت قبـل ذلـك مستحيلة.

أسلي نفسي بما يمكن أن يسليها. أقمت صلة معي من نوع فريد. فزعت من عرضه الذي يفرض علي أن أهدم ما بنيته وأعود إلى مصر التي ما صدقت أنني هربت منها.

رفضت لإدراكي أنها ستكون عودة عابرة، وأنـا لا أحب كثرة الانتقالات، نجيب لن يغيب عن زوجتـه كثيـرا أعرف ابني. ليس ابن سكك وسرعان ما سيعود إلـى بيتـه. ربما كان الولد يتخابث علي من أجل البقاء عنده على طول، سواء أكان مسافرا أم يعيش هنا. أعيش معه والسلام. حتـى أكون تحت جناحه وأنا لا أحب هذا. ولا أستريح له.

ثم سيأتي طفل. فوق رأسه طفلة، هـذا مـا أتمنـاه لابني، المثل يقول: من أسعده زمانه أعطاه البنت بعد الولد. أن يكون بكريه ولدا يحمل اسم أبيه، وبعده تكـون البنـت، المهم أن يكون الترتيب هكذا، ثـم يمتلـئ البيـت بـالأولاد

والبنات بعد ذلك وإن كنت أشك أن هذا الجيل يمكن أن يكون لديه أكثر من ولد وبنت هذا أقصى ما يقدرون عليه.

خرجت من الحمام، بعـد أن اغتسـلت وتوضـأت، بحثت عن السجادة، وجدتها، وإن كان مكانها قد تغير، لهـا مكان ثابت، وراء باب غرفـة النـوم، كانـت وراء بـاب الصالون ما معنى هذا؟ هل معناه أن عايدة لا تصلي؟ مع أن الصلاة لا تؤثر على حملها، أم أنها تصلي في الصالون بدلاً من غرفة النوم، أم أنها هجرت غرفـة النـوم وتنـام فـي الصالون؟ متغيرات كثيرة يا عايدة طرأت على حياتك فـي هذه الفترة التي غبتها عنك، لعل الذي دفعك إليها أن يكـون خيرا.

نقلت المصلية من الصالون، إلى غرفة النوم. هكـذا تعودت، وإن غيرت أي عادة من عاداتي، لن أشعر أنني في بيت ابني، لا بد وأن يبقى الحال على ما هو عليه. أي تغيير في غيابه جريمة، ليعد أولاً، ثم يغير ما شاء له التغيير.

لم أسأل عايدة عن سبب نقل السجادة، مـن غرفـة نومها إلى غرفة الضيوف، التي تضم غرفة المسـافرين. إن جاء ضيوف كثيرون. الأسئلة تزرع الشـك مكـان اليقـين،

وعايدة من نفسها لم تعلق على نقل المصلية من الصالون إلى غرفة النوم، وجود المصلية في غرفة النوم يطرح البركة في الخلفة يجعلها نباتًا صالحا.

صليت ما فاتني، صليت العصر، وصليت المغرب. ولم يكن العشاء قد حان بعد، سأظل بوضوئي، لـن أنقضـه حتى أصلي العشاء حاضرا،عندما يحين موعـده سـأعرف بسهولة من الميكروفونات الموجودة في كل مكان، ويصـل صوتها لمن يسكن تحت سابع أرض، أينما كان الإنسان فـي هذه المدينة المهولة، لا بد وأن يدركه صوت الآذان، يصـل إليه حتى أو كان في سابع نومة.

وأنا أصلي، وأنا أتلو الفاتحة والآية، كنت مشـغولة على عايدة، ماذا جرى لها؟ كنت أبحث في عقل بـالي عـن إجابة أو عن طريقة أسألها بها عما أصابها دون أن أحرجها، ولا يأخذ الأمر شـكل الاسـتجواب، والسـؤال والجـواب، والتحقيق والتفتيش في ضميرها.

كان أجمل شيء ورد في خاطري، وفكرت فيه، لـو أن عايدة تكلمت من نفسها، لو أعفتني من مشـقة السـؤال، واللف والدوران حتى لا يبدو سؤالاً، لو حكت وفضفضـت،

إذن ستعود إلى الجو القديم، والصلة التي لـم تعـد قائمـة، والعلاقة الصافية التي ربطتني بها منذ زواجها من نجيب ولم نكن فيها زوجة ابن ولا حماة، ولكن أم وابنتها. لو تكلمـت، لزالت الحواجز الطارئة، ولانهـارت الجـدران المفاجئـة، ولسمعت منها، وربما انتهت المشكلة.

كنت أتصور أن الأمر عابر، ربما فزعت عايدة من مجئ الزلزال، وزوجها وأهل زوجها وأهلها بعيدون عنهـا، وحدانية، وما في بطنها مجرد جنـين لا يمكـن أن يـؤنس وحشتها، حتى لو رفسها في بطنها بقدمه، أو قدميه، أو يـده أو يديه لو وأوأ ومأمأ. فإنه لا يشكل ونسا لها.

جلست، استرحت، دخلت المطبخ، أعد طعاما لـي، اكتشفت وأنا واقفة في المطبخ، إن عايدة لـم تعـزم علـي، تغاضيت عن ذلك، ربما تعاملت معي باعتباري صاحبة بيت، وهل يعزم على الإنسان في بيته؟

وأنا في المطبخ، أطلت الحيرة من جديد، ماذا جرى لها بالضبط؟! آه ماذا جرى لعقلي؟ لن يصدقني أحد عنـدما أقول إن موضوع المفعوصة التي اتصلت بـي فـي البلـد، وقالت إنها تحب نجيب وإن نجيب يحبها، قـد سـقط مـن

ذاكرتي في يوم الهول الأعظم، فسألت نفسـي: هـل هنـاك علاقة بين الأمرين؟ كيف أتصرف؟ ليتني ما تذكرت. المهم ألا يبدو علي أنني أعرف، إن كان هذا الموضوع هو السبب، لا بد وأن أسمع منها أولاً، معرفتي تجعلنـي شـريكة فـي نظرها، بالنسبة لي، المعرفة ليست مهمة، المهم والأهم مـاذا فعلت بعد أن عرفت؟ ربما كان الموضوع مختلفًا.

قمت بإعداد لقمة خفيفة، وكوبا من الشاي، لم أشرب شايا منذ خروجي من البلد، أنا لست شريبة شاي ولا أطيـق القهوة، لكن عدم شرب الشاي لفت نظـري بعـد المشـوار الطويل، الذي هد حيلي. سألت عايدة، وأنا أقف في المطبخ، إن كنت أعمل حسابها في الأكل ولكن البنت شكرتني بجملة مؤدبة.

أحضرت صينية صغيرة، وضـعت عليهـا اللقمـة الخفيفة وكوب الشاي، وجلست في الصالة وأمـامي عايـدة تتوسط المسافة بيني وبينها الصينية وما عليها. صحيح البيت بيتي والدار داري، وأنني أعد طعامي لنفسي أحيانًا، ولكـن هذا يحدث عندما لا أحب أن أتعب عايدة، كانت هـي التـي تنادي علي، وتصر وتحلف الأيمانات. تريد أن تعمـل لـي

الطعام والشاي، وأصر أنا وأقول، إنني لو لم أعد ما سأتناوله بيدي فلن آكل شيئًا، أقول إنني لم أعجز يعد، حتى يعد لـي طعامي أحد غيري.

تجلس مكرهة وغاضبة من إصراري. هذه المرة لم تعزم، لم تقل إن المطبخ فيه كل شيء، لم تسألني إن كنـت جوعانة أم لا، أقطع ذراعي من لغلوغه إن في الأمور أمور. بدأت أتناول طعامي، وأنا في حقيقة الأمر أنتظر حتى تبـدأ هي الكلام، ولكن البنت لم تنطق ولم تقل لي كلمة واحدة.

حاولت أن أبدو أمامها مشغولة بطعامي وشرابي. لم أنظر ناحيتها، بالنسبة لمن تعاني من مشكلة أكثر ما يؤلمهـا هو نظرات الآخرين، النظرة تصبح إبرة، والعين تتحول إلى ضوء متلصص على الأعماق إن الجحيم هو أعين الآخرين، وإن كنت لست آخرا. عايدة قطعة مني.

عايدة زوجة نجيب، كانت في الثالثة والعشرين مـن عمرها، طويلة، سرحة، بنية الشعر، يبدو أنها لم تعان ولـم تهن ولم تتألم طوال حياتها، كانت تبدو سعيدة فـي حياتهـا، قانعة بها، يبدو أن الحياة قدمت لها الكثير، وهي من جانبهـا قررت أن ترد الجميل لها، لم يكن جمالها صارخًا، ومع هذا

كان وجهها مريحا، كل من يراها يشعر أنه يعرفها منذ فترة طويلة. كانت عايدة محامية، تقول عـن نفسـها ضـاحكة، القضاء الواقف، قوية الشخصية، متحدثة لبقة. تزين كلامهـا بأرقام القوانين والعقوبات والمواد واللوائح، وتتحـدث عـن الحقوق والواجبات، كانت عاطفتها قوية، وإن كان عقلها لـه الكلمة العليا. امرأة تمتلك كل ما تحتاجه، ماذا يملك ابني أن يقدم لها، مادامت لا تحتاج شيئًا؟

كنت أخشى على ابني منها في البداية، مثل هـؤلاء النساء تكون لهن نزوات قاتلة في بعض الأحيان، كان ابنـي متعلقًا بالمثل العليا. شاب مستقيم. يقولون عنه من البيت إلى الجامع، ومن الجامع إلى الجامعة، ومن الجامعة إلى البيـت، تعرف عليها على مقاعد كلية الحقوق، فاتحني في الأمر وهو لا يزال طالبا، قلت نزوة وتمضي، وكم في هذه المرحلة من النزوات، ما إن يصبح وكيلاً للنيابة، ثم قاضيا حتى ينسـى الحكاية ويتفرغ لمستقبله الذي كان حلم والده، الذي لم يتمكن من تحقيقه في حياته، وحلم أن يقوم أحد أبنائه بتحقيق ما لـم يستطع هو أن يفعله.

كان والده يؤمن أن العدالة هي أساس الحكـم، كـان يقول في الليالي الطويلة، يا سلام على القاضي لو حافظ على نزاهته، لقد قالوا كاد المعلم أن يكون رسولاً وأنا أكمل، كـاد القاضي أن يكون رسولاً، بل إن القاضـي رسـول فعـلاً، رسالته مهمة.

عندما عاد نجيب يتحدث عنها، لمحت فـي كلامـه معنى ضمن لي فركشة الحكاية، قال إنه يفصله عنها ثـلاث سنوات دراسية، هو في السنة النهائية، وهـي فـي السـنة الأولى، قلت أيام ويفترقان.

لكنه عاد يتكلم لثالث مرة، قلت لم توقف طويلاً عند هذه بالذات؟ شكوت لجارتي فطمأنتني قالت كل بنـات هـذه الأيام كسالى، تبحث الواحدة عمن يسـاعدها فـي تعليمهـا، يذاكر لها يكتب المحاضرات بدلاً عنها، والأمر لا يزيد على ذلك.

نظرت حولي، نفس الشقة ولكـن ظلمـة مـا بعـد الغروب وما قبل مجيء الليل المؤكد تنتشر فيها، وثمة جـو مكهرب أو توتر مكتوم يمكن أن تسمعه حتى فـي الصـمت الذي يفرض نفسه على الشقة، وإن كان البيت كالعهد به دافئ

مثل القلب، لا يقلل من عطر دفئه سوى ذلك الزئير المكتوم، في زياراتي السابقة، كان بيت ابني يبدو لي كعقد من الماس يتأرجح فوق أجمل صدر في الدنيا كلها.

أثناء تناولي الطعام، نظرت خطأ إليها، ذهبت عيناي إلى حيث تجلس غصب عني، فوجئت، كانت دموعها علـى خديها، توقفت عن المضغ بصورة آلية، وقفت اللقمـة فـي زوري، خبطت صدري، سألتها: ماذا جرى يا ابنتي؟! لم ترد علي.

سألتها من جديد نفس الأسئلة التي سألتها إياها مـن قبل، إن كان نجيب قد جرى له شيء؟ فنفـت، وإن كانـت الشقة قد أصيبت من الزلزال؟ فنفت، إن كان أهلها قد وقـع لهم مكروه؟ فنفت، إن كان الجنين في بطنهـا قـد أصـيب برعب لحظة الزلزال؟ فنفت .إذن ما هي الحكاية؟ طمنينـي يطمئنك الله يا ابنتي؟

حاولت إخفاء قلقي بقدر الإمكان؛ حتى لا تنتقل إليها عدوى القلق،وهي مطلوب أن تكون بعيدة عن أي توترات أو مشاكل، قالت لي بعد فترة من الإلحاح من جـانبي. وعـدم الرغبة في الكلام من جانبها:

- نجيب.

صحت من عزم ما بي:

- ماله؟

ردت علي:

- بيحب.

رددت على سؤالها بسؤال:

- يحب من؟!

استدركت قائلة:

- من الطبيعي أنه يحبك ويحبني ويحـب إخوتـه ويحب ابنه الذي في بطنك، ويحب زملاءه فـي العمل، وزملاءه الذين تركهم، وأصدقاءه القدامى في مصر، وأصدقاءه الجدد وجيرانه فـي بيـت الغربة الذي يعيش فيه، ومـن يتعـاملون معـه بالحسنى، وقبل كل هذا وبعده يحب وطنه الغالي

الذي أرضعته حبه مع لبني، عندما كان طفـلا، هل يملك نجيب غير الحب؟

قالت لي:

- لا أقصد هذا الحب.

وبعد فترة من الصمت:

- لكن.
- لكن ماذا قولي بسرعة، قدري ظروفي، أبنـائي كثيرون، لكن الذي أعتز به واعتبره ابني فعلا، هو نجيب.

اختصرت عايدة الطريق بدأت مـن الآخـر، آخـر الحكاية.

- قالت لي:
- في حياته امرأة أخرى.

قمت وجلست. عفت الطعام الذي أمـامي، طـارت رغبتي في شرب الشاي، حتى الصلاة، سـمعت الأذان مـن أكثر من ميكرفون، ولم أشعر برغبة فـي صـلاة العشـاء حاضرة، قلت أصليها قضاء فيما بعد.

مستحيل أن يكذب نجيب على فهو لم يكذب من قبل. أخفى عني ما تقوله عايدة، وما ذكرته البنت المتقصـعة إن كان صحيحا، ولكن: هل يعتبر الإخفاء كذبا؟

امرأة أخرى: كيف؟ ومتى؟ وأين؟!

ثم والأهم. إن فرضنا أن هناك امرأة أخرى، فكيـف عرفت التي أمامي؟ ربما كان في الأمر ملعوب، مستحيل أن يفعل نجيب هذا، ولم مستحيل؟ أليس رجلاً؟ أليس من حقـه مثنى وثلاث ورباع؟ قالت امرأة في حياته، ولكن الأمر لـم يصل إلى حدود الزواج، لماذا التسرع؟ لمـاذا أتعامـل مـع الأمر كما لو كان قد حدث فعلاً؟

سألتها:

- أي امرأة؟

قالت عايدة باختصار، وبنطق بطيء:

- امرأة أخرى عرفتها.

كان الأمر صعبا، ربما كان الكلام، مجرد الكـلام. يسبب ألما لا يطاق، ولكني اعتبرت أن الكلام يوفر لها حالة من التنفيس.

سألتها:

- عرفتها؟

تراجعت:

- عرفت رقم تليفونها، وعملها وعنوانها، عنـدي كل البيانات.

سألتها وأنا أحاول إبعاد الكارثة:

- هل أنت متأكدة؟

قالت:

- كما أنا متأكدة إن حضرتك تجلسين أمامي الآن.

سألتها:

- وإلى أين وصل الأمر بينهما؟

قالت:

- هذا ما لا أعرفه.

تساءلت: وهل يمكن أن يصل الأمر إلى ما هو أبعد من تعارف عابر؟ لم ترد على، قلت لها وأنا أحاول أن أخفف من وقع المسألة:

- الغربة لها أحكام، من ليس معنا حجته معه، التي قد لا نعرفها.

قالت لي:

- إن المرأة الأخرى تعيش في مصر.

المشاكل التي تعرضت لها كوم. وهذه كوم آخر. كان كل جهدي ألا أبدو كما لو كنت أعرف، عندما قالت عايدة إن معها تليفون المرأة الأخرى، رمشت عيناي، ربما كان نفـس التليفون الذي معي، الذي كانت البنت المفعوصة حريصـة على إعطائه لي.

هل أستطيع أن أمثل؟ القصة تبدو كما لو كانت لغزا من الألغاز؟ أو حكاية من حكايات ألف ليلة وليلـة؟ مسـألة يطول شرحها. تهت مع الكلمات، أو حاولت أن أبدو هكـذا، امرأة أخرى في حياته هناك، من الطبيعي أن تكـون معـه امرأة بعيدة عن زوجته، وبعده يدفعه إليها.

الغريب والمثير أن المرأة هنا في مصر، وهو في الغربة، كيف وقع الأمر؟ قصة متداخلة معقدة، متشابكة الأطراف، لا بد وأن في الأمر خطأً ما، سأحاول الوصول إليه.

سألتها: هل أنت متأكدة مما تقولينه؟

ردت على:

- مليون في المائة.

سألتها:

- وكيف عرفت؟

قالت:

- هذا ما سأقوله لحضرتك، ولكن بعدين

كنت كالغريق الذي يتعلق ولو بقشاية.

سألت: وما الدليل على ما تقولين؟

قالت لي:

- هذا هو رقم تليفونها في مصر

كتبت الرقم في ورقة وأعطته لي.

كيف أطابق الرقمين على بعضهما، دون أن تكتشف عايدة أنني أفعل هذا؟ أخذت الرقم منها، وضعته فـي قلـب النوتة التي أدون بها كل ما أحب الاحتفاظ به، فيها الكثير من العناوين وأرقام التليفونات بما فيها رقم تليفون خرابة البيوت. هذه النوتة هي كل ذاكرتي التي أحملها معي أينمـا سـرت، وإلى أي مكان اتجهت، لا أتركها. وضعت الورقة في قلـب النوتة، أجلت تدوين الرقم في النوتة، بعـد المطابقـة بـين الرقمين إلى ما بعد.

وضعت يدي على خدي، لو كنت في الحديقة التـي أمام بيتي، لأحضرت عودا نكشت به التراب، أو لذهبت إلى المنَجم لكي يقرأ لي الطالع، أو لانتظرت الغجرية التي تمـر علي، وتضرب الودع، وتوشوش الدكر، وتقـرأ مـا يقولـه الغيب خاصة طالع ابني.

كلما حاولت التعرف على مصيره، لم يقل لي أحـد أنه ستكون في حياته أكثر من امرأة، شكله لا يوحي بـذلك. كل ما فيه يؤكد أن الطريق المستقيم هو أقصر مسافة بين أي نقطتين.

سألتها:

- هل تخانقتما؟

قالت: لا.

- هل حدث زعل بينكما؟

قالت: لا

- هل استفضت في الكلام عن مشاكلك؟

قالت: لا، المكالمات على حسابه ومـن السـنترال، ويتكلم أو أتكلم في أضيق الحدود، ولا تخرج المكالمات عن السؤال عن الصحة والحال والاطمئنان على ولي العهد.

كانت تشعر بالغيرة من لهفته في الاطمئنان على مـا في بطنها. عن ابنهما القادم أكثر من رغبته في الاطمئنـان عليها هي؛ ولهذا ما إن شعرت بهذا الذي يجري حولها حتى انهارت.

عدت أسألها:

- تعرفينها؟
- لا.

كنت أحاول شراء الوقت بالأسئلة.

سألت:

- توجد معرفة مشتركة بينك وبينها؟

قالت: نعم.

كان السؤال الذي يلح على ويسبق غيره من الأسئلة:

- كيف عرفت ما عرفت؟

وكان هذا هو السؤال الوحيد الذي لم ترغب عايـدة في الإجابة عنه، رغم إلحاحي في طرحه وعودتي إليه.

كنت ألف حول الأمر مـن بعيـد، وأدور، وأسـأل وأتساءل. وعايدة احتمت بصمتها،لكن بكاءها - وهي شحيحة الدموع - أكد لي أن ثمة مشكلة ضخمة.

كنت أقول عن زوجة ابني، إنها دخلت مباراة معـه، في العقل والحكمة والرزانة، هو عاقل وهي عاقلة، هو طيب وهي طيبة، وأثناء الاستعداد للزواج، سمعت أحدهم يقول: إن البيوت السعيدة تقوم على صفات متناقضـة عنـد الـزوج والزوجة، فإن كان الزوج يميل إلى الحركة، فمن الأفضل أن

تكون الزوجة ميالة بطبعها إلى السكون. وإلا تحول البيـت إلى ماتش كورة، أو إلى ملعب أو استاد، وإن كـان الـزوج بخيلاً، فيستحسن أن تكون هي مسرفة، وإلا تحول البيت إلى بيت يهودي، لكن توافق صفات عايدة ونجيـب لـم يفسـد حياتهما معا.

جلست أحاول أن أتذكر متى بدأت المصـيبة، التـي تهدد البيت الوحيد الذي يعنيني استمراره واستقراره؟ كيـف أخفى نجيب الأمر عني؟ ابني الذي كنت أقول عن صفاته ما لم يقله أحد عن صفات أحد، كيف استطاع الاحتفـاظ بسـره بعيدا عنها وعني؟ مع أنه ليست له أسرار أمامي، إنه إنسان مغسول من الأسرار.

نجيب هو الوحيد من بين أبنائي الذي يمكن أن أجلس معه صامتة، يوما كاملاً. لا أنطلق بكلمـة. وأشـعر أننـي متفاهمة معه كل ما يعن لـه ولـي، مـن أفكـار وقضـايا وحكايات.

استغرقت محروسة في تفكيرها، هل تقضي الليلة هنا أم تقوم وتذهب وتكمل مشوارها، ثم تعود؟ وإن قضت الوقت

كله هنا. ماذا ستقول لهذه المسـكينة المظلومـة؟ علـى ألا أتسرع، ربما كانت ظالمة، ربما كان المسكين هو ابني.

هل لو تركت البنت أكون قد هربت، وتركتهـا فـي مواجهة مشكلة، حادة وعويضة هل هذا وقته يا سي نجيـب وزوجتك حامل في أشهرها الأخيرة؟ تعكـنن عليهـا بهـذه الحكايات الغريبة، ربما لا يخرج الأمر عن كونـه تفـاريح شباب، فهو رغم أنه شال المسئولية مبكرا، لا يزال في أول أيامه، وفي صدر شبابه، ومن حقه أن يعبث عبثًا بريئًا، وأن يلهو لهوا لطيفًا.

لكن الذي ليس من حقه هو إساءة اختيـار الوقـت الذي يفعل فيه ذلك، لم يكن هذا هو الوقت المناسب، لأن يقدِم على هذا العبث الصبياني، كان عليه أن يؤجله إلى ما بعـد الولادة.

لم اخترت هذا الوقت بالذات يا نجيب؟ ومـا زالـت أمامك في العمر بقية وأوقات كثيرة؟! كنت أردد الكلام بـين وبين نفسي، وإن كنت أحاول إقناع نفسي بالشك فيما قالتـه عايدة لا بد من مطابقة التليفونين أولاً. ثم إن نجيـب غيـر موجود في مصر فكيف أنشأ قصة الحب رغم سفره وبعاده؟

إن كان الأمر صحيحا، لا بد من وجود موقف يمكن أن يؤدي إلى الحكاية، ثمة خطأ، ثمة خلل، ثمة نقاط ضائعة في الوسط مواقف ناقصة في الحدوتة، لا بد من معرفتهـا، ولكن ممن؟ هل يعقل أن إخوته يعرفون ما تقوله عايدة؟ من الصعب أن يكونوا على علم، وإن لم يكونوا يعرفـون فمـن الذي يعرف؟! هل كان يتصل بخطافة الرجالة – قبل سـفره من مصر – من بيته؟! وألا يعد الاتصال خيانـة لزوجتـه، وللمعاني الجميلة التي تمثلها في حياته؟

احترت. شعرت بضيق. اتجهت إلى التليفون. وجدت حاله مثل حالة التليفونات منذ ظهر هذا اليوم، قطعـة مـن البلاستيك.. فقد حرارته. علي إكمـال المشـوار الصـعب، فكرت في التخلص من بعض الملابس الثقيلة التي تلازمنـي صيفًا وشتاء وفي الاعتدالين. أصبحت جزءا من شخصـيتي تعود الناس على رؤيتي هكذا، مغطاة بطبقات من الملابـس كان المرحوم يقول لي. إن ما يمنع الحر هو ما يمنع البـرد، اكتشفت أن الليل قد يجعلني في احتياج لها. غطاء الرأس في الليل ضرورة. والبالطو مع أي مفاجآت برد ليلية أصـبح لا بد منه. وحقيبة يدي لا أستطيع المشي بدونها.

قلت لعايدة. دون أن اقسم إنني سأعود لهـا، النـاس تقسم عندما تعرف أنها لا تنوي تنفيذ ما تقسم عليه، كان مـا بيني وبين عايدة نصف وداع، لم أقل لها كلمة واحـدة، لـم أطمئن خاطرها، وأريح بالها، سلمت وتركتها ومضيت.

لست متأكدة إن كنت سـأعود أم لا. ألا يقولـون إن اللقاء نصيب. ماذا يفيد تدبيرنا نحن البشر المسـاكين حتـى نصمم على لقاء؟ أو نتواعد؟ الأمر عبارة عن نَفَس قد يخرج ولا يدخل جسم الإنسان. رمشة عين تتم في أقل من البرهـة وأصغر من الثانية، عدت ألوم نجيب على ما فعله، لم يكـن لدي يقين. ولكن مجرد ما سمعته يبرر اللوم.

يا كسوفي المرة الوحيدة التي أحضر فيها إلى هـذه البنت، ووجدتها في محنة، وهي البنـت الجدعـة المجـدع. هربت منها. عمرها ما ردت سائلاً أو تقاعست عن الوقوف مع محتاج، كنا نقول عنها رجلاً، وكانت تـرفض الكـلام. تقول: إن البنت يمكن أن تكون جدعة، دون الحاجـة للقـول عنها إنها رجل.

كيف طاوعتني نفسي علـى تركهـا؟ والهـروب؟ والمشي والرحيل؟ مع أنها كانت في أمس الحاجة إلـى مـن

يقضي معها الليل. الزوج الغائب. والزلـزال الـذي يعـاود مجيئه، والمرأة التي تحاول خطف رجلها. وقبل هـذا كلـه وبعده، الحمل الذي في بطنها، أمانة العائلة عندها.

تركتها لوحدها؟ في حالتها، الوحدة نصف الطريـق إلى الجنون، لماذا لم أعرض عليها أن تكمل معي المشوار؟ الحركة فيها بركة، الحركة هروب مـن مواجهـة الـنفس. والنفس أمارة بالسوء، خاصة في مثل هذه الأحوال قد تـأمر النفس بما هو أكثر من السوء. وأبعد من المشاكل.

صحيح أن بطنها أمامها مترين، ولكـن أي تحـرك أفضل لها من البقاء بين أربعة جدران، وتحت سـقف فوقـه الكثير من الأدوار، تكتم على نفس الإنسان. ماذا يمكـن أن تفعل عايدة حتى الصباح؟ هل تملك أكثر من أن تأكـل فـي نفسها؟ وتنكت في روحها إلى أن أعود إليها؟ هذا إن تمكنت من العودة.

كان يجب أن أكون أكثر صراحة معها، لا أعطيهـا ظهري، وأهرب منها بهذه الطريقة الغريبة، فـي المـرات السابقة، لم تكن في حاجة لبقائي؛ لأنها لم تكن تعاني من أي مشكلة، كانت سعيدة، منطلقة، تمشي في الشقة كأنها تحلـق

بين السحاب. تتكلم كما لو كانت تغني. تضحك فتكركر الدنيا من حولها.

هذه المرة كانت تستعد لدخول نفق حزنها المظلم، ما كان يجب علي أن اتركها، وأن أتخلى عنها. كان علي البقاء معها مهما كانت الظروف، خاصة إن المشوار الذي تركتها من أجله ليس مهما، ماذا سيحدث للآخرين لو لم أمر عليهم؟

المكان الوحيد الذي كانت زيارته فرض عين علي هو شقة ابنتي المتغربة. الباقون يشيلون أنفسهم، يحملون همومهم، يعتمدون على أنفسهم، ليفترضوا إن أمهم ليست على وش الدنيا، أو أنهم بدون أم أصلاً.

إلى متى سأظل أحملهم على أكتافي التي تعبت من كثرة الحمل وطوال سنواته؟ كل حمل لا يتعدى تسعة أشهر، وقد تكون المدة أقل. ولكني ولدتهم ومازلت حاملاً بهم. ولدت كل واحد منهم بمفرده. ومازالوا يتجمعون بداخلي، وعلي أن أستمر في حملهم، ما دامت لي في الحياة بقية. إلى متى يا ربي أخبئهم في حبة قلبي، من الآتي والمجهول والذي لا نعرفه ونخافه؟

يا كسوفي يا ندامتي.

توقفت في الشارع، وفكرت في العودة إليهـا، لكـن عندما قلبت الأمر في خاطري. اكتشفت أن العودة أصـعب من الاستمرار. إن عدت ماذا سأقول لهـا؟ كيـف سأشـرح موقفي؟ وبأي لسان سأحكي الحكاية؟ وأتكلـم معهـا دون أن أحرجها. أو أن أشعرها أنها كانت في أمس الحاجة إلي؟

إن عدت إليها. أكون بذلك قد فضلتها على الذين لـم أطمئن عليهم، مع أنهم من لحمي ودمي، وهل تصبح الـدماء ماء؟ مهما جرى بين الناس من المحن والإحن؟

لا أحب مصمصة الشفاه حسرةً على الذين يقعون في المشاكل. وأهرب من نظرات الإشفاق على المساكين. أعتبر ذلك تحقيرا لمن نشفق عليهم. وتقليلاً لشأنهم، وإشعارهم أننا نتفضل عليهم، وأنهم في أمس الحاجة إلينا.

لو عدت. ستصبح عودتي إعادة فتح الجرح الذي لم يلتئم. وقد تخرج منه المِدة والقيح والدم الفاسد والديدان التي ربما كانت ميتة. لا يجب علي العودة ما لم يكن لدي كـلام جديد أقوله عن حكاية المرأة التي تحاول خطـف زوجهـا.

وربما تكون نجحت في خطف نجيب وأوصلتها إلى حالتهـا هذه.

المهم أن تخرج عايدة من البئر الذي سـقطت فيـه. حتى لا تنتقل عدوى الحزن والاكتئاب إلى الذي في بطنهـا؛ فتخسر الآن ولا تربح المستقبل، أخسرها وأخسـر حفيـدي. الذي سيكون حفيدي حقًا، ويعود ابني من غربته، فلا يجدها، ولا يجد ابنه الذي تغرب من أجل أن يورثه مستقبلاً أفضل. حتى يحقق له ما كان يتمنى أن يحققه لنفسه.

***

لحظة خروجها من شقة وحيد قلبها، لاحظت غيـاب أحلى ما كانت تشاهده في صالة الشقة، فتشاءمت، كيف فاتها ملاحظة غياب سلة كبيرة مملوءة بفاكهة الموسم؟ أول مـرة شاهدتها تصورت أنها فاكهة صناعية. عندما اقتربت منهـا اكتشفت أنها فاكهة طبيعية.

ومهما مر الوقت. وجرى الزمان. ما إن تدخل بيـت نجيب وعايدة. حتى تخطف عينيها سلة الفاكهة، التي تبـدو

من بعيد كما لو كانت حديقة من الزهور، تملأ المكان بروائح جميلة. هي روائح الفاكهة الحية. التي تم شراؤها صباحا.

فاكهة؟ نعم. ولكنها تصبح عنوان خير، ودليل حياة. وأهم من الفاكهة. الطريقة التي كانت زوجة ابنها ترتبها بها. فاكهة بالألوان الطبيعية. وروائحها تعطـر المكـان. طـول عمرها تحب أكل الفاكهة. وهي التي علمت أولادهـا هـذه العادة. لكنها كانت تشبع في كل مرة مـن مجـرد المنظـر والروائح التي تشمها.

كانت أسعد لحظة تقضيها في بيت ابنها نجيب عندما تجلس وحدها. تتحسس الفاكهة، تحضر لها عايـدة السـكين والطبق والفوطة والماء الدافئ وماء الشرب.

كانت تنفر من السكين. تقول لو كان ممكنًـا تقطيـع الفاكهة دون استخدام السكين. الذي يذكرها منظره بالـدماء الحمراء. طول عمرها ما استخدمته في تقطيع الفاكهة. تقول إنه لو كانت في بطنها أي مساحة خالية لأكلت فاكهة. بعـد قليل تكتشف أنها شبعت من المنظر. فمنظر الفاكهـة يـرد الروح. تقرب الفاكهة من أنفها وتشمها. ما إن خطت الخطوة الأولى، ونظرت إلى المكان الذي توضع فيه سلة الفاكهة. لم

تكن مكانها. حتى لو كانت فارغة. كان الركن ينقصه شـيء يعطي هذا الجزء الجديد من الشقة روحه ومنظره.

خافت أن تسأل فتظن عايدة أنها تريد أن تأكل فاكهة. ربما نزلت وجرت واشترت فاكهة من الشارع. وبهذا تكون قد سببت لها كربا. لم تقل لها ماذا كان يعني سبت الفاكهـة لها. شعرت أن البيت ينقصه شيء ما. كما لـو كـان عنـد مدخله شجرة ضخمة، مثل الأم الرءوم وقطعت. كما لو كان أمام البيت بحر النيل وجف. أو تم ردمه. كما لو كان أمـام البيت قطعة من الجنة. وتم تحويلها إلى جهنم الحمراء.

وقفت على محطة الأتوبيس. كانت مزودة من البواب برقم الأتوبيس. والمكان الذي ستغير فيه. هي في الطريـق إلى عين شمس المنطقة التي جاء منها البواب حيث تعـيش فيها بقية أسرته. منذ أن حضرت من الصعيد.

كان البواب قد عرض عليهـا أن يحضـر معهـا. يوصلها؛ ليطمئن عليها، ويزور أهله، ويعود. شـكرته. وإن كانت لم تقل له. إن ابنها لم يعرض عليها ذلك.

١١

.. محروسة في طريقها إلى ابنتهـا نـادرة. البنـت الوحيدة التي حققت حلم أبيها وأكملت تعليمها. وصلت إلـى الشهادة الجامعية. كان والدها يقول عنها العاليـة.. يـوم أن حصلت عليها. كانوا أسعد ناس في الحـي وفـي المنطقـة. وربما في بر مصر. كان أبوها يعاير إخوتها – الصبيان قبل البنات – بها. يقول لهم إن البنت فعلت ما لم يقم به الرجال.

كلما تقدمت في التعليم. كان أبوها يقول. إن فرصها في الزواج أصبحت أفضل. بعد أن أخذت الابتدائية، قال إن عروسة بالابتدائية، أفضل من عروسـة بـدونها. ويـوم أن بروزوا لها الإعدادية، قال: إن ظروفها تحسـنت. وعنـدما عادت ومعها الثانوية العامة. كانت سعادة أبوها لا يمكـن أن توصف. طفرت الدموع من عينيه. قال إن طعـم نجاحهـا يختلف عن طعم نجاح الأولاد؛ فهي بنت. وتعليم البنت سلاح في يدها، يحميها من غدر الرجال وخيانتهم.

ما إن استقرت في الجامعة. حتى تفرغ أبوها لهـا. ترك كل ما وراءه وما أمامه. وجميع ما كان مطلوبـا منـه

القيام به. واعتبرها قضية عمره الأولى والأخيرة. ينام ويحلم بيوم تخرجها. كان يصحو من النوم ويقـول إنـه رأى فـي المنام. رئيس الجامعة. أو وزير التعليم العالي وفوقهم رئيس الجمهورية. وهو يصافح نادرة.

كانت نادرة تلبس روبا أسود. وتضع علـى رأسـها برنيطة سوداء. وكان ثمة شريطًا أبيض يحـيط بصـدرها. وكان التليفزيون والإذاعة. والصحف والجرائـد والمجـلات يصورونها.

أتى إليه الصحفيون. وتكلموا معه. سألوه وأجـاب. وطلب منهم الحضور إلى البيت؛ حتى تتكلم الحاجة محروسة معهم. ويكون من نصيبهم الكلام مع البطلة: مع نادرة.

كانت أسئلتهم تدور حول المعجزة. التي حققتها نادرة في تعليمها. سألوه عن مواعيد مذاكرة دروسها. هل كانـت تستعين بمدرسين خصوصيين أم لا؟ كيف كانت تنظم وقتها. متى تنزل من البيت؟ ما أحب الأوقات المخصصة للمـذاكرة إليها. نهارا؟ أم عصرا؟ أم صباحا؟ أم في الليل؟!

قال لهم. إنها لم تكن تحب السهر في الليـل. علـى عكس الشائع الذي تقوله بعض البنات المتفوقات الأخريـات. سألوه عن اسمها: هل كان يقصد تفوقها عندما سماها بالندرة. النادر هو ما لا يتكرر في الحياة سألوه عن حكاية الاسم. قال لهم: إن أسماء أولاده تبدأ بحرف النون؛ لأنـه وردت فـي القرآن الكريم آية تبدأ بالنون. وإنه كان يسعد عندما يـذهب من أجل العزاء وكان المقرئ يتلوها.

قال لهم إنه فكر أن تبدأ كل الأسـماء فـي عائلتـه بحرف العين. كان يريد أن يكون اسم ابنتـه عـين الحيـاة. وحرف العين ورسوماته موجودة فـي المعابـد الفرعونيـة القديمة. رغم أن الحرف لم يكن معروفًا في هذه الحضـارة. لكنه ليلة ولادة ابنته الأولى لحظة سـماعه لبكـاء الطفلـة البكرية، وبعد أن تأكد أنها أصبحت كائنًا حيـا. نظـر فـي الصفحة التي كانت مفتوحة أمامه من القرآن الكريم بالصدفة. وقرأ" أعوذ بالله من الشيطان الـرجيم، بسـم الله الـرحمن الرحيم، " نون. والقلم وما يسطرون".

يقسم أنه قرأها بدون نظارة. يحلـف بالأيمانـات أن الحرف كانت مضاءة بنور رباني. جعلـه يقرؤهـا بعينيـه

المجردتين. اللتين لم تعودا قادرتين علـى القـراءة بـدون النظارة. من يومها وهو يضع فتلة عند هذه الصفحة. ومـن يومها ودون التشاور مع أحد في الأسرة. حتى دون التشاور مع محروسة. قرر أن يبدأ اسم كل ابن أو ابنة بحرف النون. هكذا قدر. وهكذا نفذ.

كانت المرة الأولى. التي تسمعه محروسة يقول هذا التفسير. عندما تخرجت ناردة في كلية الآثار. لم يسمعه أحد يقوله. من الابنة الأولى وحتى الابن الأخير. إنه كان يحتكر إطلاق الأسماء على أبنائه. وهي من ناحيتها لم تتدخل فـي الحكاية. لم تناقشه قبل الولادة في الأسماء التـي يمكـن أن تطلق على الابن أو الابنة. وأثناء الولادة لم تكـن مشـغولة بالأمر. كان يذهب إلى مكتب الصحة. ويقيد المولود. ويعود ليخبرها بالاسم الذي قرر أن يطلقه علـى الابـن أو الابنـة الذي كان يعده هدية من السماء لهم.

في مرات قليلة. كان يكتشف أن لدى محروسة رغبة في إطلاق اسم معين على أحد الأبناء.كان يقول لها – رحمه الله – تاهت ولقيناها، الاسم الذي تريدينه يصبح اسـم

الدلع. الاسم الذي تنادي به الابن. ويصبح له اسمين. اسم في ورق الحكومة. وآخر نستخدمه في تعاملاتنا اليومية.

قالت. وهل من المعقول أن يكون الاسم الذي تطلقـه في مواجهة الاسم الذي اختاره رب الأسرة؟ ثم إنها لا تحب حكاية أسماء الدلع التي اختلطت فيها أسـماء البنـات مـع الصبيان. ولم يعد ممكنًا معرفة الفارق بين الاثنين.

اكتشفت محروسة في وقفتها أنه إن كان نـادر قـد تزوج من وراء ظهورهم فإن نادرة قد تزوجت رغم أنوفهم. غصبا عنهم. تختلف عن أخيها. إنها تزوجت بعلمهم. ولكـن دون رضا منهم. فرضت عليهم العـريس كرهـا وغصـبا وبالعافية.

توظفت وعملت بشهادتها. أصبحت مفتشة آثار قـد الدنيا في منطقة عين شمس، أليست بها الكثير من الآثـارات المهمة؟ جاء عملها عن طريق مكتب القوى العاملة الذي لـم يعد له وجود. كان والدها يقول لها: إنه كان يفضل أن تعمل في الجمالية أو القلعة. قالت له: ولكن هكذا جـاء توزيعهـا. وهي سعيدة به.

كانت تعود كل يوم وتحكي لهم عن الحفريات وعـن الأهالي الذين يحاولون سرقة الآثار، والتعديات ،ومحـاولات البناء فوق أراضٍ فيهـا آثـار والمحاضـر والإجـراءات، ورفضها القاطع لأي إغراءات من الناس. كان أبوها يقـول لها: إنها إن صانت يديها تصبح ولا أدهـم الشـرقاوي فـي زمانه.

كانت أمها تتعجب من رميها في هذا المكان البعيـد. مع أنهم يسكنون في الجيزة. والأهرامات قريبة منهم. نادرة كانت سعيدة بالمشوار الذي تطخه كل يوم مرتين. مرة فـي الذهاب وأخرى في العودة. ولم يكن أحد في البيت يعرف أن المكان لن يكون محل عملها فقط. ولكنـه سيصـبح مكـان القسمة والنصيب. لم يعرفوا أيهما كان السبب فـي الثـاني. العمل كان السبب في الجوازة. أم أن الجوازة كانـت هـي السبب في الشغلانة؟

فوجئوا ذات مساء بمن يطرق الباب طالبا يدها. كان غريبا عنهم وإن لم يكن غريبا عنها. كان يعرفهـا وكانـت تعرفه. وكان يعرف كل أفراد الأسرة. وهذه المعرفة منها.

يبدو أن نادرة اتفقت معه من وراء ظهورهم. أبوهـا هو الذي أدرك ذلك. وقال لمحروسة وهو نصـف فرحـان. ونصف غاضب. كان وجهه مشروخًا، عين سعيدة والعـين الأخرى حزينة، ومحروسة كانت محتارة. هل توافق علـى العريس أم ترفضه؟!

لم تكن محروسة ميالة إلى العريس. كانت تفتش عن إحساسها نحوه. لم تحبه. لكنها أيضا لم تكرهه. وأبوها قـال لها. إنه غير مطمئن له. وإخوتها قالوا: ماشي الحال. هـي التي ستتزوجه. وهي التي ستسعد به أو يتعسها.

كان أبوها يتكلم معها بهدوء قاتل. كان يـتكلم عـن زرعة عمره البناتي. عم أنفقه وفعله وقام به. ومـاذا كانـت نادرة تعني بالنسبة له. كان يتكلم عن عقلها الذي يزن بلـدا. كان لديه يقين أن تكون قد وصلت إلى هـذه المرحلـة مـن التعليم. ولا يكون عقلها قد أدرك كيف يزن عريسها بصورة دقيقة.

ترك لها القرار. قال لها معاك أنت بالذات يمكـن أن أنصحك. أن أشير عليك ولن أتدخل في اختيارك. أنا غيـر

موافق وأمك غير مستريحة. وأشقاؤك غير مطمئنـين. مـع ذلك. ما ستقولينه سنوافق عليه.

فتحت فمها لتنطق بقرارها. لكنه رفع يده في المسافة التي بينهما. وطلب منها الانتظار. أسبوعا. شهرا شـهرين. قال: إن الاستعجال يؤدي إلى قرارات متسرعة. ربما كانـت لا تعبر عن الصواب. أمامنا مهلة من الوقت.

عاد إلى الرجل الغريب الـذي كـان يجلـس فـي الصالون. طلب منه المرور عليهم بعد شهرين.

وبوقاحة بالغة قال له:

– ولم كل هذه المدة؟

رد عليه نجم الدين:

– حتى نفكر في الأمر ونقلبه في رءوسنا.

أكمل الرجل الغريب:

– أنا ونادرة اتفقنا على كل التفاصيل.

قال له والد نادر:

- ولكننا نريد أن نأخذ وقتنا كاملاً؛ حتى لا يكـون الرأي..

قبل أن يكمل الجملة. سأله العريس باستهزاء وقلـة أدب:

- هل ستؤسسون شركة؟ الدنيا تطورت يا عمـي؟ هل ستسألون عني؟ أنا أقول لكم كل شيء. بدلاً من أن تتعبوا أنفسكم سأحضر أهلي. إن كان هذا مطلوبا. رغم أنني لا أحب أن أفعله. فأنا الـذي سأتزوج وليس أهلي.

كان مستعجلاً دون أن يقدم لها سببا لاستعجاله. هـل يريد إتمام الزواج في تاريخ معين – انهالت الأسـئلة مـن الأسرة – هل هناك ملعوب يلعبه عليهم؟ هل هو متعجل يريد إتمام الموضوع قبل أن يكتشفوا أمره ويعرفوا حكايتـه؟ ألا يعرف أن العجلة من الشيطان؟! وهل يخاف أن يعرفوا مالا يجب معرفته؟ كان في الأمر أكثر من شيء غريب.

سألت محروسة ابنتها "نانو" – نادرة التي كانت تصر على مناداتها بهذا الاسم – لِم يبدو العريس مسـتعجلاً كأنـه

سيأخذ عروسه من على محطة الأتوبيس؟.. قالـت لهـا. لا تنسب أنكِ في حبة عقل والدك. مثلما ينام نجيب فـي حبـة قلبي وقلبه. هو يحب الابنـة المثاليـة. والأم تحـب الابـن المثالي. شجرتي عمريهما؛ ولأن البنت أحب إلى قلب والدها من الأبناء. لا تنسي يا نادرة ما تمثلينه له.

كان رد نادرة على أمها غريبا. كانت مع فؤاد علـى طول الخط. عن عمله قالت. إنه ضابط في جهاز حساس لا يجب أن يصرح به. قالت أمها لنفسها، البنـت تقـول هـذا الكلام؛ حتى نخاف من مجرد جلوسه في الصـالون. عـن الغنى والمال. قالت: إن ما معه يكفيه، وأكثر. عـن الأهـل والحسب والنسب. فهي لا تحب أن تخض أسرتها؛ لأن طاسة الخضة لم تعد قادرة على علاج خضات جديدة.

قالت أمها. ولكن في سرها. تحت القبـة عفريـت. عندما تكبر الحكايات أتوقع ما هو أبعد من الكذب وأقسى من النصب. لمحت أمها في كلامها ما جعل قلبها يوجعها. وجع طارئ وجديد. لم يكن له وجود، لم تقل نانو ما عندها، بقلب الأم أحست محروسة بالأمر. شعرت بشكة في قلبها أوجعت فؤادها كثيرا.

أوشكت نادرة أن تقول لي بصريح العبـارة. إنهـا وفؤاد سيتزوجان. سواء وافقنا أم لم نوافق. ومن الأكرم لـي ولها. ومن الأحسن لنا، ومن الأفضل لجميع الأطراف أن يتم الأمر بموافقتنا. لا أذكر أنها قالت الكلام بهذه الطريقة. لكنني فهمته هكذا. وكتمته بداخل قلبي. طمرته في أعمـاقي. ولـم أحاول إخراجه إلى النور. مصيبة أن تقول ابنتي هذا الكلام. حتى لو كان بالتلميح وليس بالتصـريح. كارثـة أن تصـل الأمور إلى هذا المدى. قلت لنجم فـي الليـل بعـد أن نـام الأولاد. إن نادرة ربما ترى في فؤاد....

قاطعني:

– وهل مازلت تذكرين اسمه؟

أكملت:

– قد ترى نادرة فيه. ما لم نكـن قـادرين علـى رؤيته. من الواضح أنها تعرفه.

سألني:

– وهل قالت لك ذلك؟

قلت لا.

- هل كنتِ تعرفين بحضوره؟

قلت:

- لم أعرف. فوجئت كما فوجئت أنت في لحظـة وقوفه على الباب. ولولا أنها هي التي فتحت له الباب لكنا قد صرفناه. قد تكـون عرفتـه مـن عملها. وما دمنا قد وافقنا أن تعمـل فعلينـا أن نتحمل النتائج المترتبة على العمل.
- قال والدها كانت عقلاً خالصا. معظم اختياراتها صحيحة. وكل ما ذهبت إليه لا غبار عليه. لكنه خائف عليها. وهو لا يريد أن يقول لا ويـرفض ويصاب رأيه؛ لأنه لم يضع يده على ما يجعلـه واثقًا من أنه وصل إلى الصواب. محتار هـو، وحيرته وصلت به إلى السماء.

طلب من إخوتها أن يسألوا عنه ويطقسـوا حولـه، يحاولوا معرفة أي شيء عنه. عادوا بمعلومـات متناقضـة. بعضها يصعد به إلى عنان السماء السابعة. وبعضها الآخـر ينزل به إلى ما تحت الأرض السابعة.

البعض قال ضابط كبير. ولكن في الناحية الأخـرى قيل إنه لص محترف. قيل: إن في يده ثلاث شغلانات. هناك من أكد أنه بدون عمل. وأنه يجري وراء نادرة طمعـا فـي مرتبها؛ حتى ينام في البيت وهي تجري عليه. عاد من يقول: إنه من أسرة كبيرة. أخذت الحكومة أموالهـا. وإن والـده – سمع أحد الأبناء – يعمل كناسا في الشوارع. وإن البدلة التي جاء بها إلينا بدلة وحيدة. وحذاء وحيد وقميص لا ثاني لـه. وربطة عنق لا يوجد عنده غيرها. عدة شغل يلبسها يوميـا بعد الظهر؛ من أجل النصب على عباد الله، وعنـدما تتسـخ يغسلها ويمكث في البيت حتى تجف.

تهنا في المعلومات المتناقضة. كل معلومـة تنفـي الأخرى وتهدمها. ولم يكن عندنا ما يوفر لنا القـدرة علـى التأكد من كلمة واحدة مما قيل. اعتبر نجم الدين أن ما تعرفه نادرة عنه الفيصل. هي صاحبة الشأن، والآخرون غربـاء. وما دامت راضية لا نملك نحن جميعا سوى الرضـى بمـا يرضيها. لن نكون أكثر حرصا على مستقبلها منها.

تم الزواج بنصف رضى من جانبنا ونصف رفض. فؤاد أخذ جانبا عنا. لم يحضر معها إلينا. وعندما نذهب إليها

لم يكن يرحب بنا. شكوت لنجم الدين من تصرفات فؤاد. قال لي العروسة للعريس والجري للمتاعيس. ونحن المتـاعيس الذين كُتِب علينا الجري.

قال لي لا تكوني مجنونة. لا تحاولي هدم بيت ابنتك. إنه لم يتزوجها ونحن على البيعة. لم يأخذها ويأخذنا معهـا. تزوجها بمفردها. ما داما سعيدين. وما دامـت لـم تشـك. فلنترك الأمر لله. هدفنا سعادتها. وما دامت سعيدة. لِم نـتكلم نحن؟

كنت أتوقع حضورها لتقول إنها لم تعد قادرة علـى الحياة معه. مع الزوج الذي كنت أراه لزجا. ولا أرى فيـه رجولة حقيقية. ولا أعرف من أين يأتي بماله.

كلما سألته عن عمله. يقول لي عملاً غير الذي قالـه في المرة السابقة أقول لنفسي: إن الكذاب نساي. نادرة بدأت تصبح جزءا من المكان الذي أسكنها فيه. لم تكن تتكلم لـيلاً ونهارا – مثل أشقائها – عن التعزيل إلى مكان يناسبهم. لـم تكن تحلم بأي شيء أفضل مما هي فيه. كانت تصف أشقائها كثيري الأحلام. بأنهم يريدون الصعود إلى السـماء. ولكـن بدون سلالم.

كانت تقول عن شقيقها ناجح إنه أضاع الممكن طلبا للمستحيل. ولم تكن تتزحزح عن هذه الجملة. وبدأ أشـقاؤها يرددون الكلمة في البيت. ويقلدون نادرة وهي تنطق بها. ليلة زواجها. عندما قبلت السكن في عين شمس. وعندما عملـت في آثار المطرية وعين شـمس. ولـم تسـع للعمـل فـي الأهرامات، قالوا عنها: إنها أضاعت الممكن طلبا للمستحيل. قالوا إن كل ما في المنطقة التي تعمل بها من الآثار شـجرة يقال إن العائلة المقدسة استظلت بها في رحلتها الشهيرة إلى مصر.

شعرت بصداع. دخلت صيدلية مـن أجـل شـراء إسبرين. قال لي الصيدلي. قبل أن أقف أمامه. لو كنت أبحث عن المهدئات. لا توجد. قال لأكثر من زبون إن المهـدئات والمنومات نفدت من الصيدلية. وكل الصيدليات الأخرى في المنطقة. وفي بر مصر. كان يقف بجـواره شـاب خفيـف الظل. رفع يده بجوار أذنه اليمنى. وبدأ يغني:

– قلقوني وشطبوا الأجزاخانات. يا ليل.

حتى الإسبرين لم أجده.

أصوات سيارات المطافئ تلعلع في الشوارع. وبعدها سيارات الإسعاف. والشـوارع تحولـت إلـى جراجـات. والسيارات تقف على شكل طوابير. والنـاس تحولـوا إلـى رجال مرور؛ مما زاد مـن تعقيـد الموقـف. والسـيارات أصبحت محاك سر. تقف في أماكنهـا. لا التاكسـي ينقـذ الموقف. ولا حتى السيارة الخاصة. المشي على القدمين هو الحل. المشكلة أن مشواري طويل. من السـيدة إلـى عـين شمس. حتى لو كانت عندي صحة الزمان القديم ما قـدرت على القيام به.

الناس هجرت بيوتها، الكل في الشـوارع، زاحمـوا السيارات. البيوت لم تعد أمانًا. ويا بخت من كانـت حديقـة عامة قريبة من بيته. أمه دعت له في ساعة إجابة. في ساعة كانت أبواب السماء مفتوحة فيها.

أثناء وقوفي سمعت كلاما يقال. الشائعات أصـبحت أقوى من الزلزال. وكل واحد عنده أكثر من شائعة يرويهـا. والأرض التي انفتحت بالقرب من بحيرة قارون. وخرج منها البترول. مارد وصل السماء. ولكن لحظة خروجـه حـدث الزلزال. وهل هناك حلاوة مـن غيـر نـار؟! وسـيارات

الإسعاف والمطافئ مازالت تقف في الطـوابير. ولا يفعـل سائقوها أكثر من إطلاق السراين وضرب الجرسـات التـي أصبحت أصواتها مألوفة.

في الظروف العادية. ما إن يسـمع الإنسـان هـذه الأصوات حتى يتساءل عن المصيبة أين وقعت؟ ومـا هـي بالتحديد؟ حريق أو انفجار؟ أو بيت وقع علـى سـكانه؟ أو عمارة حديثة تم غش مواد البناء فيها؟ حيث إن كل عمـارة تُبنَى هي كارثة تحت التشطيب إلى أن يحدث العكس.

وقفت أتأمل ما حولي. إعلانـات الشـوارع. أفـلام الحجر الداير. القاتلة. امرأة آيلة للسقوط. مهمة في تل أبيب. الحب والرعب. كرستوفر كولومبس، رحلة إلى المجهـول، لجنة الإغاثة الإنسانية. الشتاء قارس والبرد شديد وإخواننـا في البوسنة والهرسك فـي انتظـار هـذا البـرد. البوسـنة والهرسك. أمة تُذبح وشعب يباد. مر بجانبي شاب يردد جملة واحدة. كأنه حفظها عن ظهر قلب. وأنا أيضا حفظتها؛ لأنـه كان لا يملك سوى ترديدها. تغريبة الدقيقة الواحدة. المـوت للأحياء والدمار للمباني. هذا ما جـرى عنـدما اهتـزت أم

الدنيا. "إذا زلْزلـت الأرض زلزالهـا. وأخرجـت الأرض أثقالها". صدق الله العظيم.

الأذن تسمع. والعين تـرى. البوسـنة والهرسـك. يفترشون الأرض ويلتحفون السماء. الصومال شـعب يقتلـه الجوع. الموتى بالآلاف جوعا وعطشًـا ومرضـا وقـتلاً، والمئات يرددون: لا نملك الأكفان. النقابة العامـة للأطبـاء. لجنة الإغاثة الإنسانية، ها أنتم مدعون لتنفقوا في سبيل الله.

ثم مر علي من يحمـل ميكروفونـا علـى كتفـه، والموتور معلق في الكتف الآخر. وبيـده السـماعة. كـان يصرخ من عزم ما به:

مصر

كنانة الله في أرضه

ستظل محروسة دائما بأولياء الله الصالحين.

حفظها الله

وأوصى بها نبيه، صلى الله عليه وسلم

وكانت مثوى لأهل بيته دون بقاع الأرض

إن عدد الشهداء. أقل مـن قتلـى حـادث تصـادم قطارين.

فالحمد لله.. الحمد لله.. الحمد لله.

وعدد العمارات المنهارة. بضع عشرات فقط..

كنت أبحث في سري عن نجوم المساء. وهي لا تبدأ في الظهور إلا مع مجيء الليل، ولن أراها. ذلك أن الأنـوار في حالة سباق مع النجوم. تمتص قدرتنا على رؤيتها. غريبة نجوم السماء في هذا البلد. لا مكان لها إلا في القريـة التـي تركتها. وإن كانت هناك ثمة نجوم. لا بد وأن تكـون مـن النجوم التي يراها الإنسان في عز الظهر. أين القمـر؟ أيـن تلك المساحة من الفضة التي تكبر وتصـغر حسـب نظـام معلوم؟

كانت بعض البيوت تتفكك كسفينة في البحر. بـدأت تستعد للغرق. بعد أن فشلت المقاومة. أجـزاء مـن الأدوار العلوية سقطت. وقطع من مآذن مساجد وقعت على الأرض بالقرب من هذه المساجد، وكان يحيط بي ليل المدينة الملعلط بالأضواء الذي يبرق باللمبات من كل صنف. ومن كل لون.

كان الكلام قد تحول إلى مقارنة بين فكرتين. واحـد يقول إن الزلزال بدأ في بحيرة قارون، ولكن آخر دس نفسه في الكلام وقال: إن جبل قطراني. القريب من الفيـوم هـو السبب. وإنه مركز الزلزال، وليس مركزه في القاهرة، وإلا لكانت قد هدمت منها أحياء بكاملها. إن الله قدر ولطف.

ثالث حشر نفسه في الكلام. وقال: إن بحيـرة السـد العالي. أوقفه رابع عن الكلام. وقال: إن اسمها بحيرة ناصر. وهو أصر على كلمة السد العالي. المهم أن البحيـرة هـي السبب في الزلزال. وقد تكون السـبب فـي زلازل أخـرى قادمة. وأن الحل الوحيد هو تجفيف البحيرة بأسرع ما يمكن. واتهمه الشاب الآخر بأنه ساداتي معادٍ لثورة عبـد الناصـر العظيم؛ لأن السادات هو الذي غير اسم البحيرة من ناصـر إلى بحيرة السد.

قال خامس إن جيهان السادات هي التي فعلت هـذا. عندما كانت في زيارة للسد العالي. وشاهدت صورة بالحجم الطبيعي لجمال عبد الناصر باعتباره بـاني السـد. فتأففـت وأشارت للصورة غاضبة. فتم رفعها من مكانها بعد الزيارة مباشرة. وجرى تغيير اسم البحيرة في الأسبوع التالي.

كان يجلس بجواري في الأتوبيس رجل عجوز. بدون أسنان في فمه. يبدو أن عنده طقم أسنان يضعه في كوب ماء بجوار السرير قبل أن ينام. ولكن أين الطقم؟ هل وقـع منـه لحظة الزلزال؟ قال لي. إنه كان صبيا عندما وقع الزلـزال منذ أربعين سنة. وإنه كان وقتها أعزب. لم يتزوج. تـرحم على زوجته التي يبدو أنه تزوجها. وماتت. وتخضبت عيناه بالدموع وهو يترحم عليها.

يواصل الحكاية. إن أمه. لم يترحم عليها. يبدو أنهـا ما زالت تحيا. وأنها لا بد وأن تكون قد تجاوزت المائة. قال إن أمه كانت قد وضعت له العشاء. وأن الزلزال أتى لـيلاً. إنه متأكد؛ لأن النور كان مضاء ثم انطفأ.

وضعت أمه أمامه الطعام. وبعد الزلزال أشعلت لمبة جاز نمرة عشرة. كانت موجودة في البيوت بكثرة. وكان في الطعام بيضتان مسلوقتان.بيض من بيض أيام زمان .حجـم البيضة أكبر من بيض هذه الأيام.

يذكر عندما أتى الزلزال أن البيضتين تحركتـا مـن الطبق. وخرجتا على السفرة. ووقعتا من على السـفرة إلـى الأرض. بتأثير قوانين الجاذبية أكثر من كونه بتأثير الزلزال.

وأنه عندما نزل ليبحث عنهما. كانت الدنيا قد اهتـزت مـن جديد. وكان النور قد انقطع. وصوت النجفة التي كانت تهتز بشدة كان عاليا. وإنه احتمى بالسفرة التي كان قد نزل تحتها بحثًا عن البيضتين اللتين وقعتا منه.

يتكلم شخص آخر في الأتوبيس. يقـول: إنـه فـي الخمسينات بعد الزلزال الذي يحكي عنـه الوالـد بشـهور. يقاطعه الرجل الكبير. يؤكد أن الزلزال الذي يتكلم عنه وقـع في النصف الثاني من الأربعينات إنه متأكد؛ لأن ذلك كـان قبل ضياع فلسطين، يتكلم الشخص الآخر، يقول إنه وقع في القاهرة ما هو أخطر من الزلزال. حينما أظلمت الدنيا وامتلأ الكون بتراب أسمر. وأظلمت الدنيا لفترة ليست قصيرة مـن الوقت. وأن هذا الظلام استمر ثلاثة أيام وثلاث ليال.

لم يكن أحد يشعر بطلوع النهار ولا مجـيء الليـل؛ لأن الظلام كان مستمرا. وأن حجم الحوادث التي وقعت في القاهرة. والتراماليات التي اصـطدمت. والسـيارات التـي تهشمت. والأتوبيسات التي دخلت في البيوت. لا يمكـن أن يحصيها أحد. وإنهم قالوا يومها: إن هذه الغيمـة السـوداء أخطر من الزلزال. وأن الأفق كانت تنزل منه علـى البعـد

أشياء سوداء. تمتص أي ضوء موجود في أي مكـان فـي سماء القاهرة.

سأله مستمع ربما كانت رياح الخماسين؟ أكد له أنـه يعرف الخماسين جيدا. في الخماسين يمتلئ الشارع بسـتائر من اللون الأصفر من الرمال القادمة من الصـحاري. التـي تحيط بالقاهرة من كل جانب. الخماسـين يعـرف أمرهـا. وأيامها محددة ويعملون لها ألف حساب. لكن ما جـرى لـم يكن يمت للخماسين بأي صلة. سأله الرجل الكبيـر فـي أي سنوات الخمسينات وقع هذا. قال له في آخر السنة الأولـى منها.

النغمة التي كانت أسمعها كثيرا. عندما كان يتوقـف الأتوبيس. ويصعد بعض الذين كانوا يجمعون تبرعات لبنـاء المساجد. كانت تركز على أن ما جرى كان غضبا مـن الله سبحانه وتعالى علينا. فالمعاصي ترتكب جهارا نهارا. تحت سمع وبصر الجميع. المعصية تعيش معنا. نمارسها أكثر من الوجبات الثلاث والصلوات الخمسة ولا نتحرك لمواجهتهـا. نحرص عليها ونتسابق في القيام بها.

كانوا يقولون عن الزاويـة الحمـراء والقصـيرين والأميرية الصين الشعبية. وأنا أقول عن عين شمس التي أنا في الطريق إليها. الصين الشعبية فعلاً وقولاً. الزاوية كانـت صين الستينات ،وعين شمس صين الثمانينات والتسـعينات. زحام رهيب. ترش الملح لا ينزل إلى الأرض.

يبدو أن الأرض تنبت الأولاد. وأن النسـاء يحملـن ويلدن قبل اكتمال تسعة أشهر. ربما تكون الولادة بعد أربعة أشهر

أو خمسة أشهر. وإلا من أين يـأتي كـل خلـق الله هؤلاء؟ وكيف تعيش ابنتي وزوجها في هذا المكان؟

الذي كان يفزع أولادي بعد كل زيارة لنادرة. أنهـا غسلت لسانها مما تعلمته وحفظته وذاكرتـه ونجحـت فيـه وحصلت به على الشهادة. آخر من زارها من إخوتها. قال: إنها شالت البرواز الذي كانت توجد فيه الشهادة الكبيرة التي حصلت عليها من فوق الحائط. وكان والدها قد بروزها لها. هدية منه. وطلب منها أن تعلقها في أعز مكان في شقتها.

استغربت. كدت أن أتخانق معها. فقامت نادرة بهدوء وأعطتني البرواز؛ حتى أعلقه في البيت. ومن يومها وهـو معلق في البيت في البلد. كنيشان من أهـم النياشـين التـي حصلت عليها العائلة.

وصلت إلى البيت الذي تعيش فيه ابنتي نادرة. ثمـة درجات في السلم قد تشققت وتكسرت. والدرابزين تمايل من مكانه. والجدران بدأت فيها مشروعات شقوق. طلـب منـي أحد الجيران أن أصعد من وسط السـلم، ألا أقتـرب مـن الحيطان أو الدرابزين. ضرب كفًا بكف. وهو يقول. منه لله الزلزال.

كنت الوحيدة التي أصعد. كـل الجيـران ينزلـون. يهجرون الشقق. ولكن إلى أين؟! قال الرجل: بحثًا عن حديقة نقضي فيها الليل. في كل حي أكثر من حديقة. إلا هذا الحي. الذي أنشئ بطريقة عشوائية. لا مفر من الذهاب إلى شـارع جسر السويس. وبحر الشارع الواسع يمكن التعامـل معـه باعتباره حديقة.

وقفت على السلم أمام باب شـقة نـادرة. ضـربت الجرس سبع مرات. أنا متأكدة من ذلك ؛لأنني عددتها بعناية.

لأول مرة يحضر لها من لم يتصل بها قبل الحضور. كـان زوجها قد قال: إنه لا يحب هـذه المفاجـآت. لا بـد مـن الحضور بموعد. ومع أن هذا لا يحدث بين أهل. فإننا وافقنا. ولكن كان من المستحيل تنفيذ شـروطه اليـوم. أيـن هـي التليفونات يا حسرة؟

شعرت إن هناك أعينًا تنظر من العين السحرية التي في الباب. وهذا تكرر أكثر من مرة. سمعت أصوات أقـدام تقترب من الباب ثم تبتعد عنه. وهرج ومرج وكلام بصوت منخفض. قلت ربما لا يكون قد وصلهم خبر الزلزال. قلـت ربما كانوا نياما في هذا الوقت. الذي لا ينام فيه أحد سـوى الذين تفرض عليهم ظروفهم النوم مثل المريض. قلت معهـم عذرهم والبيوت أسرار.

في الوقت الذي كنت أفكر فيه في المشي والنـزول إلى الشارع. وبهذا لا يكون قد نابني سوى طلـوع السـلم. والنزول من عليه. مع أنني سمعت أكثر من مرة. أنـه فـي أوقات الزلزال لا بد من البعد عن السلالم؛ فهـي أضـعف حلقات أي مبنى. إن بقاء الإنسان معلقًا في الفضاء أفضل من مجازفة النزول من على السلم.

ما دام البيت سليما – قلت لنفسي ولكن بدون صوت – والهرج والمرج والنظر من العين السحرية مستمر فالأمر لا يستلزم الاطمئنان على شيء. لماذا فكرت في المجـيء؟ ابنتي في عصمة رجل. أو من المفترض أنه رجـل. هكـذا يقول لي شكله الخارجي وأوراق الحكومة.

رجل والسلام. والمثل الذي يرددونه في البلد. يقـول ضل راجل ولا ضل حيطة. والله إن الحيطة أفضل من هـذا النوع من الرجال. وما دام رجلاً. أو من المفترض أنه رجل. فهو مسئول عن حمايتها.

عندما كنت أضع قدمي على أول سلمة لكي أمشـي. انفتح الباب عن وجه ابنتي. التي فتحت يديها بطريقة تمثيلية ؛لكي ترحب بي.

١٢

.. أتى وراءها زوجها. اختلفا على الترحيـب بهـا. نادرة تصر على أن تدخل أمها إصرارا مبالغًا فيـه. وهـو انطفأ الحماس الذي في وجهه. يوشك أن يقـول لهـا. إنهـا مادامت ليس لديها وقت .واطمأنت عليهم. فِلِم لا تمشي قبـل أن يوغل الليل في تقدمه.نظرت همست لنفسها إنها لا تحـب تحب وجهه الكاذب.

لا تعرف لِم دخلت البيت ؟كانـت مدفوعـة بأمنيـة وأمل. ربما كانت نادرة تعرف أي شيء عن بـاقي إخوتهـا وعما جرى. تعرف أن زوجها قطع كل عروق المحبة التـي يمكن أن تصلها بأهلها ولكن لعل وعسى رحمة الله واسـعة. حقد زوج ابنتها وكراهيته. قطرة في بحر من الرحمة التـي تشمل الناس كلهم.

كانت تريد أن تسأل نادرة عن خطافة الرجالة التـي توشك أن تخطف أخاها. وكانت تريد أن تتكلم معهـا. عـن أخيها نادر الذي تحمل اسمه المؤنث وعـن أختهـا نجيبـة الوحدانية. التي تعيش بمفردها. كانت تريد أن تستعيد نـادرة

من هذا الواقع الذي يأخذها. وهي تبدو كالمخدرة أو التـي لا تدرك ما يجري حولها.

دخلت بين ترحيب ابنتها الذي شعرت مـن اللحظـة الأولى أنه غير حقيقي. وفتور زوجها وحالة الكراهية التـي تغطي وجهه. قابلتها أضواء حمراء في الشقة. شقة كالكهف المضاء باللون الأحمر. لون الدم. وبين قطرة الدم والقطـرة الأخرى مساحات من الظلام.

سألت نفسها: ما الذي يجري فـي الشـقة. عنـدما أصبحت في قلبها اكتشفت ألوانًا تختلف عن اللـون الأحمـر الذي قابلها في البداية. ما الحكاية؟ هم أحـرار فـي بيـتهم. يصنعون فيه ما يشاءون. ما لها ولهذه الأمور حتـى تـتكلم عنها. زوجها كان يعتبر أن أي كلام عن حياة نادرة معه. هو تدخل في شئونهم الداخلية الذي لا يصح ولا يجوز. ولـيس من حق أحد. مهما كانت درجة قرابته لنادرة.

تزف لها نادرة أول البشائر أخبار نادرة لا بـد وأن تكون نادرة أيضا أصبحت ست بيت. تركت شغلها وجلسـت في البيت. أراحت نفسها من قطعة النفس جريا وراء الآثـار

في المنطقة. وهي بدون سـيارة. خاصـة وأن الشـغل لـم يخصص لها سيارة.

سألتها أمها عن السبب في القرار الغريب هل يطول أحد عملاً بجوار بيته؟ أو حتى في آخر الدنيا؟ أصعب ما في مصر هو الحصول على عمل، منذ أن عينت عـن طريـق القوى العاملة، والتعيين بالواسطة. كانت دفعة نادرة هي آخر دفعة تعمل بخطابات من القوى العاملـة. اليـوم يتخرجـون ولكنهم لا يعملون، قالت أمها: هل كانوا يقطعون مـن لحـم الحي حتى تصبح ست بيت بشهادة؟ التعليم الـذي لا يـوفر وظيفة لا لزوم له. ما أنفقوه عليها قليل إلى جانب ما دفعتـه لها الحكومة ؛مما يضاعف الخسارة بجلوسها في البيت.

قالت نادرة: إن تربية الأولاد أبقـى وأحسـن مـن الجري وراء الشغل وترك الأولاد في الحضانة، حيث يعـود الطفل محملاً بعدد من الأمـراض التـي انتقلـت لـه مـن الحضانة، وقائمة هذه الأمراض طويلة.

محروسة لم تكن معنية بهذا الكلام، ولم يكن يهمهـا الرد عليه، تذكرت أحلام المرحوم، الذي كان يحلـم بلقـب الدكتورة نادرة. لم يكن يريد أن يرحل من العـالم إلا بعـد

حضور مناقشة رسالتي الماجستير والدكتوراه، اقترح عليهـا أن تكون رسالة الماجستير عن خط سير جيش الفتح العربي حاملاً نور الإسلام في الوجه البحري، وأن تكون الـدكتوراه عن رحلته إلى الصعيد. وأن هذين اليومين اللذين سـتناقش فيها الرسالتين سيكونان أكبر عيدين في حياته.

لكنه مضى قبل أن تتحقق الأحلام، أوصاها – الست محروسة – أن تكون موجودة في هذين اليومين، إن لم يسعده زمانه ويكون موجودا، الحمد الله – الـذي لا يحمـد علـى مكروه سواه – أن رفع الشهادة من بيتها، وتركها العمل قـد تما بعد موت والدها.

جلوس نادرة في البيت تحول إلى ما يشبه الصـدمة، ولكن ماذا تفعل؟ هل ستحدث مشكلة في كل بيت تذهب إليه؟ هل ستخرج بخناقة من كل زيارة؟ عليها أن تتقبـل الأمـر والسلام، وتؤجل كل ما يغلي في نفسها إلى ما بعد.

كل ما مرت به اليوم من الأهوال مؤجل إلى ما بعد، وهي لا تعرف متى تأتي هذه الـ " ما بعد " .كـان يمشـي بجوارها الرجل الذي لم تستطع أن تبتلعه، الرجل الذي يقول لها إنه موظف ولا تعرف في أي وظيفـة يعمـل، وظيفـة

والسلام. أيا كانت أحسن من أن يجلس بجـوار نـادرة فـي البيت. نظرت له. لم تستشف أي شيء في وجهه، كان قادرا على الاختباء وراء عينيه بشكل جيد، كـان مراوغًـا مـن الصعب الإمساك به، مثل القرموط في الماء.

علمها زوجها، نجم الدين، أن كثرة الأسئلة، تحـدث المشكلات، أكثر مما تجعل الإنسان يصل إلى إجابات تريحه من تعب حمل الأسئلة؛ ولذلك بلعت أسئلتها.

في المرات السابقة، كانت تسأل، وكان يـرد عليهـا بكلمات كثيرة، كلها كذب، كذب في كذب، وهذه المـرة لـم تسأله، لم تكن تريد أن تنظر في وجهه، قالت ابنتها إنهم لولا الزلزال لكانوا في سابع نومة في هذه الساعة هي وزوجهـا وأولادها، تلميح لم يفت محروسة أن تتوقف أمامه وتحـاول أن تستوعبه، سألت نفسها، هل طلب من نادرة، أن تسـرع أمها في الرحيل؟ أم أن تأوي إلى الفراش معهم بعد دقائق؟

دخلت محروسة الشقة والفأر يلعب في عبها، لم تكن قادرة على بلع ما يجري أمامها، ثمـة جـو مـن التواطـؤ والمؤامرة يحيط بها، هذا الذي تراه مجرد مظهر لأمور أكثر خطورة لا تريد أن تعرفها.

ليتها أراحت نفسها، ولم تحضر. الناس أحرار في بيوتهم وفي حياتهم، عينها الشمال ترف، ورفها دليل شؤم، لو كانت العين اليمنى هي التي ترف لاعتبرت ذلك دليل خير، مصيبة ستقع، حتى لو رفت العينان معا لاعتبرته من الأمور النادرة الحدوث.

العين الشمال مرة واحدة؟! نذير مصيبة، دليل كارثة، مقدمة مأساة، أوشكت أن تمد يدها، تمسك بها رموش عينها الشمال، تمنعها من الرف، ولكن الرموش دابت، إن أمسكت أطلال الرموش، قد تخرج في يدها، ولا يبقى رمش واحد يوحد ربه في العين الشمال.

جلست في الصالة، كانت كل الغرف مغلقة ولكن ثمة أنوار تأتي من داخل الغرف، تطل من تحت أبوابها، وكما شاهدت الأضواء القادمة من وراء الأبواب المغلقة، فقد سمعت بأذنيها صوت همسات ووشوشات آتية من الغرف المغلقة، لم تصدق أذنيها، كذبتهما، تصورت أن التليفزيون مفتوح، أو أن الراديو يتكلم، وعندما تأكدت أنهما موجودان في الصالة وأنهما مغلقان، تصورت أنها أصوات الشارع أو

من عند الجيران، هذه ليلة ضاعت فيها الأبواب والجـدران وذابت الخصوصيات.

سألت ابنتها عن حكاية الأصوات الغريبـة مـن أي مكان قادمة؟ أشارت نادرة إلى الأبواب المغلقة، وقالت: مـن الغرف. خبطت أمها صدرها بقوة أوجعتها صاحت:

يا دي الليلة السودا، أصوات قادمـة مـن غـرف مغلقة؟

كانت قد كذبت نفسها عندما شاهدت الضـوء الـذي يتسلل من تحت الباب، هذا اليوم ولا يوم القيامة، بهدوء قاتل قالت نادرة، إن عندهم ضيوفًا، أوشكت أن تشـد شـعرها، منعها وجود غطاء فوق شعر رأسها.

كان الوقت ليلاً، واليـوم يـوم الزلـزال، ضـيوف يشغلون غرف البيت، وهم ليسوا نياما، النور مضاء والهمس شغال، ضيوف ولا يجلسون مع أهـل البيـت، وهـل هـذا معقول؟! يدخل دماغ من؟ كلام تضحك به نادرة على نفسها، ولكن هل يصلح للضحك به على أمها، التي شـاب شـعره، ليس من السن ولكن من هول ما رأته وقسوة ما عاشته؟

سألت ابنتها عن الأطفال حبة عينيها ونورهما، أين هم إن كانت الغرف مشغولة بضيوف تقول إنهم نيام؟ وتوشك أن تتساءل: نيام في غرف مضاءة كيف؟! إن الضوء يقلـق النائم ولا يعد نومه نوما، ولكنها تحاول أن تسكت نفسـه، أن تغلق فمها.

تجلس في الصالة تهامي الأسود – لم يعرفوا إن هذا هو اسمه الحقيقي سوى في لحظة كتب الكتاب. كانت نـادرة تقول عنه فؤاد – زوج ابنتها؟ يأخذ نادرة إلى مكان قريـب وتحدث الوشوشة .يتوشوشان. تتساءل: ما حكاية الوشوشة؟ ابنها نادر يأخذ زوجته بعيدا عنها من أجل الوشوشة، وتهامي الأسود يأخذ ابنتها نادرة بعيدا، تتوقف: أي بعيد فـي هـذه الشقق الضيقة؟ أي أسرار نبتت في هذا اليوم الغريب؟

ربما يتكلم معها عن القيام بواجب الضيافة لها، ربما يفكران في إخلاء غرفة من غرف ضـيوف نـص الليـل، أغرب ضيوف سمعت عنهم، ربما يطلب منها نقودا؛ لكـي ينزل حتى يشتري كازوزة يقدمها لأمها، أو ربمـا يشـتري طعاما وفاكهة.

عادت نادرة إلى أمها، كانت مرتبكة بصـورة مـن السهل ملاحظتها، خجلانة، حيرى، لا تعرف كيف تتصرف، ولا ماذا تفعل في الموقف الذي تواجهه؟ طلبت من أمها وهي توشك أن تذوب من خجلها، أن تقوم معها، وأن تدخلا غرفة نوم نادرة وأن تتركا الصالة، أوشكت أن تسألها عن السبب. لكنها قامت. إنها في بيت ابنتها. ممن تخاف؟ ومم تخشـى؟ وعدم السؤال أفضل.

رنت في خاطرها جملة كانت تسـمعها دائمـا فـي خطبة الجمعة. لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسـؤكم. لـن تسأل. ربما كان في السؤال إساءة ما، كانت متأكدة من أمـر واحد، إن ابنتها تحاول أن تخفي شيئًا ما عنها، وهـي مـن جانبها دفنت فضولها بداخلها، ولم تعد راغبة في معرفة الذي يجري، ولو كان هناك ما يخفيانه ستعرفه قبل أن تمشي وكل ما عليها هو الانتظار. كان التوتر يزداد في وجـه ابنتهـا، وكانت نادرة – في محاولة للهروب تسألها عـن أشـقائها، سألت أولاً عن نجيبة، فعرفت أنها بدأت بهـا، فحاولـت أن تعايرها وتقول إن نجيبة دائما، محظوظة، وحـدها نـادرة، كانت ومازالت ابنة البطة السوداء.

كانت تقول هذا المثل دائما، رغم أنه قـد يضـايق زوجها، أليس اسمه الأسود؟ كانت نادرة ترى أن نجيبة هـي البكرية، أخت أمها أكثر من كونها ابنتها، لها مكانة في قلب الأم لا تعرف من أين أتت؟ ولا على أي أساس تستمر؟

قالت نادرة إنها تحب نجيبة، رغم أنها أول من خذل والدها؛ كان يريدها أن تكمل تعليمها، وتتخرج مهندسة ري، وتعمل في مقياس النيل، القريب من البيـت، الـذي كـانوا يتفسحون عنده وهم كبار، ويلعبون حوله وهم أطفال، ورغم الخذلان المبكر فإنها تحبها، أكثر من الحب نفسه.

تقول نادرة، وهي تندب حظها، إن كل التدهور الذي أصابها إنما بدأ بعد وفاة الغالي، الذي كان يقدم لها حتى نور عينيه، ولكنه مات لسوء حظها.. سألتها عن نادر فقالـت إن أحواله لا تسر عدوا ولا حبيبا، سألتها عن أحوال ناجح فقالت إنها لم تذهب إليه بعد، لامتها. قالت لها: تذهبين إلى الـذين تمكنوا من فتح بيوت، ولا تطمئنين على من ليس له بيـت؟ كان يجب البدء به، كيف تطيقين البعاد عنه؟ ذلك أن ظروفه أكثر من صعبة.

كان يبدو على نادرة أنها تريد الكلام لمجرد الرغبـة في الكلام، توتر داخلي وإلهاء لأمها وإبعادها عن أمـر مـا يجري في البيت. لاحظت الأم أنهم انفصلوا عن الضـيوف المزعومين، منـذ أن حضـرت لا يجلسـون معهـم، ولا يضيفونهم، تركوا لهم الغرف وفي الوقت نفسه فهم لا يفعلون لها أي شيء يشغلهم عن الضيوف، مسألة غريبـة وغيـر مفهومة، لولا هذه الحكاية. لكانت قد مشيت بعد حضـورها كان لا بد من بقائها بعض الوقت حتى تنجلي الأمور.

سألت محروسة نادرة عن آخر مرة رأت فيها ناجح أخاها؟ تقابلت معه؟ زارها أو زارته، اكتشفت أن هـذا لـم يحدث، نادرة لم تذهب إليه، وهو لم يحضر إليها، تكلما عن نادي، فقالت الأم إنها لم تذهب إليه، فهو عفريت ولا تخـاف عليه، عايرتها البنت، قالت إنها كان من الأولى أن تذهب إليه فهو فرداني، ووحداني، والزلزال وتوابعه صعب على مـن يحيا بدوره.

خُيل إلى المحروسة إن نادرة ربما تحاول بالكلام أن تدفعها إلى المشي، بدلاً من البقـاء، المفـروض أن يكـون الصبر أعز شيء في الوجود تحاول الحصول عليه في هـذا

اليوم، تقول نادرة، على سبيل التوضيح والإيضاح إنها بعـد أن أصبحت أما، مثل أمها، وهي لا تطيق فراق أبنائها لحظة واحدة، وإن أمها هي التي علمتها كيف تصبح أمـا؟ حتـى دونما كلام، نقلت إليها هذا الإحساس الجميل في صمت نقلته دون أن تقصد نقله، تقلد أمها في أمومتها فقط.

صمتت نادرة، ولم تجد الأم كلاما تقولـه، وكانـت نادرة تبحث عما يمكن أن تقوله، لكنها لم تجـد عنـدها مـا تقوله، ربما كان زوجها الذي اختفى يطلب منها الكلام مـع أمها في الفاضية والمليانة، حط عليهما صمت مفاجئ فرفعت نادرة أصابعها، تحسست قدميها، سوت شعرها، كانت تفعـل ما يرد على خاطرها.

\سألت المحروسة نفسها، لِمَ تحـاول هـذه البنـت الهروب؟ إلى أن شرخ سمعها صوت سكران. أحد السكارى. خُيل للمحروسة أنه قادم من الشارع، هذا هو المكـان الـذي تعودت، عندما كانت تعيش في مصر أم الدنيا، أن يأتي منـه صوت رجل سكران ولا يكون ذلك سوى في الليل.

ولكن هل من المعقول أن يسكر إنسان في مثل هـذا اليوم؟ ألم يتعظ من الزلزال؟ من أين يأتي الإنسان بروقـان

البال حتى يشرب الخمر؟ وفي هذا اليوم العصيب؟ ألا يدرك أن الزلزال هو عقوبة الله المفروضة على الجميـع؟ الـذين يسكرون والذين لا يسكرون؟ أوشكت أن تتساءل: وما ذنـب الذين لا يسكرون؟ خافت أن يكون في ذلك قدر من الكفـر، ومعاذ الله؛ فهي مؤمنة، ابنة مؤمن، أم لجماعة من المؤمنين.

أما في البلد فالشر لم يصل إليها، هذا الصـوت لـم تسمعه في البلد، من المستحيل أن يكون هذا الصوت قادمـا من إحدى غرف بيت ابنتها المتعلمة، فخر العائلـة، نـادرة تعلمت وعرفت ما لم يعرفه حتى الرجال.

قالت محروسة: سكران يوم الهول الأعظم، هذا هـو الكفر بعينه، كيف وجد عنده وقتًا ليفعل هذا؟ وكيف طاوعته نفسه؟ تكرر الصوت، جاءها مرة أخرى، خُيل إليهـا ولـم تصدق ما خُيل إليها، بعضها يكذب بعضها الآخر، شبه لهـا أن الصوت يأتي من الغرفتين المغلقتين اللتين ينبعـث مـن داخلهما نور، حاولت أن تكذب أذنيها، سألت ابنتها:

– هذا الصوت ألا يأتي من الشارع؟

قالت لها نادرة:

- عليكي نور، من الشارع طبعا.

أشارت المحروسة إلى الغرفتين المغلقتين مستفهمة، ردت عليها نادرة، هل هذا معقول؟! كانـت الإشـارة مـن محروسة لمجرد احتمال، واحتمال ضـعيف، وكـان الـرد الاستفهامي من نادرة، تأكيدا لهذا الاحتمال. هاجمت فكرة لم تنطق بها أمها، لم تجرؤ حتى على أن تقولها.

انفتح الباب عليهما فجأة، لم يكن فقط باب الغرفـة. ولكن باب الجحيم، دخل عليهما رجـل غريـب، لـم تـره المحروسة من قبل، ولا تعرفه كان هو نفسه صاحب الصوت العالي، صوت السكران العالي الذي اتجه إلى نادرة مباشـرة وهو مستمر في الصياح، مد يده عليها، أمسك بيدها شـدها منها.

قال لها بنصف لسان، وهو يوشك أن يتطـوح فـي الهواء القليل الذي حوله، إنه يريد الكلام معها في موضـوع خصوصي، قدمت له أمها، قالت له:

نينة تزورنا، جاءت تطمئن عليهم بعد الزلزال، فيها الخير – قالت بصدق – كان الأول والأخير منذ أن حضرت أمها إن الأم هي الخير الباقي في الدنيا كلها.

سلم على الأم والخمر تفوح منه، كانت رائحته كلهـا خمرا لا تشع من فمه فقط، ولكن من جسمه كله، كـان فـي حالة سكر بين لا يستطيع حتى أن يقف على قدميه، لم يلتفت إلى الأم، لم يدرك السكران مغزى أن نادرة تعرفه على أمها، وتقول إنها ضيفة.

كان يعرف هدفه، وكان مصمما عليه، أن يأخذ نادرة إلى داخل الغرفة، عنده كلام في موضـوع مهـم وخطيـر ومستعجل ولا بد من قوله على انفراد، كررت الرد عليه أنها الآن جالسة مع أمها، وليس لديها وقت لكـي تـتكلم معـه، والست محروسة طلبت منه أن يقول ما عنـده هنـا فـي الصالة، أي أسرار بين رجل غريب ونادرة؟ الأسرار تكون بين الرجال فقط.

شد الرجل الغريب، السكران، نادرة بقوة، وقال إنـه لا بد من الكلام معها على انفراد، السر سر، إن خرج مـن بين اثنين لا يصبح سرا، لا بد أن يقول لها السر. والآن وإلا

هد البيت على من فيه، لا بد وأن يوشوشها، فمه في أذنهـا، وهما بمفردهما. مثلما يحدث في كل مرة يأتي إلى هنا، إنـه لا يحضر إلى البيت إلا من أجل أن يتجانس معها لوحـدهما في غرفة مغلقة.

ما إن قال هذا الكلام، حتى وقفت نادرة، ثارت، هبت ضربته قلما على صدغه الأيمن، كان له صوت طرقعة مـلأ المكان، وأسندته بالقلم الثاني على الصدغ الأيسـر، كانـت مفاجأة الرجل بلا حدود، هجم على نادرة يريد أن يضـربها، والست محروسة تتابع الموقف بذهول وعدم القـدرة علـى التصديق.

دخل زوجها تهامي الأسود في هذه اللحظـة، منعـه وثار في وجهه، وقال لحماته التي أوشك قلبها أن يتوقف، إنه كان يختبر أمانة زوجته وحفاظها على شـرفها، وإنهـا لـو وافقت على الدخول إلى الغرفة معه بمفردها والكلام معـه، دون حضور رجلها، حتى لو تركت الباب مواربا لطلقها في التو واللحظة.

لعبة رجال، اختبار لا بد منه كل فترة، لحفاظ المرأة على شرفها، ولو سقطت في الامتحان، لمشيت مـع أمهـا.

تكمل مع أمها مشوار الاطمئنان على باقي العائلـة. الرجـل السكران، طار سكره من القلمين، وصياح تهامي الأسود فيه، وأصبح يقظًا، مثل كل الناس العاديين، طلب استرداد فلوسـه التي دفعها في أول الليلة السوداء.

تهامي سأله:

- أي فلوس يا فاجر؟!

رد عليه:

- التي تؤجر بها الغرفة بالساعة.

نظر تهامي الأسود إلى المحروسة، وقال لهـا عـن الرجل السكران إنه مجنون يهذي، الزلزال أصابه بتربنة في المخ، منذ أن وقع وهو هكذا، يخلط بين الواقع وأمور لم تجر سوى في خياله، أوهام يتصور أنها واقع، ويصر على ذلـك إنه مجنون.

قال لها إنه جار لهم. شقته في العمارة، وقد أحضروه في انتظار أن يجدوا طبيبا للأمراض العصبية يعطيه حقنـة مهدئة، تجعله مثل الإنسان العادي؛ حتى يتمكنوا من نقله إلى المستشفى أو الذهاب به إلى السراية الصفراء.

نادرة كانت تصدق على كل كلمة ينطق بها تهـامي بهزة من رأسها، وعندما كان يبدو عدم التصديق على وجـه أمها، كانت تحلف بأيمانات لم تطلبها منها، على أن زوجهـا يقول الصدق والصدق نفسه، وأنه لم يكن يكذب فـي كلمـة واحدة مما قاله.

لكن الرجل الغريب جلس أمام المحروسة، وقال إنـه ليس مجنونًا وإنه في قمة عقله، وإن ذهنه لم يكـن صـافيا مثلما هو في هذه اللحظة ؛لأنه يكلفه كثيرا في هذا اليوم مـن كل أسبوع، عنده حالة صفاء، وقدرته على رؤية الأمور لـم تكن بالدقة التي يشعر بها، وأن اليوم هو الاثنين الثاني عشر من أكتوبر سنة ١٩٩٢ وإنه وقع في حوالي الساعة الثالثـة والربع زلزال كانت قوته خمسة وستة مـن عشـرة حسـب مقياس ريختر، وإنه أكبر زلزال مر بالبلاد منذ حوالي نصف قرن وإن مثل هذا الزلزال لو وقع في اليابان – مثلاً – فإنها مستعدة لمثل هذه الزلازل أما نحـن فغيـر مسـتعدين، وإن الخسائر ستكون ضخمة خاصة في الأحياء الشـعبية، وفـي البيوت التي انتهى عمرها الافتراضـي، وفـي العمـارات الحديثة التي تم غش مواد البناء التي استخدمت في بنائها.

وإنه يأتي إلى هنا يوم الاثنين من كل أسبوع ؛لأنـه يوم عطلته، فهو يعمل حلاقًا، يغلق صالونه ويـأتي ليـؤجر غرفة بالساعة، يدفع في الساعة الواحدة خمسين جنيها، مبلغ كبير أليس كذلك؟ فهو لا يملك مكانًا، إن كانت معـه امـرأة يحضرها وإن لم تكن معه امرأة فالست المحترمـة – بنـت الأصول – نادرة جاهزة.

قال هذا وأشار إلى ابنتها نادرة.

صوتت نادرة، وهاج زوجها، أما أمها فلا تدري لـم كانت تميل إلى تصديق ما يقوله الغريب، الشواهد هي التـي دفعتها لهذا.

قبل أن يتصرف تهامي الأسود ونادرة إزاء الحلاق. كان قد تم فتح باب الغرفة الأخرى. التي كانت مغلقة خـرج منها أربعة مرة واحدة، رجلان وامرأتان، كانوا بملابس شبه داخلية كانوا يسألون عن دورة المياه، أين هـي؟! والمطـبخ كيف الذهاب إليه؟ وكيف يمكنهم صنع فنجان شاي؟ أو عمل فنجان من القهوة؟ وأين يجدون كأسا من الويسكي أو شـوبا من البيرة؟ كانوا يتكلمون بألفة، وإحدى المرأتين الخارجتين من الغرفة كانت تقول لنادرة "نانو".

أكثر ما آلم المحروسة، التي لم تعـد محروسـة، أن المرأة التي كانت تلعب دور دليلهم، شبه العارية قالت لنادرة يا أم ناجح، كان الاسم يخرج من فم المرأة الخارجـة مـن الغرفة المغلقة، أو التي كانت مغلقة، بألفة من نطقت به كثيرا من قبل، يبدو أن الأمر تكرر وأن الذي تشاهده جـرى مـن قبل، يا ويلها. ليتها ما أتت هذه الليلة إلى بيت نادرة، ليتهـا ماتت قبل أن ترى ما رأت، وتسمع ما سمعت.

شعرت أن رأس زوجها في قبره قـد طقطـق، وأن عظام ظهره وهي التي تبقى حتى أبد الآبدين، قد انكسـرت، سمعت صوت تكسرها. وأن الطوبة التي وضـعوها تحـت رأسه قد تحركت من مكانها، وأن رأسه معلق فـي الهـواء. هواء القبر المكتوم، وقد يتعب بعد فترة من الوقت، وعليهـا أن تحاول الذهاب إلى القبر وتفتحه ؛حتى تعدل مـا مـال، وحتى تعيد الأمور إلى ما كانت عليه، ندر عليهـا أن تفعـل ذلك لا بد. وأن تقوم به. لا يمكن أن تترك الأمور، إن المتألم الوحيد من كل ما جرى هو المرحوم.

من المؤكد أنه لم يتركها لوحدها، إنه معهـا، وهـو يرى الموقف. لا بد أنه معها في الرحلة، وأتعب نفسه، ولـم

يسترح في نومته الأخيرة، فضل أن يصحبها فـي رحلتهـا الخرافية؛ حتى يكون معها وقت الحاجة.

ها هو وقت الحاجة قد أهل وأطل وفـرض نفسـه، الحزين الوحيد هو نجم الدين خسر رهان عمره الـذي لـم يراهنه عليه أحد خسر عائلته، رأس ماله، مشروع حياتـه، كانت محروسة تبحث عن عيني نادرة، تريد أن تلتقي العينين بالعينين ولو لبرهة أو ثانية، ولو لجزء من اللحظة من أجـل أن ترى فيهما أثر الذي يجري.

كانت ابنتها واقفةً تحدق في الفراغ بدت لها كبقرة أو جاموسة تهضم وتجتر وجبة من البرسيم أكلتها، لم تكن تحس أو تشعر. لم يكن في وجه ابنتها شيء يمكن التعرف عليـه، كل ما كان فيه احترق، ولكن بدون نار، لو كانـت مكانهـا لتمكنت من أن تشق الأرض وتبتلعها.

ابنتها كانت تحاول أن تبدو طبيعيةً، عاديةً. وجههـا مغطى بطبقة مـن اللامبـالاة، وعـدم الإحسـاس، سـألت المحروسة نفسها، متى جرى هذا لابنتها؟ كيف لم تأخذ بالها؟ وكيف لم تفهمه وتستوعبه؟ سألت نفسها: من الذي قاد نادرة في هذا الطريق؟ هل هو الزوج؟ هل هو العمل الحقيقي الذي

يقوم به الرجل العواطلي؟ الزوج الملعون، المشكلة أن كـل واحد أو واحدة من أولادها سار في طريق بمفـرده، سـكة لوحده، دون أن يكون معه أحد من أشقائه، وأنها هي نفسـها لم تدر ما جرى لهم.

الرجل الذي أفاق من سكره، وكان يتكلم، كما لو كان يقدم بيانًا عما جرى، قال للحاجة إن الشقة إما تؤجر للقمـار أو لعرض أفلام المزاج .عاد وقال" السكس ". يبدو أنه قرر الانتقام. ضحكوا عليه، وقال لأجعل عاليها سافلها، أن يهـد البيت على من فيه، ثم عاد ووصف نـادرة بأنهـا جدعـة وشهمة، ولم تقصر في القيام بالواجب، التقصير اليوم بسبب وجود الحاجة، إن كان صحيحا أنها أمها، طبيعة العلاقة مـع البيت ورجله – أو الذي من المفترض أنه رجله لا تجعلـه يصدق.

وقفت محروسة، كانت المرأتان قد دخلتـا الغرفـة بمفردهما، والرجلان واقفين يستعجلان المرأتين أن تنتهيا من ارتداء ملابسهما، حتى يدخلا فيلبسا، الصمت لم يعد ممكنًـا، تكلمت. لا تذكر ماذا قالت، كانت تنطق بكل الكلمات التـي

ترد على خاطرها، دون تفكير. تكلمت، كان كلامها هذيانًا لا يقوله سوى مجنون. تناجي البعيد، وتبكي بين يديه حالها.

تكلمت عن كل ما مرت به، عن سمكري السـيارات المغلوب على أمره، وربما كان ما يجري أمامها يحدث فـي كشكه الخشبي، تقوم به زوجته الراقصة، تحدثت عن ابنتهـا التي تنتظر العريس الذي لن يأتي، وعن القاضي المتغـرب وزوجته الحامل، والبنت التي تدعي أنها خطيبتـه، ونـادرة آخر أمل تعلق به أبوها، القشة التي أنقذت أباها مـن يـأس الأيام الأخيرة.

نظرت المحروسة إلى زوج ابنتها وهي تتكلم وكأنها تراه لأول مرة، شاربه على شكل خط أسود، منمق بعنايـة، ذقنه حليقة وشعره يلمـع، مسبسـب ومكـوي ومصـبوغ، وسوالفه تنزل إلى ما تحت الأذنين، وصدره يخرج منه شعر أسود.

كان يلبس جلابية بيضاء، وفي يده سبحه، وفي قدميه بلغه، ألا يبدو هكذا الذين يعملون في الكار؟! رنت في ذهنها كلمة واحدة: قواد. انسالت الكلمات من وعيهـا، معـرص، رجل يسهل المتعة للآخرين. تساءلت بصـوت عـالٍ: أيـن

بوليس الآداب ليقبض على الجميع؟ وهي مستعدة للذهاب معهم كشاهد إثبات.

قالت لهم وهي ما زالت واقفة في الصالة، تشير إلى نادرة، هل تعرفون من هذه الابنة؟ ماذا أنفق أبوها عليها؟ كان يحلم أن تكون الست الدكتورة، كان ينام فتأتيه في المنام وهي وزيرة، وكان يقول لو حدث هذا فسيعين نفسه حارسا لها، يحرسها حتى من نظرات الأعين.

كانت تتكلم عن أمور، بدا على ابنتها أنها لم تعد قادرة على تذكرها، ولم تكن تشعر أن ما تقوم به خطأ، كانت مستسلمة وكان صوت محروسة قد ارتفع، والأطفال الذين كانوا نياما في الغرفة الثالثة من الشقة، استيقظوا وخرجوا من باب الغرفة، يفركون أعينهم من الدهشة.

ظهر الأولاد في الوقت غير المناسب، محروسة لم يكن لديها وقت للسلام عليهم، وأمهم حاولت إعادتهم إلى الحجرة، وعندما رفضوا ضربتهم بقسوة، كما لو لم يكونوا أبناءها.

هل يمكن أن يقسو قلب الأم على أبنائها لهذا الحـد؟ هل يضرَب الطفل لكي ينام؟! إن الضرب لم يمكن محروسة من السلام على الأطفال وإعطائهم النقود بدلا من الهدايا التي جاءت من غيرها.

عندما كانت تأتي في المرات السابقة – هـل كانـت هذه الأمور تمارس في البيت؟! كان الأطفال يخرجون إليها، ينادونها ابتداء من جدتو حتى ماما الصغيرة ونينة الكبيـرة، يتعطر الجو بإنسانية تزيل عناء التعـب. الحبـور الكبيـر، والحنو البكر يجففان عرقها، ويعيدانها سنوات إلى الوراء.

توشك أن تصبح طفلة. ولدان وبنت. كم كانت نادرة مستعجلة في الخلفة؟ ألم يكن من الأفضـل الانتظـار حتـى يتضح الخيط الأبيض من الخيط الأسود؟ لـم شـالت الهـم مبكرا، ولد على اسم جده نجم الدين، والثاني على اسم خالـه ناجح لم يكن والدهما راضيا عن الاسمين، كـان يـرى أن يسمي الكبير شريف والأصغر نزيه، الشرف والنزاهـة أي شرف؟ وأي نزاهة؟ أما البنت قد سـمتها أمهـا محروسـة الصغيرة تمييزا لها عن محروسة الكبيرة.

خرج الأولاد. فوجدوا في البيت خناقـة. لا تعـرف محروسة إن كانت قد وقعت من قبل، أم أنهـا تجـري لأول مرة، خرجوا فتاهوا، كانوا يعانون مـن دهشـة مـا بعـد الاستيقاظ من النوم، ومنه إلى التوهان في مفردات المشـهد الذي كان من الصعب فهمه والتعامل معه بسهولة. والمشـهد الذي وجدوه في انتظارهم وكأنه معد من أجل صدمة ما بعد الاستيقاظ.

لم يتعرف الأولاد على جدتهم الحبيبة، ولـم يـرتمِ الأولاد فـي أحضـانها، ولـم يطالبهـا أحـدهم بالهـدايا والمصروف، ولم يقل لها إن فلوسها فيها بركة عن فلـوس والدهم، التي لا يرونها سوى في الأعيـاد، وفلـوس نـادرة القليلة والتي نادرا ما تقدمها لهم، أليس اسمها نادرة؟ كل مـا في حياتها نادرا، كانوا يطلبون منها تلك الطلبـات التـي لا تنتهي، وهي تستجيب وتجد سعادة في ذلـك، مهمـا كانـت تكلفتها المالية عالية.

كانت قد اقتربت من باب الشقة، وصـوتها أصـبح أعلى من أي وقت مضى، وأصبح كل ما يهم ابنتهـا نـادرة

وزوج ابنتها ألا يسمع الجيران الكلام الذي يقال، فالفضـيحة وراءه مباشرة.

ما إن فتحت باب الشقة، وأصبحت قدم فـي خـارج الشقة والأخرى في داخلها، حتى بدأ زوج ابنتها يصيح ويعلو الصوت، ينادي على الجيران، يقول لهم لا تصدقوها، امرأة مسنة أصابها الجنون، الإنسان يفقد عقله مع مرور الوقـت، فقدت عقلها من الزلزال، لا تمت إلينا بـأي صـلة، تشـبه حماتي، ألا يخلق الله من الشبه أربعين؟ هـذه نسـخة مـن الأربعين التي تشبه حماتي، سقط بيتها ظهـر اليـوم علـى أولادها وأحفادها، ماتوا جميعا، ولم تتمكن من الوصول إلى أشلائهم فجن عقلها، والمجنون لا يصدقه أحد.

يتعمد أن يرفع صوته أعلى من صوتها؛ حتى يغطي عليها، أو يشوشر على ما تقوله، يحاول الوصول إلى أعلـى صوت ممكن حتى يستمع الناس إليه، بدلاً من الاستماع إليها، تحركت فتحرك. نزلت على السلم فنـزل وراءهـا، حتـى وصلت إلى الشارع كان يبدو مثل صـبي العالمـة وطبـال الراقصة.

فكرت في زوجة ابنها نادر، في الصلة التي يمكن أن تربط بين زوجة نادر، وزوج نادرة. هل يعرفان بعضـهما البعض؟ هل يتعاون معها في العمل. فكرت أن تعدل وتبـدل زوجة نادر تصلح لأن تكون زوجة لتهامي الأسـود، ولكـن نادر ونادرة إخوة البدل لا يصلح، لا بد من بقاء الحال على ما هو عليه، إلى أن تقع معجزة، مع أننا لم نعد فـي زمـن المعجزات.

سألت ابنتها – في الخيال – إن كانت مدركـة لمـا تفعله؟ فقالت: نعم. كان لديها تصميم جنوني على المضي مع هذا الرجل، أصبح الصوت حاجزا بينها وبين ابنتها، أصـبح نهرا لا يمكن عبوره بسهولة من أجل الوصول إليها.

عند نزولها، اكتشفت أن الدرابزين قد اختفـى، وأن بعض السلالم لم يعد لها وجود، كانت نادرة نصـف شـابة ونصف طفلة عندما ودعت أمها، أصرت على الزواج مـن الرجل الذي أحبته، قالت محروسة لنفسها: ذنبها على جنبها، ولكن لا النصف الشبابي وجدته في ابنتها، ولا النص الطفلي أصبح له وجود.

فكرت هل يمكن أن تكون لنادر زوجة أخرى غيـر هذه الراقصة؟ وإن كان هذا ممكنًا فهل من الممكن أن يكون لنادرة زوج غير هذا النطع الذي لم يعد يعرف معنى كلمـة رجل؟ إن كان في قاموس حياته مثل هذه الكلمة.

توقفت عن الكلام، سواء بصوت عالٍ، أو بصـوت منخفض. كان من الصعب المواصلة. ليست مثله، وصـحتها ليست في حالة صحته، لا تقدر علـى مجاراتـه، فضـلات الصمت، التي فوق ابنتها، من لحمها. طلبت منه أكثـر مـن مرة ألا يتبعها على السلم؛ فهي تعرف طريقها، ولـن تفـتح فمها بكلمة واحدة.

أصر على أن يتبعها، رغم توقفها عن الكلام، بلعت لسانها، والهمهمات أصبحت موجهة إلى داخلها، آخـر مـا تدريه هو توسلها له أن يتركها في حالها.

لا تدري ما جرى لها، أغمي عليها ووقعـت علـى الأرض لحظتها فقط، عاد تهامي الأسود إلى الشقة، بعـد أن تأكد من غيابها عن الوعي. مر الأمر بسلام، وبعد وصـوله لم يخبر نادرة بما جرى لأمها في الشارع.

كان في طريق عودته لا يتمنى سـوى موتهـا، ألا تفيق، أن تكون النهاية، وألا يتعرف عليها أحـد. إن كانـت معها البطاقة. لن يتعرف أحد علي صلتها بهم، ولن تتسـبب في وجع القلب، أو دوشة الدماغ، فأصبحت هي من طريـق وهم من طريق، لن يلتقيا.

اجتمع الناس حولها، اختلط من يريد إنقاذهـا، بمـن يبحث عن فرجة،ومن يحاول سرقتها، وكان هناك من جرى يبحث عن بق ماء، ومن نادى عمن معه رشة كولونيا، قالوا: امرأة كبيرة في السن مسورقة وقالوا: غريبة وقالوا: مفرفرة.

يمر وقت ويعود وعيها، تسمع من يقول: الدهن فـي العتاقي، شربت السمن السائح في الأكواب، وأكلـت اللحـم البلدي قبل ظهور لحم الجمعية، وجدت نفسها في وسط أناس غرباء، وشاهدت وجوها لم ترها من قبل لا يعرفونهـا. ولا تعرفهم. وجهها مبلول. وبالقرب من فمها وأنفها أكثـر مـن زجاجة كولونيا حتى تشمها. كاد زحام الزجاجات يمنع الهواء عن أنفها .اختنقت من الناس. أوشكوا أن يحولوا بينها وبـين رحمة الله، لم تشاهد سوى الوجوه. حلقة من الوجوه، دائـرة من الوجوه تحيط بها من كل جانب، والكل يحاول إفاقتها.

الدنيا مازالت بخير، رغم الشر الذي تركته في شـقة ابنتها منذ دقائق، كانت متأكدة أن تهامي شاهدها وهي تسقط على الأرض، رأته بأم عينيها. متأكدة أنه لم يفعل معها مـا قام به الغرباء الذين لا يعرفونها. ولم يكلف خاطره أن يقول لنادرة ما جرى لها وهل بعد الذي شاهدته فوق شيء آخـر يمكن أن يقال؟

انصرف الناس من حولها واحدا بعد الآخـر. مـن ينصرف يقول لها: بالإذن يا جدتي .آخر المنصـرفين قـال لها: تممي على ما كان معك، الأمر لا يسلم، قبل أن تقوم من على الأرض، كانت جالسة وحولها ماء وتراب وآثار أقدام، مدت يدها إلى المحفظة التي ورثتها عن المرحـوم محفظـة رجالي تشعر أنها محصنة ضـد السـرقة، روح المرحـوم تحميها في أي مكان تذهب إليه. إن المحفظة فيهـا البركـة. الأموال فيها تزيد ولا تنقص.

فتحتها. لماذا خيبت ظني هذه المـرة يـا محفظـة الغالي؟! اليوم فقط أدركت معنى كلمة المرحوم؛ إنـه لـيس معي، رغم كل محاولاتي أن أوهم نفسي، أن حسـه ونفسـه معي، يؤنس وحشتي ويبدد غربتي، ويقول لي في كل لحظة

لست وحدك، اكتشفت ضياع كل ما هو أموال وفلوس. وبقاء الأوراق: سركي المعاش. وكارت التأمين الصحي. والبطاقة العائلية ونوتة التليفونات والعناوين، لم يأخذوا الدواء ؛لأنهـم قد لا يعرفون طريقة استخدامه وما إن كان مفيدا أو ضـارا لهم.

غضبت في سرها على المبلغ الذي ضاع. فكرت في عمل هليلة، وإحضار البوليس، وعمل محضر، ولكـن مـن سيجد الوقت للاهتمام بها؟ عمارات وقعـت، وخلـق قتلـى وجرحى في المستشفيات، وهي تقول إن فلوسـي ضـاعت، ربما قالوا لها احمدي ربنا إن أنفاسك مازالت تتردد.

هل تقول الفلوس في ستين داهية؟ ربما كانت تقـول هذا لو كانت في البلد، يمكنها أن تعيش شهورا دون فلـوس، الخزين في البيت. وتجر شكك على النوتة دون أن يطالبهـا أحد. الفلوس هي كل شيء. معك قرش تساوي قرشًا. معـك قرش لا يقترب منك سمك القرش. ليس معك فلوس تصـبح مهانًا ذليلاً في كل لحظة تمر عليك.

قضا أخف من قضا. الفلوس يمكن تعويضها، ولكـن الأوراق من الصعب استخراج بدل فاقد أو بدل تـالف لهـا.

كانت العملية ستتعبها. تعبا قد يصل إلى حدود البهدلة. ستاف وتدور حتى ينهد حيلها. بدون فلوس. ماذا سـتفعل وجيبهـا خالٍ؟ مشكلة جديدة تضاف لمشاكلها وما أكثرها. ماذا يمكـن أن تفعل؟ إلى أين تتجه؟ وكيف؟

تجلس بمفردها. تفكر في حالها. تفتش من جديد فـي أجندة العناوين التي معها.

١٣

.. لم يكن أمامي سوى الذهاب إليها، فأنا في عـين شمس وهي في مصر الجديدة، كانـت قـد أصـرت علـى إعطائي رقم تليفونها، وأنا في البلد، وكانت عايدة قد دونـت لي بياناتها في ورقة وأعطتها لي. قالت إنها ستكتب لي رقم تليفونها، ولكنها دونت – علاوة على ذلك – كل البيانات التي تمكنت من جمعها عنه، ومن ضمنها عنوان بيتها.

لا حل سوى هذا.

لا مفر.

لا مفر من ركوب التاكسي، وهـو مـا حاولـت أن أتجنبه من قبل، أسمع عن ارتفاع أسعار التاكسـي، أسـمع أرقاما فلكية، وحكايات يشيب لها شعر الرأس عـن سـائقي التاكسي، الذين يركبون ركابا على ركاب، وسائقي التاكسـي الذين يخطفون الراكبات، ويذهبون بهـن إلـى الصـحاري البعيدة.

ركبت التاكسي من قبل، ولكن هناك فرق، ركبته من قبل في مشوار قصير، وتحت ضوء النهار الساطع، والنهار

عزوة لمن لا عزوة له مثلي، أما هذه المرة بالمشوار طويل، لا أعرف تكلفته بالضبط والوقت ليل. وكـل مشـوار فـي المدينة له أكثر من سكة، والفارق بين سكة وأخرى. يصـل إلى ما هو أكثر من الضعف بل الأضعاف أحيانًا.

لو خطفني سائق التاكسي وجري بي، يا حسرة لـن يجد معي ما يستحق المغامرة، الفلوس وضـاعت، صـرت على الحميد المجيد، كل المشكلة أنني لن أجد من يقلق علـي ويبلغ البوليس عن غيابي، ليس لي صاحب في هذه المدينـة التي تسكنها الملايين.

قلبي عامر بأنه لن يصبني إلا مـا كتـب الله لـي. توكلت على الله قرأت الفاتحة في سري، قـرأت الصـمدية، سلمت أمري لله وانتظرت، سيارة تاكسي قديمة، ربما كـان هذا ضمانًا، المهم أن توصلني، هل سأشتري السيارة؟ أم هي مجرد توصيلة؟

جاءت سيارة قديمة. أقدم من القدم نفسه، شكلها يقول إنها ربما عاصرت طوفان سيدنا نوح عليـه السـلام. كـان السائق أكبر مني في السن ،وأكبر من المرحوم لو امتد بـه العمر، وهذه ميزة تحسب له، كانت هناك راكبة تجلس فـوق

الكنبة الخلفية، ترددت عندما رأيتها، من أدراني إلى أين تريد الذهاب؟ راكبة قبلي لا بد من توصيلها أولاً، ثم ربما كانـت واحدة من العصابة التي ستخطفني، وهذا الرجل الكركوبـة مجرد ديكور ؛لإيقاع الزبائن.

يبدو أنه قرأ أفكاري. أشار السائق للراكبة الوحيـدة التي معه وقال إنها زوجته ولوجودها معه قصة سيحيكه لي إن كان من نصيبي الركوب معه.

كنت قد تجنبت سيارات الأجرة الجديـدة والكبيـرة والفخمة، وتجنبت أيضا سيارات الأجرة التي يقودها شـبان حديثو السن. قلت إن كبار السن هم العملة الصعبة بين سائقي التاكسي. وكبير السن هو السائق الوحيد الذي يمكنه الصـبر علي عندما أصل إلى المكان الذي سأتوقف عنده، حتى أصعد وأحضر الفلوس وأعود له، وإن وصلت ولم أجد أحدا – وهو احتمال قائم – يمكنه أن يواصل المشوار معي إلى أي بيـت آخر أحب الذهاب إليه، حتى لو كان بيتنا في البلد.

وقفت السيارة ورغم أن أولادي كثيرا ما يحذرونني من فكرة الركوب بجوار السائق، يطلبون مني ويلحـون ولا

ينسون أن يفكرونني أكثر من مرة، أن أجلس علـى الكنبـة الخلفية.

يقولون إن الجلوس بجوار السائق خطأ، ولكني كنت أريد أن أصبح قريبة منه، وأن أحكي له بعض ما جرى لي؛ لأنني لا أضمن أن التي سأذهب إليها يمكن أن تكـون فـي البيت، وحتى إن كانت في البيت،فهل سأجد الفلوس معها في هذا الوقت من الليل؟

قبل أن أضع قدمي في السيارة، وأنا فـي الشـارع والسيارة متوقفة رغم أن صوت موتورها كان يزحم المكان، رفعت صوتي وقلت له:

لا فلوس معي، الحالة جيم، أنا على الحديدة، لا يوجد معي مليم واحد، وأن التي ستدفع الفلوس هي السـت التـي سأذهب إليها.

وعندما أصل عليه الانتظار لحين صعودي وعودتي بالفلوس إليه .قلت الجملة التي يرددها الناس في هـذا البلـد بمناسبة وبدون مناسبة، الشرط قبـل الحـرت ولا الفصـال بعدين، إن قبله سائق التاكسي أهلاً وسهلاً وكان بها، وإن لم

يقبله أبحث عن غيره ويسهل له ربنا بزبون غيـري يكـون جيبه عمران ومحفظته دافية.

كنت قد فضلت الذهاب إليها بدون اتصال، التليفونات مازالت لا تعمل. ليس عندي يقين، ولكن خلال وقوفي كـان بالقرب مني كشك فيه تليفون، لم يقترب منه أحد، ثم إنني لو تكلمت في التليفون لن تكون هناك فرصة لقول ما أريد قوله. والأهم من كل هذا أنني ليس معي ما يمكن أن أدفعه مقابـل المكالمة التي ربما طالت أكثر مما أتصور.

ليس الخطأ ضياع الفلوس ولكن الخطأ الأكبـر هـو وضعها في محفظة وحيدة، حتى لو كنت أتفاءل بها؛ لأنهـا من ريحة المرحوم. ابني نجيب القاضي كان من عادتـه أن يوزع فلوسه على أكثر من جيب، ليس خوفًا مـن السـرقة فهل في بلدنا من يمكن أن يسرق قاضيا؟ ولكن لأنـه كـان يؤمن بالمثل الذي يقول: لا تضع كل البيض في سلة واحـدة .وأنا لا أحب من الأمثال سوى البلدي.

مرة أخرى فكرت لِمَ تضيع الفلوس في هذه المدينـة التي يتكلم فيها الناس بالفلوس؟ إن قلت سلامو عليكو لأحد لا بد وأن تقولها وتقدم معها ثمن الرد عليهـا، وإلا لـن يـرد

عليك، ولولا الكسوف يطلبون منـك ثمـن الهـواء الـذي تستنشقه. والابتسامة التي تراها، لا بد من تسـديد فاتورتهـا قبل أن تطالعها.

كل شيء في هذه المدينة لا بد من دفع ثمنه مقدما لم يكن مطلوبا أن أحكي لسائق التاكسي قصة حياتي ورحلتـي بحثًا عن الاطمئنان المستحيل، عند أولادي، وأنهم بخير وأن الزلزال لم يصبهم بسوء.

وسائق التاكسي لم يكن راغبا فـي الاسـتماع إلـى المزيد على عكس سائقي التاكسي الآخرين، ولم يكن مهتمـا بالفلوس، قال لي:

– خليها على الله.

وعندما شك أن الكلمة لم تصلني قال:

– ارمي حمولك على الله أنا، وأنـت علـى بـاب الكريم.

ليست لي خبرة بشوارع مصر؛ حتى أتأكد أن السائق يسلك الطريق المختصر والقصير، ويراعي ربنا وضـميره في سيره، وأنه لا يلف ويدور بي بدون مبرر. العداد كان لا

يعمل، مثلما أسمع عن كل العدادات في جميع التاكسيات في مصر. لم أكن أعرف الأتوبيس الذي كان يمكنني ركوبه حتى يوصلني، وهل يمكنني صعود الأتوبيس، ثم أقول للكمساري ليست معي فلوس؟ وحتى إن كان المحصل ابن حلال مصفي وقبل الكلام، ماذا سأفعل عندما يصعد المفتش ويبدأ في التفتيش على التذاكر؟

وإن كان المحصل بندري لا ينحدر من قرية، فلا بد وأن ينتهي الأمر في القسم. يوقف الأتوبيس بصفارة عالية ويطلب مني النزول أمام الجميع، دون أن يرف له جفن، أو أن تأخذه بي شفقة، والفرجة والجرسة، وربما الفضيحة ستكون من حق كل الركاب. حتى ولو كانوا مثلي قد حضروا صباح اليوم من الريف.

لم أفكر في المشي. لا أعرف المسافة بين المكان الذي أقف فيه، والمكان الذي أرغب في الذهاب إليه ولا أعرف الطريق، وحيلي مهدود وصحتي عدمت وقدرتي على تحريك قدمي تاهت ولم يعد لها وجود. المشي مضى زمانه وراح أوانه أصبح ذكرى من ذكريات الماضي.

لم أستجب لنصيحة أبنائي التي تقضي بمقاولة سائق التاكسي قبل أن يتحرك، ذلك أن عدم الكلام في الفلوس معناه أنني عند الوصول لا بد وأن أبدو كمـن تكتشـف ضـياع فلوسها، وذلك من ورد الفعل على هول مفاجأة الرقم الـذي يقوله سائق التاكسي.

وأنا قلت له على حكاية الفلـوس وعـدم وجودهـا، والطريقة التي سأدفع بها، ومن التي ستدفع له وهي السـت التي أنا ذاهبة إليها، وإن كان لا يعرف حقيقة علاقتي بهـا، وبالتالي لا داعي للطمع في من جانبه.

هو رجل متقدم في العمر تبدو قدمه على باب قبره، وكلما اقترب الإنسان من نهاية كل النهايات غسل نفسه مـن أطماع الدنيا، التي تبدو لا معنى لها في مرحلة متقدمة مـن العمر.

عندما فتح فمه ليتكلم اكتشفت عدم وجود سنة واحدة في فمه، ثاني أترم أقابله في يوم واحد. تكلم عن الزلـزال، قال إنه نزل من بيته بمجرد أن وقع الزلزال، مع أنـه كـان عائدا لتوه من الخارج، وهو عادة لا يعمل فـي الليـل؛ لأن أولاد الحرام لم يتركوا لأولاد الحلال شيئًا.

يعمل في فترة الصباح فقط قبل ظهر يـده اليمنـى وقبل باطنها وقال إن الرزق الذي أتى من هذه الفترة يكفـي هو بذوره وزوجته بذورها وأقل القليل يكفي.

تصور أنه قد تكون هناك زيادة كبيـرة فـي طلـب التاكسي أكثر من المعتاد، والسيارة موتورها في حاجة إلـى عمره، يؤجلها لضيق ذات اليد، ما يأتي يساوي ما يصرف، على أن السبب الجوهري لنزوله خوفه من مجيء زلزال ثانٍ من تلك التي يقولون عنها توابع للزلزال الأول؛ فوجوده فـي التاكسي أكثر أمانًا من بيته القديم المتهالك الـذي أوشـك أن يقع، نزل إلى السيارة، ونزلت زوجته معه. خوفًـا مـن أن يتركها لوحدها في البيت فينهد عليها. إن بقاء البيـت بعـد الزلزال الأول معجزة، مع أن بقاءه ليس معناه أنه سـيبقى، يمكن أن يقع وهناك التوابع التي يتكلمون عنها.

كل ما فعله بعد أن قرر أن يقضي الليل في التاكسي ومعه رفيقة عمره أن يبتعد أثناء سيره عن العمارات العالية؛ حتى لا تقع عليه. وأن يسير في نهر الشـارع، وإن ركـن التاكسي فليكن في الخلاء بعيدا عن أي مبانٍ.

وصلنا إلى مصر الجديدة، دخلناها، فوجئنا بارتبـاك المرور، كانت الشوارع مغلقة والتحرك إن تم – كان بطيئًا للغاية، والغبار يجعل الرؤية صعبة، إن لم تكن غير ممكنة، والأتربة يمكن أن تشاهدها. كان من الصعب رؤية سماء الله العالية من كثافة الغبار الطائر في الجو.

سمعنا أصوات سيارات مطافئ وسـيارات إسـعاف وسيارات نجدة. كانوا يفسحون لها الطريق ؛لتمر مسـرعة. سمعنا ونحن نتلكأ في المشي بين إشارة وأخرى أن عمـارة وقعت للتو في هذا الحي. وأن العمارة وقعت على من فيها، وأن سكانها الذين تصادف وجـودهم فـي العمـارة لحظـة سقوطها ماتوا. طلبنا لهم الرحمة، ونظر السائق إلى زوجتـه نظرة ذات معنى، يطمئن على وجودها معه، وتقول نظرتـه إن فكرته بنزولها معه جعلتها تتفادى مصير سكان العمـارة التي وقعت. لم أشأ أن أسألهم عن الأبناء والأنجال والأحفـاد والبنات والحفيدات؛خشيت أن يؤدي هذا السؤال، إن نطقـت به، إلى فتح دفاتر الألم والحزن والحسرة.

كما لو أن الزلزال وقع في هذه اللحظة فقط. هذا ما أحسست به وأنا أشاهد الناس، كانوا يتصرفون كما لو كـان

يوم القيامة قد قام. تساءلت: هل وقع زلزال جديد؟ لـم يـرد علي أحد. كان خبر العمارة قد أصابنا بحالة من الارتبـاك. والسائق بدأ يتساءل عن مصير منـزلهم العتيـق. وجهـت سؤالي له فقال: يجوز.

لم اختارت العمارة هذا التوقيت بالذات من أجـل أن تقع؟ غريبة. شرح لي الرجل فكرة توابع الزلزال التي تكلموا عنها. إن بعض المباني يمكن أن تقع بعد فترة من الزلـزال، ليس شرطًا أن تقع العمارات لحظة الزلزال. قلـت: لا بـد وأنها عمارة عتيقة، كانت ستقع بالزلزال وبدونـه، اختلـف معي. قال: إن مصر الجديدة مـن الأحيـاء الجديـدة غيـر المعمرة وأقدم مبنى في الحي لم يكمل نصف قرن من عمره.

عدت أسأل سائق التاكسي عن أقصر الطـرق إلـى العنوان الذي معنا قال لي إن كل شارع في المدينة مر فيـه ثلاث مرات. بعض الشوارع المشهورة مر فيها أكثـر مـن مائة مرة. قرأ العنوان وتمعن فيه، وتعرف عليه وأكد لي أنه يمشي في أقصر الطرق إليه.

عندما قلت له، مرة أخرى، إنني لن أدفع له الفلـوس إلا بعد أن أجد الإنسانة التي أذهب إليها، وهناك احتمـال ألا

أجدها لم أكن أعرف حقيقة هل تعيش بمفردهـا؟ أم معهـا عائلتها؟ إن كانت وحيدة وصغيرة وجميلة في هذه المدينـة. يخاف الإنسان عليها ألا أقول إنها تمشي على حل شـعرها، ذلك إنني لي بنات وحفيدات، والكلام عن النسوان حرام. أنا حرمة وأعرف ذلك.

لم يبد عليه أي ضيق. قال ببساطة:

– الجيب واحد وليس هناك فارق.

طمأنني – أكثر مما كنت أتصور – علـى الفلـوس التي كنت قلقة بشأنها.

في منتصف الطريق، وبعـد أن ظهـر موضـوع العمارة الذي أصبح من المتوقع أن يؤخرنا كثيرا، عدت أتكلم عن الفلوس. كنت في حقيقة الأمر أحاول الهروب من حالة الذعر المستعادة التي بدأت تطل على الوجوه مـن حـولي. أكثر من رغبتي في الكلام عن الفلوس.

حاولت زوجة السائق التي كانـت تنـام وتصـحو متعاملة مع الكنبة الخلفية كأنها سـرير فـي غرفـة النـوم تخصها. ولكن الذعر والهلع الذي كنا نمر به، والأصـوات

المتداخلة أيقظتها من النوم. حاولت أن تـتكلم عـن جحـود الأبناء، لدرجة أنهم لم يفكروا في السؤال عن أبيهم، وعـن أمهم. اللذين يعيشان بمفردهما في بيت قديم بعد الزلزال.

قلت: ربما نزلوا للسؤال والاطمئنان.

يبدو أنني استرحت لهذه الفكرة. قلت للزوجة والزوج إنهما عندما يعودان سيجدان عند الجيران الخبر اليقين عـن حضور الأولاد من أجل الاطمئنان. ذكرتهما أن التليفونات لا تعمل من لحظة الزلزال وغياب التليفونات لا يوفر لهم فرص الاطمئنان عليهما.

تكلم الرجل وكانت المرة الثانية التي أرى فيها فمـه الذي بلا أسنان وبدا كالبئر. قال: ألا يكفي أنهم يتركونه يعمل على التاكسي في هذا العمر؟ رغم المراكز التي يعملون فيها؟ والدخول الضخمة التي تدخل جيوبهم؟ هل بعد هذا ثمة شيء آخر يمكن أن يقال؟!

بعد صمتهم أحسست أنني قد جاء دوري لكي أتكلـم أنا أيضا خفت لو تكلمت. لو بدأت الكلام لما انتهيت مما أريد

قوله قبل الغد. ما عندي مثل ما يتألمان منه آلاف المـرات. اكتفيت بالتعليق الذي يعطي الانطباع بالمشاركة فقط.

تساءلت: ماذا أصاب أولاد هذه الأيام؟ من أين يأتي لهم كل هذا الجحود الذي يشعرون بـه؟ ويتعـاملون علـى أساسه؟ لم أكمل تساؤلاتي؛ لأن أحد الركـاب أشـار لنـا، ورفض السائق أن يركبه. قال إنه لا يقبل وجـود شـخص غريب وهو مع أسرته ؛أدركت أنني وفقت في اختيار السائق الذي يمكن أن يوصلني بأقل الخسائر الممكنة. بـل شـعرت بالاطمئنان لأول مرة منذ أن بدأت رحلتي. لم أصبح معنيـة بالعثور على خطافة الرجالة التي كانت تبدو لي طوق النجاة الوحيد، لو لم أجدها سأذهب إلى عايدة. وإن لم أذهب إليهـا يمكن أن يذهب هذا الرجل وامرأته معي إلى البلد، ويقضيان بعض الأيام هناك على الأقل أضع جراحي على جراحهمـا، ونبني من الجراح هرما جديدا يقال عنه الهرم الرابع، أخزن دموعي مع دموعهما ونحفر لها نيلاً جديدا، يصبح لدينا نيل دمياط ونيل رشيد ونيل ثالث مع الدموع يصبح اسمه: نيـل الدموع.

كان يشكو من قلة العمل، العمل قليل رغم الزلـزال، هل السبب وجود أم أولاده معه؟! جرحت كلمة الأولاد سقف فمه فخرجت وكأنه لم يكن يرغب في النطق بهـا، خرجـت غصبا عنه ودون إرادة منه.

كان يتصور أنه سيعمل بصورة جيدة لم تحدث مـن قبل، خُيل له – لحظة وقوع الزلزال – أن الناس ستهج مـن بيوتها وتطفش منها، لا بد وأن كل الناس فعلت ما فعل هو. نزلوا إما بحثًا عن مكان عام يقضون الليـل فيـه أو لكـي يطمئنوا على بعضهم البعض؛ ولأن التليفونات كانت معطلـة – و لأول مرة – في كل أنحاء البلد، كان يتصور أن نصف سكان البلد سيكونون في الشوارع، يجرون ويلهثون ويبحثون وينتقلون من مكان إلى آخر.

الصورة في الواقع اختلفت، فالحركة قليلة والإقبـال محدود وبسيط، مع أن هذا اليوم – بصرف النظر عن وقوع الزلزال من عدمه – هو يوم الذروة الأسبوعية في العمـل، فهو أول أيام الأسبوع في الأسواق، وهذا الوقـت المسـائي الذي يصبح الجو فيه جميلاً يصبح النزول من البيوت رغبة عامة وأمنية مشتركة عند الجميع ولكن هنـاك أمـرا غيـر

مفهوم حدث ربما فهمه فيما بعد ووجد له تفسيرا أما في هذه اللحظة، فليس عنده تفسير يمكن أن يقتنع به.

وصلنا إلى مكان قال لي فيه إن هذا هو العنوان، كان قد سأل مرة أو مرتين، مرة سأل عن الشارع وأخرى سـأل عن رقم البيت. أكد لي أنه يسأل من باب التأكد فقـط؛ لأنـه يعرف المكان كما يعرف كف يده. أنساه الوصول الأمر الذي لم يفهمه.

بعد أن نزلت بدأ يستعد للمشي أنا التي أوقفته سـألته هل نسي أنه لم يحصل على أجره؟ قال إنه متـذكر ولكـن بعدين. كان إصراري لا يقبل المناقشة أن ينتظرني .متذكر. وضعت حقيبتي على الكرسي الذي كنت أجلس عليه؛ حتـى يضمن عودتي، وأقسم هو بكل الأيمانات أن آخـذ الحقيبـة معي، عرضت أن تصعد زوجته معي. قال لي: الدار أمان.

دخلت البيت، كان قلبي محاطًا بطبقة من الزبد. كـل ما سألت عنه وأنا أوشك أن أطير مـن فـوق الأرض مـن الحبور. كان رقم الشقة؛ لأن اسم صاحبة الشـقة لـم أكـن أعرفه، ولم يكن من الذوق ولا من اللياقة سؤال عايدة عـن اسمها.

هي لم تقله من نفسها. وأنا من جانبي لم أسألها، بـل لم أفكر في ذلك. وهل من المعقول أن أسألها عن اسم امرأة تحاول خطف زوجها منها؟ قد تصبح هذه المرأة – لا قـدر الله ولا كان والعياذ بالله – ضرة لها.

عايدة هي التي أعطتني العنـوان ورقـم التليفـون وعنوان العمل، ولكن ما دامت لم تشأ أن تكتب الاسم بخـط يدها، أو أن تقوله بلسانها، فهذا حقها وليس من حقي أن أفتح جرحها.

من المؤكد أن عايدة تعرف اسمها، مـا دامـت قـد عرفت كل هذه البيانات عنها. ومن المؤكد أيضا أنها تجنبت ذكر الاسم. كنت مطمئنة لعدم معرفة عايدة بمشواري هـذا بسبب سكوت التليفونات الأبدي .أصيبت بالسـكتة القلبيـة. عايدة لن تكتشف غيابي في الوقت الذي سأقضيه عند خطافة الرجال، ذلك أن معرفتها بأمر حضوري قد يجرح مشاعرها، ويخلق مشكلة معها لا أعرف كيف تنتهي.

دخلت، ضربت الجرس، في أقل من الثانيـة كـان الباب ينفتح، هذا أسرع باب فتح في وجهي، منذ أن جئت من البلد وكأن ساكنته كانت تنتظرني. كانت البسـطة مظلمـة،

والشقة من الداخل كانت مضاءة وعلى الضوء الخارج مـن الشقة رأتني فعرفتني، سلمت علـي، لا أعـرف مـن أيـن عرفتني؟ لكنها رحبت قائلة: أهلا يا طنط، وهي تقبلني قالت:

- يا أم الحبيب الغالي.

سألتها وأنا أحاول وقف أي مشاعر في داخلي تكون قد تحركت تجاهها:

– كيف عرفتني؟!

شدتني من يدي بألفة غريبة ودخلت. قالت:

– وهل سنتكلم ونحن نقف خارج الشقة؟

قلت لها وأنا أشعر بخجل شديد:

إن أموالي نشلت، والتاكسي ينتظر في الشارع أمام باب العمارة.

فهمت الأمر بسرعة .جرت إلى داخل شقتها، دخلت غرفة نومها، شاهدت ذلك في وقفتي، أحضرت كيس نقودها وهي توشك أن تطير من فوق الأرض نزلت لكي تحاسـبه،

تصرفت وكأنها كانت تنتظر أن أحضر إليها بهذه الطريقـة. ليس معي فلوس، وتنزل هي وتحاسب التاكسي.

كنت واقفة أتطلع إلى الشقة الواسعة والفسيحة، يبدو أنه لا يعيش فيها سواها، لم يكن معها أحد، صعدت مبهـورة الأنفاس يكاد قلبها يخرج من صدرها، سعيدة فرحـة تلـف وتدور حول نفسها، راقصة باليه أم مدرسة ألعاب رياضية؟

قالت لي إن السائق كان ينتظر من أجل الاطمئنـان علي وإنه رفض أن يحصل على مليم واحد، أعطاها شنطتي، ورفض الفلوس. قالت إنه مشي، كان رفضه قاطعا ولم يكن حاله تمنعا.

١٤

.. نظرت إليها. بنت من بنات هذه الأيام. جلد علـى عظم. لا أحب هذه البنات التي يشبه عودها قـوام الرجـال. البنات المعضمة. النحافة تعني الجوع. والجوع يعني الفقـر، وأنا لا أحب الفقر من كثرة ما مررنا به في حياتنا.

وجهها هزيل. شعرها رجالي قصير.. ماذا وجد فيها ابني ليحبها؟ تبدو هادئة في عالمها الصغير. ولكنـه عـالم صمم من أجل الانتظار. كل شيء في انتظار الرجل. تكشف نفسها كخيط من السمار. ألـم يقولـوا إن السـمار نصـف الحلاوة؟ مع أن البياض من وجهة نظري هـو الحـلاوة نفسها. تسير على الأرض وكأنها تحلق. أو تستعد للـرقص. أراقب قدميها اللتين ترتديان جوربا أسود. والثوب يبدو كأنه جزء من جسمها.

طلبت مني الجلوس في الصالون دقيقة واحدة. سألتها أول سؤال خطر على بالي:

– ما اسمك؟!

ضربت صدرها بقوة كما يفعل أولاد البلد. قالت:

- محسوبتكِ ندا. لكن الاسـم الـذي فـي أوراق الحكومة هو: صولجان. والذي أطلق علي نـدا هو ابن حضرتك. اسم دلع يعني. ومن حبي لـه تناسيت اسمي الحقيقي.

دهشت من اسمها الأول: ندا حتى حرف النون حافظ عليه حبيب عيني، وهو يحاول أن يخطو بعيدا عن بيته وأهله وزوجته. أما الاسم الذي في أوراق الحكومة كـان صـعبا علي. كان حبيب قلبي عنده حق عندما أطلق عليهـا الاسـم الجديد. ما معنى صولجان؟ أليس هو هذا الشيء الكبير الذي يوضع على رءوس الملوك والسـلاطين فـي المسلسـلات التاريخية التي يعرضها التليفزيون في رمضان؟ الصـولجان أليست كلمة مشتقة من السلطان؟!

كانت تقرأ أفكاري. قالت إن اسم صولجان لا دخـل لها فيه أهلها هم الذين أطلقوه عليها وهي في اللفة. لا تعتبره اسمها. هي ندا فقط وستقوم بعمل إجراءات تغيير اسمها حتى يصبح ندا هو الدلع واسم الورق الحكـومي. وتنهـي هـذه الازدواجية. ندا كان الاسم الأكثر جمالاً. كيف فات نجم هذا

الاسم؟ كيف أفلت منه؟ ولم يطلقه على إحدى بناتـه؟ كـان أفضل من الأسماء التي أطلقها على الصبيان والبنات.

شيء من ريحة المرحوم. هل كان نجيب يضع ذلك في اعتباره عندما تعرف عليها واقترب منها؟ سألتها: كيـف تعرفت على نجيب؟ قالت إن العصفورة هي التـي عرفتهـا عليه. اكتشفت فيما بعد. إن كلمة العصفورة لازمة تستخدمها كثيرا في كلامها.

قالت ندا للست المحروسة:

– لو أن التليفونات تعمل. لاطمأنت على باقي أفراد العائلة – ما عدا واحدة فقط – بالتليفون؟

سألتها نينة محروسة:

– وهل تعرفين أرقام التليفونات؟
– نعم.
– وكيف عرفتها؟
– الذي يسأل لا يتوه يا نينة.
– ومن الذي سألته؟
– العصفورة.

نظرت إليها بعناية. نظرة طويلة وعميقة. هذه البنت تناسب ابنها نادي. مدرب الرياضة. نحيف. بسيط وبسـيطة. رياضي ورياضية. فقير وغنية. شاب في أول أيـام شـبابه. وشابة توشك أن تودع شبابها.

لم تقل لي إنها رياضية. ولكن شكلها الذي لا تحبـه، وقوامها الذي لم تسترح له. يقولان إنها تلعب أكثر مما تأكل. تتنطط أكثر مما تعاف نفسها.

ستكون خطة ماما محروسة أن تعـرف نـدا علـى نادي، وأن تربطهما معا. وبذلك ينجو نجيب منها. وتخـرج زوجته من أزمتها، ويأتي ابنه. حفيدها الحقيقي، ولا يجد في انتظاره مشاكل تذكر.

كانت ندا تتعامل مع مامتها محروسة بألفـة. كأنهـا تعرفها منذ سنوات. قالت محروسة: هذا مـن كثـرة كـلام المعدول عني معها. كانت محروسة حـذرة تجاههـا. فكـل خطوة عاطفية تقوم بها تجاه هذه البنت تشعر أنها تخون بها زوجة ابنها عايدة. وأنها تغضبها دون أن تدري.

جاءت محروسة لكي تقطع ما بين هذه البنت وبـين ابنها. لتبعدها عنه. لتجعل لها طريقًا غير طريقـه، ليصـبح اللقاء بينهما مستحيلاً.

لكن البنت تفرش لها دروبها مـن المحبـة. تصـنع بينهما سكة من رموش العين. ومن خفـق القلـب. تتعامـل ببساطة. لم يعجبني منظر ساقيها. أقول عـن التـي مثلهـا، رجلاها تشبهان أرجل المعيز. وهذه أكبر شـتيمة يمكـن أن أقولها عن امرأة.

سألتها وأنا أضع عيني في عينها مباشرة. لماذا لـم تتزوج حتى هذه السن؟ مع أن ظروفها تقول إنهـا زوجـة مثالية؟ أي رجل يتمناها. لو قالت لي بنت بنوت كنت سأقول لها. بل بنت فاتها قطار الزواج. وهي تقـف علـى أبـواب العنوسة. قالت لي بهدوء إنها مطلقة.

امرأة غيرت فرشها، وبدلت رجلها. إما ضـحية أو غاوية رجالة. نظرت لها. إن كان يمكن القول إن فيها لحمـا فإنه فوق فقط. كلما نزلت لتحت بدت النحافة. مع أن جمـال المرأة يبدأ من كعبيها الحمراوين. أول قدمها الذي يبدو مثـل يد الهون جمالاً وحلاوة. أما هي فسلوعة في سلوعة. حاولت

الهروب من المقارنة بين عايدة وندا. كلما حاولت الهـروب فرضت نفسها علي .المقارنة فـي صـالح عايـدة. جمـال وحضور وتعامل ونفسية. إيش جاب لجاب؟

سألت نفسي. أين ومتى وكيف أحـب ابنـي هـذه المطلقة. وماذا وجد فيها من الأمور التي لم يجدها في عايدة؟ غريب أمر الرجال. وكيف أخفى عني الحكاية؟ كانت ميزته أنه لم يعرف الكذب. لم يكن يقول سوى الصدق. كأن الصدق يمشي على قدمين. وسط غابة من الأكاذيب. وكان انتشـار واستشراء الكذب يجعله أكثر تصميما على الاحتماء بصدقه. ولكن هل يعد الإخفاء كذبا؟! لم أسأله عن هذه المرأة حتـى أقول إنه كذب عندما رد علي وأخفي أمرها عني.

هل نسي نجيب أن عايدة حامل؟ كنت أسمع أن كثرة الكبت والفكر تولد الانفجار. مع إنه أهم ما يميزه هو عقلـه وتفكيره. كان وسيظل حبيب عمري. أخا عمري. ما إن هلت عليه المراهقة. وكنا نسير معا في الشارع. حتى يقولون إننا حبيب وحبيبة.

من المستحيل أن يكون ما بين نجيب وندا حبا. مـن ذلك النوع من الحب الكبير. إن ما بينهمـا لا يخـرج عـن

غرف النوم. ليس حبا. قد يكون بيعة وشروة. ولكن مشاعر لا.

دقت الساعة دقات بطيئة. استمعت إليها محروسة بهدوء. اثنتي عشرة دقة. دخلت ندا لكي تحضر العشاء. وتحضر فاكهة كانت تتصرف كما لو كان شيء أعد في بيتها في انتظار الضيفة التي قضت العمر في انتظار زيارتها.

كانت تسكن في الدور الثاني. الأول بعد الأرضي. البلكونة الأولى. قالت إن شقتها في الأمان من أي زلزال. يمكن أن يحدث. كان في العمارة مصعد، ولكنها لم تكن تستخدمه. ومحروسة لم تفكر في دخوله. أصبحت الأدوار العليا كخة. ناطحات السحاب هرب أصحابها إلى أقربائهم الغلابة الذين يسكنون بالقرب من الأرض.

وفي الليل جاءت آخر المتمة. عندما عرضوا في التليفزيون فيلما عن مصعد تعطل بالركاب بين السماء والأرض. والذين شاهدوا الفيلم. كانت الأرض قد اهتزت بهم. ومازالوا في انتظار رحمة السماء.

قالت ندا لماما محروسة: لو عادت التليفونات للعمل ستكون في انتظارها أكبر مفاجأة يمكن أن تخطر على البال. قالت ندا لنفسها، لا بد وأن نجيب سيتكلم الليلة. للاطمئنـان علي. وعنده سيجد أمه عندي سيكتمل المراد من رب العباد.

وجه ندا جميل، فيه براءة من الصعب وصـفها، لا يتناسب مع خطف الرجال. تفوح من البيت رائحة غنى مـا. ومحروسة لم تشأ أن تتحول إلى محقق، وتسألها عن حكاياتها من طقطق لسلامو عليكو.

محروسة فهمت من كلام ندا عن بعض الأدوات التي في شقتها. إنها أحضرتها معها وهي نازلة من البلد العربـي الذي كانت تعمل فيه. ربما كانت في طريـق نزولـه إلـى مصر. وكان نجيب في طريق الذهاب. عائدة ومسافر. ووقع التعارف وحدث المحظور. وجرت بداية الحكاية.

اتجهت ندا إلى التليفون. رفعت سـماعته. اسـتمعت إليها. قربتها من أذنها. عادت وهي تهلل سـعيدة. قالـت إن الحرارة في الطريق. ثمة وش في السماعة. يحدث قبـل أن تأتي الحرارة. كلما انقطعت جرى هذا قبل عودتها.

جلست ندا تتكلم. سألت محروسة عن أشقاء نجيـب. عن العائلة فردا فردا. واضح أن المعدول حكى لهـا. متـى وأين وكيف قال لها كل ذلك؟ الوحيدة التي تجنبـت الكـلام عنها هي عايدة.

ذهلت المحروسة عندما اكتشفت أن نـدا تعـرف أن اليوم ذكرى المرحوم. سألتها إن كانت قد خرجت عليه فـي الصباح أم لا؟ الأمور دخلت في الجـد. غاصـا معـا فـي الغويط. وصلا إلى أعماق الأعماق. معها حق زوجة ابنهـا. فالمشكلة عويصة. والكارثة كبيرة.

مع أن محروسة كانت تتصور أن عايدة تبالغ وتهول وتضخم من الأمر. معذورة تتعرض لواحد من فصول القصة الخالدة. المرأة تحاول خطف رجل من زوجته. كانـت نـدا نقيض عايدة. عايدة ممتلئة وندا نحيفة. عايدة متحفظة إلى حد ما. ومن الصعب أن تقيم دروبها مع الآخرين بسهولة. ونـدا تضع قلبها على يدها. وترسم عواطفها على وجهها. عايدة لا تميل إلى الحركة. سكونية. عقلها أهم ما فيها. وندا تطير في الهواء.

عاتبت محروسة نجيب في سرها. كيف اسـتطاع أن يخفي الحكاية عنها؟ كنت أعتبر نفسـي أقـرب إليـك مـن زوجتك. وأقرب إليك من ابنك الذي في الطريق إليك. ولكن النفوس أسرار.

أتأمل الوضع أمامي. شـعرت أن الزمـان توقـف. والدنيا أخذت إجازة من الدنيا. والناس لم يعودوا هـم نفـس الناس، وندا كانت روحها لطيفة. وإن كان شكلها أقرب إلـى الصبي. رحبت بالست محروسة منـذ حضـورها بصـورة أفضل من أبنائها؛ فحزنت محروسة على نفسها وحالها.

ترحاب ندا وحنانها جعل ماما محروسة تؤجل الكلام عن مشكلة ندا مع نجيب إلى ما بعد. من كثرة دفء تعامـل الغريبة معي. ازداد حزني على نفسي وأولادي وما فعلـوه معي. أشفقت محروسة على ندا. كيف تغلق ندا الباب عليهـا وتنام؟ وهي وحيدة في وسط كل هذا الزحام؟ هل حاولت ندا اصطناع قصة حب مع نجيب؟ هل بنت حكايتها على أشلاء وبقايا وأطلال حكايته مع عايدة؟ كنت أتوقع حدوث هذا حتى وإن تأخر. فقد كان لا بد وأن يقع.

كانت ندا تتكلم. تقسم لمحروسة إنها كانـت تتوقـع الزيارة. وإنها فكرت في الخروج. لكنها فضلت البقـاء لأن هاجسا قال لها. منذ أن وقع الزلـزال. إن مامـا محروسـة ستكون في الطريق إليها. كان عندها يقين.

بعد ربع ساعة من دقات منتصف الليل. رن جـرس التليفون لأول مرة. كانت الرنة طويلة .معلنًا عن بدء عمـل التليفون بعد الانقطاع الذي أكمل ثماني ساعات. قالت نـدا: ترنك من الخارج: تساءلت ماما محروسة، من يعرفها مـن المحافظات؟ لا أحد. ندا وحدها تعرف. أنه التليفون الفريـد. المفاجأة التي تكلمت عنها. كانت ندا أكثر من سعيدة ولكـن محروسة لم تكن تحب أن يكون هو.

ما دام التليفون قد نطق. لا بد وأن كل التليفونات قد عملت في مصر. وهذا معناه أن التليفون في بيتـه يعمـل. والتي في بيته. عايدة المسكينة. أحق بالاتصال. إن لم يكـن من أجل الاطمئنان عليها. فليكن من أجل الذي فـي بطنهـا. الذي هو أحق من الاثنين معا.

رفعت صولجان السماعة. كان هو. اسـتمعت إلـى صوت المتكلم من الناحية الأخرى. تركت السماعة وصفقت.

قفزت في الهواء كما لو كان تؤدي رقصة. جرت نحو نينـة محروسة ترحب. احتضنتها.، قبلتهـا. رحبـت بالاتصـال التليفوني. قالت للست محروسة. ردي على التليفون يا نينة.

تثاقلت الست محروسة وهـي فـي الطريـق إلـى السماعة. سبقتها ندا وجرت إلى السماعة. ليتها جرت هـي. ولكن هل تقدر على الجري؟ لتعبر عن عدم رضاها عن هذا الذي يجري

ندا هي التي كلمته أولاً. قالت له في التليفون بصوت عالٍ. سمعه حتى الذي كان يمشي في الشارع. إنها ستقدم له أحسن مفاجأة. أهم من النجاة من الزلزال. وأجمل من أنهم لم يصابوا بمكروه. أعطت السماعة لماما محروسـة. دون أن تحدد له طبيعة المفاجأة. لم تتصور محروسة أنهـا سـتكلم ابنها. هذا يفوق خيالها. لم تعد الست محروسة قادرة علـى الكلام. شكشك الدمع عينيها. كانت تريد أن تسأله: هل كلـم عايدة أولاً؟ وإن لم يكن قد كلمها. كان يجب أن تشتمه. لكنها كتمت الغضب. للضرورة أحكام.

بقدر ما كانت غاضبة منه. كان هو خجلاً من نفسه. يبدو أنه عمل حساب كل شيء. إلا حساب أن يجـدها عنـد ندا. كان يتصور أنه نجح في الهروب بحبه لهذه المرأة.

كان يتوهم أن هذا الحب سر من الأسرار. لم يكن له هدف سوى الاطمئنان على ندا. فيجد أمه التي لم يفكر حتى في السؤال عنها. ربما حاول وفشل. وحتى لو حاول فـأين كان سيجدها؟ وإن كان لم يتصل بعايدة. فمن أيـن لهـا أن تعرف؟ إنه قلب الأم؟ حتى عندما تدعو على ابنها. فإنها تلعن من يقول بعد دعائها يا رب؟

جاءت لحظة الكلام مع ابنها. وهي في هذه الأرض الغريبة. قررت أن يكون الكلام مغطى. ألا يكـون كلامهـا واضحا. تفهمه ندا. كان أكبر موضوع فكرت فيه. هو تفسير سبب وجودها هنا. جاءت بهدف إنهاء الموضوع. ومع هـذا فإن اكتشافه وجودي هنا. بعيدا عن شرح الحكاية. يمكـن أن يجعل الأمور تمضي في الطريق الذي لا تحب محروسة أن تمضي فيه.

لو شرحت وقالت. ستجرح ندا. وهي حريصة علـى ألا تفعل هذا. حسبت محروسة حساب كل الأمور ما عدا هذا

الاتصال. وهل تملك أن ترفض الكلام مع ابنها بعد أن وقعت المصيبة؟

هال ماما محروسة. أن نجيب لم يبدأ كلامه بالسؤال عن أشقائه. لاحظت – وقلب الأم قادر علـى التقـاط هـذه الملاحظات بسرعة – أن ثمة ارتباك في صوته. ضـبطته. في موقف لا يحسد عليه. كان يهرب بالكلمات من الكلمات. يهرب من وقع اللحظة. يحور السؤال عن حالهـا وأحوالهـا وأمورها.

تجيب باقتصاب. فالموقف لا يحتمل. لا بد وأن يفهم على البعد أنها غير راضية ولا تحب أن تفضح أمور عائلتها أمام هذه الغريبة. لاحظت أمه أنه نسي أمرين. كـان مـن الصعب نسيانهما مهما جرى. أولهما :أن اليوم هـو ذكـرى والده. والثاني: أنه لم يسأل عن عايدة وبيته وابنه. وإن كان النسيان الأول جريمة. فإن النسيان الثاني أكبر من جريمـة. فإن كان والده يمثل ذكرى. فإن ابنه هو المستقبل.

أمه اندفعت وقالت له بكلام قليل وجمل مختصـرة. وإن كانت المعاني واضحة. " الحامل بخير" لم يعلق. مـرت فترة صمت. لم تسمع خلالها سوى خروشة الخطوط البعيدة.

وطنين الأسلاك، وبعـض الأصـوات المتداخلـة. نظـرت محروسة إلى وجه صولجان. وكانت النظـرة بالمصـادفة. ولكنها حاولت أن ترى رد فعلها على الكـلام الـذي قالتـه لابنها. خمنت محروسة: هل فهمت عن أي الحوامل تتكلم؟! قالت لابنها. على مسمع من صولجان. التي تقول إنه يحبها: والجنين شعر بالزلزال. ولم يعلق نجيب هذه المرة أيضا.

لم تستطع صولجان مواصلة اللعبة أكثر.. خطفـت السماعة من المحروسة دون استئذان. قبـل الوصـول إلـى النهاية الطبيعية للمكالمة. وقبل أن تقدم محروسـة السـماعة لندا. بعد أن تشبع من الكلام مع ابنها. وهل شـبعت أي أم من ابنها؟! إن التي تشبع من ابنها لا تكون أما.

نجيب هو الذي طلب. وهو الذي سيكع ثمن المكالمة من جيبه. وفضحت صولجان نفسها. تعرف من هي الحامل؟ ومن هو الجنين؟ بدأت تتكلم معه. اكتشفت الوالدة أن الأمور المشتركة بينهما أكثر مما كانت تتصور. الأمر ليس مجـرد نزوة عابرة مما قد يحدث لكثير من الرجال. الحكاية نمـت وترعرعت وكبرت في غفلة منهم. وأولي الغـافلات كانـت زوجته. صحيح أنها تعرف. وأنها قالت لها. ولكـن ربمـا

عرفت بعد أن أصبحت الحكاية حكاية. تتكلم معـه بألفـة لا تكون إلا بين الأزواج. وبتحاب العشاق. ومن المؤكـد أنـه يتكلم معها في الناحية الأخرى بنفس الطريقة. وإن كانت لـم تسمع ما يقوله لها. شعرت أن ما يجـري أمامهـا مصـيبة ووقعت على العائلة، مصيبة تساوي كل ما شاهدته اليوم من مصائب.

بعد أن استفاضت في الكلام، وشرقت مع الكلمـات وغربت. أوشكت محروسة أن تطلب منها السـماعة. أو أن تنهي المكالمة. ولكنها بدأت تصيح. تنادي عليه من طـرف واحد. ثم مطت شفتيها. وقالت إن الخط انقطـع. وضـعت السماعة. قالت. وهي تحاول أن تبدو متأكدة مما تقول: إنه لا بد وأن يعاود الاتصال. أوضحت أن ضغط الخطوط الدولية وصل إلى الذروة هذه الليلة؛ لأن كل إنسان يحاول الاطمئنان على أهله. استأنفت كلامها. وإن لم يتصل. سـتطلبه فلـديها خط دولي. خط عنده وخط عندها. هذه كلمـة السـر فـي الحكاية. خط تليفوني ساخن بينهما. من الطبيعـي أن تكـون النتيجة هي ما تشاهده بنفسها. انزلق كل منهما فـي عالمـه الخاص. جلسا في مواجهة بعضـهما الـبعض. لـم تكـن

محروسة مستريحة لما سمعته وشاهدته. ثمة تـوتر وقلـق معلق في الجو. تعكر الهـواء الـذي بينهمـا. وإن كانـت صولجان حاولت أن تبدو سعيدة.

شعرت محروسة أنه لم يبق أمامها عذر لعدم الكلام في الموضوع الذي جاءت من أجله. ولولاه ما جاءت.

سألتها وهي تنظر في عينيها بتركيز:

– ألا تعرفين أنه متزوج؟

هزت رأسها دلالة أنها تعرف. أكملت بعد برهة:

– ولكن زوجته عاقر؟! فشلت في أن تمنحه طفـلاً يطلق عليه اسم والـده. بـي أو بـدوني كـان سيتزوج. ما جريمتي؟!

سألتها محروسة:

– من الذي قال لك؟

حاولت صولجان الخروج مـن الكآبـة. فطرقعـت أصابعها في الجو وقالت:

– العصفورة.

كان سؤال المحروسة الثاني الذي وجهته لصولجان: ألا تعرفين أن زوجته حامل. إن الجنين الذي شعر بالزلزال هو الذي في بطن عايدة؟

قالت ندا كلمة واحدة كررتها أكثر من مرة:

- مستحيل.

نطقتها بالإنجليزية، وعادت تقولها بالعربية. ليست متأكدة أن محروسة تعرف الإنجليزية. ربما تصورت أنها تشتمها.

سارت كل منهما في طريق. طريقين متوازيين. لن يلتقيا. كان سؤال محروسة الثالث:

- وهل تعرفين أنه تغرب من أجل الذي في بطن زوجته؟ حتى يأتي إلى الدنيا فيجد ظروفًا أقل صعوبة من التي مر بها والده وجده؟

إجابة ندا عن السؤال الثالث. كانت بهزة من رأسها. مثل المرتين السابقتين. هزة من الرأس تعني نعم. تشجعت محروسة، ودخلت في قلب الموضوع. من خلال السؤال الرابع:

- هل تعرفين أنه زهرة أبنائي كلهم؟

لم يعد لديها سوى هز رأسها. هزتها من جديد.

صاحت فيها محروسة:

أريد سماع صوتك. لا أحب هزة الرأس.

نظرت لها بانكسار:

- ماذا سأقول يا ماما؟!

ماما؟! رنت الكلمة في خاطرها. غريـب أن تنطـق بهذه الكلمة. في هذا الوقت بالذات، هل هو الذي طلب منهـا أن تفعل ذلك؟ نصحها بأن تنطق هذه الكلمة التي يعرف مدى قداستها عندي. إنه يعرف أن عايدة تناديني بها. وأنني أكون في قمة سعادتي عندما أسمعها منها.

بلعت الكلمة. وصمتت. الأسئلة التي كانـت عنـدي قلتها ولكن لم أحب أن أسكت.كان عندي كلام جديد أريد أن أقوله تكلمت – حتى لو كان الكلام مع نفسي – عن خـراب البيوت. وخطف الرجال. وبناء سعادة الإنسان بشكل أنـاني على حساب سعادات الآخرين. عن الرجال الذي يجـدون أن

كل نساء العالم جميلات ما عدا زوجاتهم. مرض أو مصيبة؟ ولكن هذا هو الحاصل.

صولجان لم تتكلم. عندما تسمع أي كلام كانت تحرك رأسها. دلالة الموافقة أو الرفض. وما إن تتذكر نرفزة حماتها من تحريك الرأس. كانت تشير بيدها علامة النفي أو التأكيد. في كل الأحوال لم تتكلم.

كان يتجمع في عينيها مشروع دمعة. لم تخرج إلى الوجود. ورغم تعكر وجهها. ورغم الغضب والحزن المكتوم. الذي بان عليها. إلا أن براءة الأطفال ظلت تشع منها. وتطل من عينيها. وتحاول أن تصل صولجان بالمحروسة. من خلال تصرفاتها البسيطة. ومحروسة كانت محتارة. كانت تود أن تنصرف. بعد أن تبرر حكاية الانصراف الذي لم يكن متوقعا.

تكلمت محروسة عن ابنتها نجيبة. حكت عن ابنها نادر. كانت تريد أن تعيد حكاية ابنتها نادرة. أن تلوم نجم الدين النجومي على أنه رحل مبكرا وتركها. خانها ورحل. خذلها ومضى. استأذن منها في الوقت غير المناسب. وتركها تحمل بمفردها العبء الصعب.

شعرت محروسة كم هي في أمس الحاجة إليه، هـي وهم. الجميع محتاجون لظله. وجوده الذي لا يمكن تعويضه. وغيابه الذي تسبب في كل ما هم فيـه. كتمـت محروسـة الكثير. وصرحت بالقليل. فالتي أمامهـا غريبـة. وغريمـة لعايدة. وسيكون بينهما صراع طويل. عرضت على ندا ابنها نادر. قالت لها إنه خلق لها. وهي خلقت له.

تكلمت ندا. سلكت زورها بصعوبة. قالت إن الأمور لا تحسب بهذه الطريقة. للقلوب أسبابها. وللعيـون طرقهـا. وللنفوس دروبها. قالت ندا: إنها لم تكن تحب الوقـوع فـي غرام رجل متزوج. لكن هذا ما حصل: كررت الكلمتين أكثر من مرة. غصب عني يا نينة. غصب عني يا ماما. ثم بكت. عندما نزلت الدمعة الأولى. كانت عينا محروسة مركزة على يدي ندا. كادت يدها اليمنى تفعص يـدها اليسـرى. وهـي تعتصرها من الألم. ربما كانت هذه البنت ممثلة كبيرة. تمثل على محروسة مشهدا ما. لكن محروسة تقمصـت شخصـية زوجها. واستعارت ملامحه. وكلماته، والهواء الـذي كـان يخرج من فمه مع الصوت. وقالت لها: إن زيجتها من نجيب

لا يمكن أن تتم. لم ترد صولجان عليهـا. بـدت مستسـلمة استسلاما غريبا. لم تناقشها. لم تناهدها في الكلام.

خُيل لمحروسة أنهما ربما كانا متزوجين، والأهل لا يعرفون. وزوجته الحامل في البيت آخر من يعلـم. مـا دام يتصل بها ولا يتصل بزوجته. وصل معها إلـى كـل هـذا الشوق. والكلام في انصاص الليالي. في مكالمة مـن البلـد الذي يعيش فيه. تكلفه الشيء الفلاني. ولم يحاول أن يخبـر أمه. حتى بكلام من بعيد لبعيد.

كل الاحتمالات ممكنة. كل المسـتحيلات أصـبحت ممكنة. استسلام ندا وعدم مناقشتها الأمـر مـع أم نجيـب أعطاها الانطباع بأن الحكاية تمت، والأمر انتهى. بعد الذي جرى من نجيب، كل الأمور الأخرى جائزة ولا اسـتغراب من حدوثها .لم يعد غريبا سوى الشيطان.

مر وقت. غطاهما فيه الصمت. قامـت صـولجان تتمشى. لا تطيق البقاء في مكان واحد. خلقت لتتحرك. أمـا محروسة فقد جاءت إلى الدنيا وهي تحب السـكون والبقـاء حيث هي.

تاهت محروسة مع بحور الفكر. تأخذها الأفكار إلى آخر الدنيا. وتعيدها إلى حيث تجلـس. صـولجان تجنبـت الكلام. ومحروسة أسلمت نفسها للصمت. بعد قليـل أخـذت صولجان محروسة من يدها. سارت بها كالمنومة. أدخلتهـا غرفة تنام فيها. ومحروسة لم تكن تريد قضاء الليل – أو ما تبقى من الليل – عندها، لكنها في لحظة الصمت هذه، حـل عليها، مرة واحدة، ودونما أي مقدمات، تعب اليوم كله، تعب من الصعب وصفه، كبس على كل حواسها.

دخلت. فعلت ما لم تكن راغبة في فعلـه، غيـرت ملابسها بملابس نوم قدمتها لها ندا. ذهبت محروسـة إلـى الحمام. وفي طريق عودتها من الحمـام. عرضـت عليهـا صولجان أن يناما في غرفة واحدة. لكن محروسة استبشعت هذا. كيف يشاهد نومها الآخرون؟ كيف يرى عري نومهـا الغرباء؟ ويسمعون شخيرها الذي جاء بعد تقدم العمر؟ وحتى إن نامت في غرفة بمفردها. فلن تعرف طعم النوم. إلا بعـد العودة إلى البيت الأخضر في القرية الخضراء.

قالت لها صولجان: إنها لم تقل لها إنها فـي بيتهـا؛ لأنها في بيتها فعلاً. وهي ليست في حاجة إلى تأكيد ما هـو

مؤكد: المطبخ والحمام تحت أمرها. وصاحبة الشقة خادمتها ورهن إشارتها. قالت إنها لو فكرت في الذهاب إلى أي مكان من أجل الاطمئنان على أحد من أبنائها. فالسيارة تقف تحت البيت. وهي ليس لديها أي عمل يشغلها.

كانت محروسة تتصور أنها مـا إن تسـتلقي علـى الفراش، حتى تروح في نوم عميق. لا تقوم منه حتى آخـر لحظة في العمر. كان الفراش – مثل كل ما في الشقة التي لم تستطع أن تحب صاحبتها – نظيفا . ولكن نظافتها لم تحـل المشكلة الأزلية بالنسبة لمحروسة. ذلك أن تغييـر الفـراش يسبب لها قلقًا وتوترا. لكن الأمر كان أبعد من ذلك.

تجولت عبر أجزاء اليوم. الـذي لا تعـرف كيـف مضى. وفي لحظة ما قبل النوم. بدلاً من هـدوء مـا قبـل الدخول إلى النوم، والتدلي في ذلك العالم المخملي. حاصرتها القصص والحكايات والمواقف والاكتشـافات حتـى جفاهـا النوم. فأصبحت أكثر يقظة من أي وقت مضى.

لم تستطع أن تنام من هول ما رأتـه. كـل لحظـة تذكرها بما فعله أبناؤها. خاصة نجيـب. تـذكرت زوجتـه عايدة. فكرت أن تتصل بها من أجل الاطمئنان عليها. ولكنها

تراجعت. لو سألتها من أي مكان تتكلم؟ ماذا ستقول لها؟ هل تقول لها إنها تتكلم من عند ناجح؟ أو من عند نادي؟

الكذب ليس له قدمان. والكذاب هو أول مـن يقـع. أجلت فكرة الكلام مع عايدة. حتى لـو تكلمـت مـن وراء المفعوصة التي تنام في الداخل. فإن المشـكلة بينهـا وبـين نفسها.

***

نامت نوما متقطعا. كان نومها عبارة عن كـوابيس وأحلام قاسية. أتاها نجم الدين أكثر من مرة، لم يكن يسـألها عن أحوال أولاده. لكنه تكلم معها عنهم، وعن الحال الـذي وصلوا إليه، كانت تسبح في الظلام. كل حياتها تحولت. إلى أذنين تسمعان. وعينين تحاولان رؤية الظلام، وأنـف يشـم الدخان والتراب والخوف. وكأن الليل قد توقف مكانه رافضا أن يمضي. أن يتزحزح من مكانه، ليل مثل التل.

فوجئت به. نجم الدين يسألها. هل وجدت الكتـاب أم لا؟ كان مهتما بالكتاب أكثر من اهتمامه بها، قال لهـا لـيس

مطلوبا منها البحث عن الكتاب. هو الذي سيعلن عن نفسـه أمامها. الكتاب هو الذي سيبحث عنها.

قالت له. في شقة المنيل. كان من المستحيل الوصول إلى الكتاب. تركته – إن كان موجودا – معلق بين السـماء والأرض، سألها:

– لِم لم تصعد؟

قالت:

– البيت كان سيقع.

قال لها إن الكتاب كان سـيحميها مـن أي خطـر وسيبعد عنها السوء.

سألها: هل قلت سر الكتاب لأي أحد؟ قالت: لا. انطأ صوته. وامتص وجهه النوراني كل الانفعالات التي كانـت تتعارك عليه. أعطاها ظهره ومضى. اختفى كما ظهر. دون أن يشفي غليلها. دون كلمة واحدة تدلها على الطريـق إلـى الكتاب. رفعت صوتها. تنادي عليه.

وماذا بعد؟! وماذا لو انتهت الرحلة دون أن تصـل إلى الكتاب؟ كيف تتصرف؟ وبمن تسـتعين؟ ولمـن تلجـأ؟

وعلى من تعتمد؟ أسئلة كثيرة عصفت بها. أيقظها من نومها عطش حارق. قامت فزعة. بحثت عن الماء. كيف فاتها أن يكون بجوار سريرها ماء؟ الماء هو صمام الأمان. شربة الماء تبعد الشيطان إن جاء وهي نائمة.

في قريتها يقولون إن زيارة الميت للحي. تعد نداء منه إليه. وإن هذه الزيارة إيذان بقرب الوفاة. يتشاءمون من حضور الميت في المنام.

ويتشاءمون أكثر إن سأل عن أي من الأحياء. فالسؤال يعني أنه في انتظاره. وأن الحي في الطريق إليه.

لكنها لم تفسر الأمر على هذا النحو. كان الأمر أبعد من ذلك وأعمق. كانت قبل النوم. وخلال لحظات النوم الأولى، قد حاولت الاستنجاد به. وقبل حضوره وبعد انصرافه حلمت بذراع نادرة ومخها. وجسد نجيبة وبقايا الكشك الخشبي الذي يعيش فيه نادر. جاءوها مرة في ظل زلزال. وأخرى تحت لهيب حريق. وثالثة وفي أذنيها الصرخات من طوفان، ورابعة يوم القيامة. وعرفت أنه يوم القيامة ؛لأن عيني كل بني آدم كانت في رأسه من أعلى حتى لا يرى أحد عري الآخر.

***

بعد أن استتب الصمت. وبدأ الليل يخر عن آخـره. قامت من نومها. اعتبرت أن قيامها في هـذا الوقـت إرادة علوية. ما دام نجم الدين قد أتاها وهي هنـا. فـلا بـد وأن الكتاب في هذه الشقة. نسيت أن تسأل صولجان قبل النـوم. أين غرفة المكتب؟ تبحث والسلام. ستقول للكتـاب: اظهـر وبأن عليك الأمان.

لم يكن في الشقة غرفة مكتب. ذهبت إلى الصالون. إن قامت ندا من نومها ستقول لها: إنها شبعت مـن النـوم. فقامت تتفرج على شقتها. لفت نظرها عدم وجود أي كتـاب في الشقة. ليته أراحها وقال لها على علامات تمكنهـا مـن الاهتداء إلى الكتاب. لونه؟ حجمه؟ شكله الخارجي؟ نظـرت في المطبخ. بحثت حتى داخل الحمام. ولكنها لم تجد شيئًا..

قالت لنفسها: وإن كان عندها كتاب مثل هـذا. هـل ستلقيه في أي مكان؟ إنه لا بد وأن يكون في مكـان أمـين. دولاب أو خزينة. وهي لن تقول لندا على حكايـة الكتـاب. السرية المطلقة هي أول الطريق للعثور عليه.

لا بد وأن نجيب قد أحضر الكتاب وخبأه عند نـدا. ولا بد وأن نجم الدين عرف هذا. ربما هـو الـذي أوحـى لنجيب بذلك. كان يعرف أن الكتاب هنا. ربما رأى أن هـذا البيت أكثر أمانًا. فجرى هذا الترتيب.

***

هل نامت؟! لا تذكر. هل قضت الليلة كلها صاحية؟ ليست متأكدة. لكن المؤكد أنها صحيت متعبة. لم تشعر بتلك الراحة الفريدة التي تشعر بها بعد الصحو من النـوم. فـي بيتها. كأنها عادت إلى لحظة بدء عمرها من أول وجديد.

كان في جسمها ثقل غريب. ربمـا سـببته أهـوال الأمس. والأحلام والكوابيس التي من الصعب عليها تذكرها. أيقظها من نومها الذي يخيل إليها أنها راحت فيـه. النهـار الجديد. وعبر رمادية ظلال بداية النهار تحركت في الصالة. مرت ببرك متقطعة للون الشمس التي تسللت مـن النوافـذ المفتوحة. يرفع الضوء نفسه. تحاول محروسة أن تستنشـق الضوء. تذهب إلى الحمام. تشعر بغربة؛ لذلك تفعل بعـض الأمور التي ربما لم تكن في حاجة إليها. حركة والسلام.

صباح مختلف عن الصباحات التي مرت بها. سواء في بيت العائلة الذي كان مرشوشًا بالأولاد والبنات. ومعبقًـا بدفء النفس البشرية. أو في بيت الوحدة الذي آل إليه حالها في قرية الروضة. حيث كانت تتدلى من نوم إلى نوم. حتـى تتعب من النوم. تقوم من النوم لتنام مرة أخرى.

فتحت المزيد من النوافذ؛ ليدخل ضوء النهار إلى كل الغرف. حتى تتبدد مخاوف الأمس. وتوتراته ربمـا يـأتي الصباح. ليكتشف بعض سكان البيوت أن جدرانها غائبة.

نامت وما نامت. استراحت وما استراحت. وأوهمت نفسها بالراحة. وتعبت من كثرة الإيهام. كان عظمها يؤلمها. وكل مكان في جسمها متعب أكثر من الآخر. لكنها قامـت. أوهمت نفسها أنها نشطة. في انتظارها مشاوير أربعة لا بـد من القيام بها. قبل المشوار الأخير. وهو العودة إلى البلد.

خرجت من حجرة النوم. تسـحبت. مشـيت علـى أطراف أصابعها. تجنبت إحداث أي صوت. لا تريد أن توقظ ندا. المفعوصة مازالت نائمة، لن تصحو سوى بعد الظهـر. دخلت الحمام. خرجت منه. وعندما كانت تصلي. أحست بها تمر من جانبها. استغربت حتى وهي تصلي. كيف تمكنـت

من الاستيقاظ في هذا الوقت المبكر؟ لا بد وأن ذلك جزء من تمثيليتها التي تمثلها عليها. إنها الزوجة الصالحة. الزوجـة الأصلح لابنها. أصلح حتى من عايدة التي على ذمته.

ربما تسحب سجادة الصلاة بعد خروجها مـن دورة المياه. وتصلي هي الأخرى.

١٥

.. عندما انتهت محروسة وندا من الإفطـار الـذي أعدته ندا بنفسها. قالت للحاجة:

- دقيقة واحدة حتى أغير ملابسي.
- ولم.. كفى الله الشر؟
- حتى أنزل معك.. لن أتركك.. سأكون معك فـي كل خطوة.

رفضت محروسة. ما ذنـب نـدا حتـى تقـوم بالمشاوير الباقية التي تهد الحيل؟ قالت ندا:

- إذن مطلوب استبعادي؟ ألست غريبـة؟! مهمـا فعلت سأظل الغريبة؟!

قالت محروسة إن هذا ليس مقصدها.

تكلمت ندا بشكل عملي. قالت إنها وسيارتها ستكون تحت أمرها في أي مشاوير. أما إن كان هناك مشوار معـين تريد أن تقوم به بمفردها، فستقول لها مع السـلامة والقلـب يدعو لك. فهي لا يمكن أن تفرض نفسها عليها. وفـي هـذه

المشاوير الخصوصية. ستوصلها بالسيارة إلى أقرب مكـان. وتنتظرها حتى تعود من المكان الذي ذهبت إليه.

يبدو انه أفهمها كل شيء. وأنهـا مدركـة لجميـع الأمور. نزلت معها. اتجهنا إلى شقة نادية. ابنة الأسرة التي تعيش في الخارج. والتي كانت السبب الحقيقـي فـي سـفر شقيقها نجيب.

تزوجت نادية أولاً. خطفها زوجها وهي في الجامعة. في كلية التجارة. كان والدها يحلم أن تكون مأمورة ضرائب. تحصل لمصر ما تستحقه – لدى الذين يكسبون ليلاً ونهارا – هو الذي رسم لها الطريق وحدد الوظيفة والدور والمهمة.

ولكن العريس كان مستعجلاً. قال: ما لي ولشهادتها؟ لن يكون في صالون بيتي مكان لأعلق فيه الشهادة. لا أريـد عروسة بشهادة. أريد نادية فقط. ثم مـا دور الشـهادة فـي المهمة المقدسة التي يريدها من أجل القيام بهـا؟ ألا وهـي رعايته والاهتمام ببيته وإنجاب الأطفال؟

قال له والدها: على الأقل تصبح وزيرة مالية حياتك. تدبر بيتك وتدبر أموالـك. وتقـدم النصـيحة فـي الوقـت

المطلوب. قال العريس واعر مغيب – وهذا هو اسمه – إنه لا يريد منها هذه الأمور التي إن اقتربت منها ماذا سيبقى له في حياته. لكي يفعله؟ هو ضد تعادل الأدوار فـي الأسـرة. الرجل رجل والمرأة امرأة.

وعندما عاد نجم الدين إلى صاحبة الشأن. ردت على كلام والدها بالصمت والسكوت – في هذه الحالـة – دليـل الموافقة. ومن يومها غير نجم الدين طريقه إلى بيتـه فـي الذهاب إلى عمله صباحا. والعودة منه في المساء. ذلـك أن الطريق القديم. كانت تقع فيه مأمورية الضرائب. التي كـان يحلم أن ترأسها نادية ذات يوم. قال إن التعليم لا يمكـن أن يتم غصبا عن ابنته. لا بد وأن تكون عندها الرغبة فيه. ماذا لديه لكي يفعله؟

نادية هي التي خطفت نجيب إلى بلاد الغربة. قررت إنشاء فرع للعائلة هناك. هذا هو المشروع الوحيد الذي لـم يخطر على بال نجم الدين النجومي، كل مشـروعاته كـان مكانها بر مصر.

وإن كانت نادية قد قررت ذلك. فلِم اختارت واسطة العقد؟ وتقالة الميزان؟ كان نجم الدين يقـول: لـيس لعائلـة

النجومي فرع آخر خارج بر مصر. نحن هنا وكفى . هـل قمنا بالمطلوب إزاء الداخل حتى نذهب إلى الخارج؟

كان نجيب يتكلم عن الحلم القـومي. وذراع مصـر العربية التي حاولت القوى الاستعمارية قطعها. لكـن نجـم الدين قال إن ما يحتاجه الداخل يحرم على الخارج. حتى لو كان الذين في الخارج أشقاء.

يذكر لنجيب أنه لم يضع قدميه على أرض الغربـة ووالده على وجه الدنيا. احترم كلامه. رغم عدم إيمانه بأنـه حقيقي. قال. ولكن من وراء ظهر والده. وليس في مواجهته: له دينه ولي ديني.

كانت نادية تقضي الصيف في مصر. ما إن تؤكـد الحرارة وجودها حتى تنتظر محروسة نادية. كلمـا ازدادت درجة الحرارة حتى ارتفعت احتمالات حضورها. مـا مـن صيف إلا وجاءت. عندما تتعدى درجة الحـرارة الأربعـين درجة – هكذا تسمع محروسة من التليفزيون – حتى يصـبح حضورها مؤكدا.

وما إن تضع قدميها على أرض مصر حتى لا يكون لها كلام سوى عن جمال الطقس ورحمة الحرارة بالناس في مصر. وتقول أرقاما لدرجات الحرارة في البلد الذي تعـيش فيه. تصل إلى ما بعد الغليان. لا بد وأن تقضي الصيف هنا.

في بعض السنوات كان يحضر معها زوجها. وفـي بعضها الآخر كانت تحضر بمفردها. تقول إن زوجها عنـده شغل لا يمكنه من الحضور. وإن كانت بعد قضاء أيام وليالٍ في مصر. تبدأ في الفضفضة. تقول إنه قال إنه سيبقى فـي البلد. وإن كانت متأكدة أنه يسافر من وراء ظهرها إلى شرق آسيا .عنده أكثر من سبب يقوله لها ولن تمانع. ولكـن لِـم يسافر من وراء ظهرها؟ لِم يتحايل حتى لا تعرف؟ لِم يطلب منها عدم الاتصال به؟ وهو الذي يتصل بها؛ لأنه لا يعـرف ظروفه. يتجول في البلاد البعيدة على حريته. وراء تجارته الواسعة.

تتظاهر نادية عندما تكلمه أنها تصدقه. وإن كانـت تقول عنه بعد أن تضع السماعة لا يجيد أي أمر من أمـور الحياة سوى الكذب. تنفخ الهواء. وتقول: يكذب كما يتـنفس. يحدث معها هذا وهي الأجمل والأكثر بهاء بين بنات العائلة.

لا وصف لجمالها. حتى النساء والأطفـال والشـيوخ فـي الشارع كانوا يقعون في غرام جمالها.

يوم سفرها لأول مرة. قال والدها. إنهـا سـتحاول ملامسة تخوم المستحيل. ورغم أن محروسة لم تسـتوعب الجملة. إلا أنها اعتبرتها نبوءة من الرجل القادر على قراءة الزمن الآتي. وكأنه مكشوف عنه الحجاب. كانت نادية توزع الهدايا على أسرتها. هدايا تسد عين الشمس. هـدايا تقـول الكثير عن اليسر والبحبوحة التي تعيش وسطها. والنعمة التي تتقلب فيها.

لم تكن تشكو إلا من خداع زوجهـا. وقسـوته فـي التعامل معها. وفي مواجهة هذه المعاملة. كان عندها ردهـا عليه. أن تنجب أكبر عدد ممكن من الأطفـال. كـان يبـدو سعيدا بذلك. البيت الواسع. تعيش فيه قبيلة كبيرة. والأمـوال تعب من عدها. فترك هذه المهمة للبنوك. البنوك نعمة. ولكن نادية لا. لم تخلق هي من أجل هذه المهمة. هكذا كان يقـول عن الحرمة المصرية.

أصبح أطفالها بعد أن كبروا عزوة لها. هم صحبتها وأهلها في بلاد الغربة. لا تعرف ماذا كانت ستفعل بـدونهم.

كانت تشكو من فقدان الحياة الاجتماعية في البلد الذي تعيش فيه. أما الفلوس والأموال. ففي كل زيارة كانت تأتي ومعهـا من الذهب ما لا يمكن وزنه. ومن الأموال ما لا يمكن عده. تضعها في البنوك. حسابات جارية. ودائع. كانت تستفيد من سنوات دراستها في كلية التجارة التي لم تكملها. في استثمار أموالها. حاولت أن تكمل تعليمها خلال وجودها في مصر في الصيف. ولكن اتضحت لها صعوبة ذلك. بل واستحالته.

أصل المشكلة أنها عندما تركت الجامعة المصـرية، لم تعمل إجراءات إجازة من الدراسة. كان من حقها إجـازة لمدة أربع سنوات. فصلت ؛لأنها لم تقدم طلب هذه الإجـازة. ولم تقم بإجراءات تجديدها كل سنة. وهكذا حاولت الدراسـة من وراء ظهر واعر مغيب في مصر. تقـول إنهـا تريـد مفاجأته بالشهادة، مفاجأة غير سعيدة بالنسبة له.

ترتب أمور حياتها في مصر. كما لو كانت حياتهـا لن تستمر هناك. مع زوجها. ولا بد وأن تعود إلى الاستقرار في شقتها التي اشترتها في مدينة نصر. بوابة مصر الشرقية إلى الزمن الآتي. بعد أن خرجت مدينـة المهندسـين علـى المعاش.

محروسة أعطت ندا العنوان. كان قريبا من بيتهـا. ركبتا السيارة. كانت الحياة هادئة. امتص نور النهـار كـل توتر الليلة السابقة. ولكن بعد قليل جاء النور بتـوتر جديـد معه. ذلك أن الناس تمكنت تحت ضوء النهار – فظلام الليل يخفي حقائق الأشياء – من أن ترى ما فعل الزلزال بجدران بيوتهم والأعمدة الخرسانية التي تحمل العمارات العالية.

كان الناس يتكلمون وقد تحولوا إلى مهندسين وإلـى عباقرة في الإنشاء وفنون البناء. كانوا يتعجبون من العيـوب التي ظهرت في المباني بعد الزلزال. خرج دكتور في البناء والإنشاءات في التليفزيون. سألته المذيعـة عـن أن بعـض العمارات في القاهرة قد مالت إما ناحية اليمين وإمـا ناحيـة الشمال. استدركت أن النواحي التي مالت إليها العمارات. لا علاقة لها بالسياسة.

رد عليها بهدوء. كان يمسك بيده مسبحة من النـوع الغالي. وكان يمر بظهر يده على لغد ذقنه بطريقة منتظمـة أثناء الكلام. قال لها إنه لا توجد عمارة واحدة لا تعاني مـن الميل. بنسبة أو بأخرى. وإن الميل عيوب بنـاء والزلـزال

بريء منها. ربما زاد الميل. هذا وارد. ولكن أصـل الميـل موجود وقائم منذ البناء الأول.

كان الناس يبدون كما لو كانوا قضوا ليلتهم وهم نيام بين جثث ضحايا الزلزال. وإن الظهر – ظهـر الأمـس – بالتحديد الثالثة والربع. قد أصبح لحظة ميتة. لم يأت العصر بعدها. وتأخر موعد مجيء الليل طويلاً. حتى عنـدما أتـى الظلام. ولكن الليل لم يأت معه.

رغم جمال الصباح. كانت الشوارع مازالت محملـة بالذعر والخوف. والشوارع قلقة تبحث عن الأمـان. كـان الأمس. الذي لم يعد أمس، في ذاكرة محروسة مثل شـظايا الزجاج المكسور. عندما يتم نثره في أرجاء الذاكرة.

كانت المدينة تستيقظ بوجل كبير. تحاول أن تضـم إلى صدرها أشياءها الجميلة والحميمة. والتـي أوشـكت أن ينفرط عقدها. منذ ظهر الأمس. وكـان النـاس يتزاحمـون زمرا. زمرا. جماعات كبيرة وجماعات صغيرة. يعانون من الخوف الداخلي الذي ينخر في القلوب مثـل السـوس فـي الخشب القديم. أصبح الناس مثل الموجات الهاربـة. موجـة وراء أخرى.

كان هناك صوت يتكلم في راديو في مقهى قريـب. كان الصوت عاليا. كان يتكلم عن الفوالق الأرضـية. عـن نقاط الضعف في الدرع الذي تتشكل منـه الأرض. ويقـول كلاما يرعب أي إنسان. سألت محروسة نفسها: هل يقدر لها أن تعيش حتى تشاهد يوم القيامة. الذي هو آخر أيام الدنيا؟

ما تسمعه من الأمس جعل قلبها يطفطف والدم يفور في عروقها. هي امرأة مسنة. رجل فـي الـدنيا والرجـل الأخرى على باب القبر. ولكن ما ذنب الأبنـاء والأحفـاد؟ الذين لم يشبعوا من أيامهم بعد؟

اشترت نادية الشقة كنوع من الأمان. قالت لأمها إن الشقة كتبت باسمها. سجلت على أنها ملك لها. كانت معركة طويلة. خضع زوجها في آخرها. قالت: ظل قرش ولا ظـل رجل.

كم مرة عرضت فيها على أمها أن تعيش في الشقة؟ ولكنها كانت ترفض. كم من مرة قالت لها. إنها لو فكرت في ترك بيتها البعيد. وحضرت لكي تعيش هنا. فستكون علـى الرحب والسعة. إن لم تسعها الشقة. تفتح لهـا قلبهـا بيتًـا

ومسكنًا ومأوى. تترك معها عندما تسافر مفتاح الشقة؛ حتى تذهب بين الحين والآخر من أجل الاطمئنان عليها.

الأهم من الاطمئنان هو دفع المطلوب لاتحاد الملاك. والماء والكهرباء والغاز وأجرة البواب. مع أن نادية لا تعيش هنا. ولا أحد يستخدم هذه الأشياء. عندما تحضر محروسـة تجد فواتير كثيرة في انتظارها. وكل فاتورة بالمبلغ الفلاني.

فكرت أن تقول لهم إن الساكن الغائب من المفروض ألا يدفع كما يدفع الساكن الحاضر فعلاً؟ في هذا أكبر قـدر من الظلم، ابنتها منعتها. قالت لها. ما دام الله قد وسع عليهم. لماذا يضيقون على أنفسهم؟ وعلى غيرهم؟ الآخـرون لهـم نصيب في كل ما حصلت عليه.

عندما تسافر نادية. تترك معها مبلغًا من المال تسميه الرصيد. تسدد منه المطلوب للشقة وتحتفظ لها بالإيصـالات والفواتير. حتى تعود وتحاسبها على ما دفعته وما بقي معها. كانت نادية ترفض الحساب ولا تطيق أن تقوم به مع أمهـا. ولكن محروسة كانت تصر عليه. تقول لها إن كنتم حبايـب تحاسبوا.

أسعدها بالأمس عدم وجود الرصيد معها. تركته في لحظة اللهوجة والسرعة. عندما قررت الحضور إلى مصر. لو أحضرته لضاع في لحظة السرقة التي تعرضت لها. ولم تكن تعرف كيف ستتصرف في نفقات الشقة لسـنة قادمـة. عندما وقع الزلزال كان قد مر أقل من شهر على سفر نادية. سنة إلا شهرا مازالت في انتظارها. قدر ولطف. فعـلاً لـو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع.

فكرت محروسة أن تؤجر الشقة مفروشة. مجهزة من مجاميعه. وسيكون العثور على مستأجر لها سهلاً. والعائـد كبير. ولا بد أن تستأجرها عائلة مقيمة. الأخلاق قبل العائد. نادية رفضت. قالت إن ما ينفقانـه علـى تجديـد الأثـاث. وإصلاح ما أفسده السكان يساوي ما ستحصل عليه. إن لـم يكن أكثر. والذي لا يقدر بمال الدنيا. انتهاك حرمة المكـان وفض بكارة خصوصيته. ثم إن من يؤجر شقة مفروشـة إن كانت عائلة. قد لا تخرج منها. بعد فوضـى القـوانين فـي البلاد.

وصلا إلى الشقة. توقفت ندا بسيارتها تحت العمارة. ولكن شخصا لا تعرفه محروسة يأتي إليهما صائحا. يطلـب

ركن السيارة في أبعد مكان عن العمارة. هكـذا فهـم مـن السكان. إنه مجرد فاعل خير. إنسان متطوع لعمـل الخيـر للآخرين. لم تكن هناك أي سيارة مركونة بجوار الرصيف. قال لهما. الزلزال له توابع. وبعضها قد يكـون أشـد مـن الأول. وقد يقع من العمارة، طوب أو خشـب أو حديـد أو شيء، فوق السيارة فيحطمها. هذا لم يحدث في بيـت نـدا. وربما جرى ولم يقل لهما أحد. وهي غير متأكدة إن كانت قد لاحظت هذه الظاهرة عند حضورها أم لا.

تنزل محروسة من السيارة. تطلب مـن نـدا ركـن سيارتها في مكان آمن. بعيدا عن أي مبنى. وليس بعيدا عن العمارة فقط. وتنتظرها لحين عودتها إليها. ستصـعد إلـى الشقة ؛لكي تطمئن عليها. وتنزل. وندا قبلت هذا راضية. لم تعترض عليه. مع أن نصفها قبله ونصفها الآخـر رفضـه. كانت تريد أن تكون أول من يرضِي وآخر مـن يقـول لا. خاصة مع محروسة صاحبة الكلمة والمشورة في العائلة.

تقول ندا لمحروسة إنها ستنتظرها حتى تعود. تطلب منها ألا تستعجل. وأن تأخذ راحتها ووقتها بالكامـل حتـى تنزل مطمئنة على ما في الشقة. تمشي محروسة نحو بـاب

العمارة، يجري نحوها صبي تنظر له. قلبها يقول لهـا إنهـا رأته. وإنها تعرفه، وإن كان عقلها لا يسعفها، وتتذكر مـن هو. يقول لها الصبي إنه ابن نادر. جاء يطمئن علـى شـقة عمته. وإنه بعد أن صعد إلى الشقة اكتشف أنها سرقت ليلـة الأمس.

أول خاطر جاء على بالها. وهي تستوعب ما قالـه الصبي. وهل يمكن أن يكون الكتاب في الشقة؟ وهل تمـت سرقته؟ ربما كان الهدف من السرقة هو الكتاب، ليست روح زوجها فقط هي التي تعرف أهمية الكتاب. هنـاك آخـرون يدركون خطورة المتاعب. الذي طلب منها زوجهـا البحـث عنه. كل شيء ممكن. وكل شيء مستحيل.

تنادي على البواب. تسأله عما جرى للشقة. يقول لها ببساطة وهدوء. إن الأمس جرى فيه الزلزال. هـل علمـت بذلك؟ يتوقف عن الكلام من أجل أن يسألها. وتضطر للـرد عليه بهزة من رأسها. رغم رفضها أن تكلمها ندا بالإشـارة في ليلة الأمس.

كلام البواب يصبح أقـرب إلـى الثرثـرة. يـروح ويجيء، يتكلم في كل الأمور. التي ربما لا ترغب محروسة

في الاستماع إليها. يذكرها أن الزلزال كـان بـالأمس وأن العمارة سليمة. وأساسها متين ولم يحدث لها أي شرخ بسيط. العمارة كالألماظ. صاغ سليم.

لكن الحلو لا يكتمل. لفت عصابة على البيوت كلهـا – هكذا قالوا له – وخيروا سكان الشقق بـين أن يـدفعوا أو يسرقوا. والشقق التي كان أصحابها غائبين كان على البواب، أو الجار أن يدفع نيابة عنهم. لم يكن معه ما يدفعه؛ لأنـه لا يملك المطلوب الذي لا يعرف مقـداره. لا لهـذه الشـقة أو لغيرها، ولم يكن أمامه أي باب يمكنه الحصول على المـال منه.

سهر أمام العمارة. لم يهوب النوم ناحية عينيه. عيناه مفنجلتان. وهل نام أي بواب ليلة الأمـس؟ ليلـة ولا كـل الليالي؟ كل ساعة زلزال صغير يهز الدنيا. ويذيع التليفزيون عنه بعد أن يقع.

بحث عن بعض السكان الموجودين؛ لكي يطلب منهم إبلاغ القسم بالتهديد. معظم السكان كانوا مثل ابنتها. اشتروا الشقق وأغلقوها. ويعملون في الخارج. وهل هناك من يعمل في الداخل قادر على شراء شقة في مثل هـذه العمـارة؟! لا

يحضرون سوى في الصيف. سافروا يدوبك آخـر الشـهر الماضي. وأمامهم سنة قبل الحضور.

لم يفارق مدخل العمارة لحظة واحدة. سوى عنـدما خطف رجله وصلى الفجر حاضرا في المسجد القريب وعاد. اكتشف أن كل الشقق التي لا يوجد فيها سكان، وهي معظـم شقق العمارة، قد سرقت.

في العمارة أربع وعشرون شـقة. فهـي ١٢ دورا. وفي كل دور شقتان. الشقة الواحـدة بلـد. عشـرون شـقة أصحابها مسافرون. وأربع يسكنها أصحابها. وأصحاب هذه الأربع لم يقضوا الليل في الشقق. هل نسيت أن العمارة برج. والناس خافت من كل ما هو عالٍ بعد الزلزال.

لم تصدقه محروسة، ثارت في وجهه، لماذا لم يذهب إلى القسم ويبلغ الضابط النوبتجي؟ أقـل القليـل أن يعمـل محضرا بما يقوله. قال إن القسم بعيد. هذا الحي فـي حجـم مدينة، ويله ويلين، إن ترك العمارة وذهب لكي يبلغ القسـم يكون قد أخطأ، فضل البقاء أمام العمارة، ولم يفارقها سـوى من أجل فرض الله، وهي تقول إنه أخطأ، وإن كانت العصابة

دخلت العمارة، فمن المؤكد أنهم لم يدخلوا من المدخل، ربما صعدوا فوق المواسير.

نظرت له لدقائق، وهي تتصور أنه متواطئ معهـم، مشارك لهم، هل هناك من يهـدد بالسـرقة؟ ويبحـث عـن الأموال في الشقق؟ ويقول الدفع أو السرقة؟ ولا فتوات زمان فعلوا هذا. كان البواب يتكلم بهدوء غريب، سألت عن مكان القسم. وعادت إلى ندا، حتى تذهبا وتحررا محضرا بالسرقة.

كيف فاتها أن تقضي الليل في الشـقة التـي بـدون صاحب. كيف ذهبت إلى البيت الذي فيه أصحابه؟ ونسـيت البيت الوحيد الذي كان يجب البدء به والبقاء فيه؟ صحيح أن البعيد عن العين بعيد عن القلب؟ كيف تسكعت وقضت الوقت عند هذا وذاك، ولم تحضر إلى الشقة الخالية؟

هل معقول أن تقضي الليل عند التي تحاول سـرقة ابنها؟ ولا تذهب إلى شقة ابنتهـا المتغربـة؟ كـان يمكنهـا الحضور مع ندا إلى شقة ابنتها وتقضيان الليلة فيها. وتكون قد ضربت عصفورين بحجر واحد. هي المسئولة – الأولـى والأخيرة – عن سرقة الشقة. ولا بد من الاعتـراف بـذلك

بنفسها. تعترف بجريمتها ثلاث مرات. مرة لنفسها. ومـرة للآخرين. وثالثة وهذا هو الأهم لصاحبة الشأن.

توقفت وهي في الطريق إلى السيارة. هل تذهب إلى القسم لكي تبلغ بناء على كلام البواب؟ من سمع ليس كمـن رأى: إن سألها الضابط ما دليلك على سرقة الشـقة. مـاذا ستقول له؟ هل تقول إن البواب حكى وقال؟ لا بد أن تكون قد صعدت إلى الشقة، وكان معها البواب. الذي كـان يحـاول إقناعها بالذهاب إلى القسم. وإن ذلك أفضل من معاينة الشقة. قالت له وهي تبعده عن طريقها. إنها تعـرف مـاذا تريـد. وليست في حاجة إلى نصيحة من خائن مثله.

اتجهت إلى المصعد . كان بابه مفتوحا. والبواب قال لها. إن الأوامر التي عنده أنه لا يجب استخدام المصعد حتى تنتهي الزلازل الصغيرة؛ لأنه إن جاء زلزال – حتـى وإن كان صغيرا – وهي في المصعد. فإن هذا خطر على حياتها. وعلى المصعد.

إن كانت مصممة على الصعود. فالوسيلة الوحيـدة هي السلم. هل معقول أن تصعد ثمانية أدوار علـى السـلم؟ تموت قبل أن تصل. وقفت محتارة. اضطرت لسؤال شـيخ

المنسر الذي يقولون عنه البواب خطأً عن حالة الشقة التـي فوق.

الشقة مثل كل الشقق الأخرى. جدران وبلا وسقف. حتى لمبات الكهرباء وحنفيات المياه لا وجود لها. تسـاءلت: ومن أين وجدوا الوقت حتى يفكوا كل الحنفيات؟ واللمبـات والتركيبات؟! قال لها. الكثرة تغلب الشجاعة . سـألته: فـي العشرين شقة؟! قال لها: في العشرين شقة. سألته: ألم يتركوا ورقة توحد ربها؟

بدأ البواب يتكلم بلغة الخبير عن محتويات الشـقق، قال إن شقة ابنتها كانت متوسط الحال. فماذا عـن الشـقق " الهاي لايف" الأخرى؟ سألته عن باب الشقة؟ قال لها مفنـدق مثل باب القسم. أليس مفتوحا ٢٤ ساعة؟ هكذا باب الشقة.

عادت وهي تلوم نفسها أكثر من الأول. ليتها جاءت إلى هنا أولاً وظلت في شقة نادية حتى صباح اليوم التـالي. وصلت إلى سيارة ندا وهي تكلم نفسها. سـألتها نـدا عـن الحكاية.

قالت محروسة لندا:

- مصيبة وأنا السبب.

حكت لها ما جرى. طلبت منها أن تتجها إلى القسـم لعمل محضر. قالت لها ندا: إنه من مصلحتها أنها لم تكن في الشقة عندما جاءت العصابة. وهل لو جاءوا ووجدوها كانوا سيتركونها في حالها؟ إنهم يخرجون للعمل وشعارهم يا قاتل يا مقتول؟ لصوص وقتلة. لقد نجاها الله بعدم المبيـت فـي الشقة.

كانوا سيدخلونها باعتبارها شقة فاضية. ثم يفاجـأون بوجودها. فيخلصون عليها. في أقل من لمح البصر. إما هذا. أو تتعرف عليهم. ثم تصبح شاهدة إثبات ضدهم. إن كانـت تقول إن المبيت في شقة نادية. سيمنع سرقتها. فإنها تقول لها إن مبيتها بعيدا عن الشقة عمر جديد كتب لها. رب العـرش نجها. من هذا المصير.

قالت لها: فداك يا ماما. حياتك بالدنيا. ماذا يعني قليل من العفش؟ تنهدت محروسة. من قال إنه قليل من العفـش؟ قولي كثير من أغلى الأثاث. أكثر مما ينبغي وأغلـى ممـا يتصور. لم يكن ينقص الشقة إبرة خياطة ولا خيط. كان فيها

كل ما تحتاجه شقة واسعة. وكل ما فيها كان مستوردا. كانت ابنتها تدخر فيها. كانت بنكًا آخر ودفتر توفير ثانيا ووديعة.

قالت لها ندا. احتمال إعادة المسروقات أكثـر مـن ٩٠%، تمنت محروسة لو كان هذا الكلام صحيحا. مـع أن الذي يضيع لا يعود. سألت محروسـة نفسـها: هـل يعيـد المحضر ما سرق؟ أخذت معهما ابن نادر.

كان في القسم هرج ومرج. كأنه يوم الحشر العظيم، أناس كثيرون يصرخون ويتكلمون بصوت عالٍ. ويشـكون. بيوت تصدعت ومنازل تشققت. وضابط يصرخ فيهم. يقول: هذه مسئولية الحي. الشرطة لا علاقة لها بالأمر. وإن كـان الأمر خطيرا عليهم الاتصال بشرطة النجدة. ويمكن الاتصال بالإسعاف. إن كان هناك خطرا على الأرواح. أو المطـافئ إن كانت ثمة حرائق. أو الدفاع المدني إن كانت بيوت تقـع. أما هم. فدورهم يبدأ بعد أن تقع جريمة، جانٍ ومجني عليـه. وضحايا. وشهود نفي وشهود إثبات.

كان الضابط لحظة دخول محروسة القسم يطلب من معاونه كتابة عنوان الحي وتليفونه على ورقة كبيرة. ويعلقها على باب القسم؛ حتى يقرأها من يعرف القراءة والكتابة. ولا

يدخل عليهم من يدوش دماغهم. بكلام لا دخل لهم فيه. كـان الناس واقفين في حالة فضول. بعضهم صـدق وانصـرف. والبعد الآخر تلكأ وفضل الانتظار لعل وعسى. ربما كان هذا الكلام يقال من أجل تطفيشهم.

وقفت محروسة طويلاً. قالت لها ندا. كان لا بد مـن الاتصال مع أحد من المهمين في البلد. حتى يوصي علـيهم في القسم فيهتموا بهما. قالت لها محروسة. جئنا نطلب أبسط حقوقنا. كنت تتكلمين مع إنسان مهم لو أننا حضرنا من أجل استثناء. نحن نطلب حقًا.

ردت عليها ندا: المشكلة يا أمي أنه لا أحد يحصـل على حقه بدون الواسطة. كل الوسطات وكروت التوصية من أجل حقوق. حتى صاحب الحق لا يطمئن إلى أنه سيحصـل على حقه. ما لم يكن معه كارت توصية. أو اتصال تليفوني. وإن كان محظوظًا ورأى ليلة القدر يحضر المسئول المهـم معه بنفسه.

وقفت محروسة في طابور طويل. مات من الوقفـة ومن الانتظار. مع إن أهم ما في حياتها هو تلك القدرة على الصبر. سمعت من يقول: إنهم لا يحـررون اليـوم سـوى

المحاضر المرتبطة بالزلزال. حاولت ربط السرقة بالزلزال. لولا الزلزال ما مرت العصابة. عندما أتى دورها في الوقوف أمام الضابط. كان الطابور وراءها طويلاً. رفض الضابط تصديق روايتها. لم يتكلم عن علاقتها بالزلزال.

سألها الضابط:

- هل مروا عليك أنت؟!
- لا.
- مروا على من كان موجودا، وقالوا له هذا الكلام؟!
- على البواب.
- البواب يحضر ويثبت الكلام بنفسه. ويتم إثبات الحالة في محضر رسمي نيابة عن كل الشقق التي سرقت. إن كان الكلام صحيحا.

من حق البواب – قال الضابط – بحكم عمله أن يتكلم نيابة عن أصحاب الشقق التي سرقت. أما هي. فليس لها الحق في أن تتكلم سوى عن شقتها فقط.

حاول الضابط أن يتأكد. سألها من جديد:

- هل تم هذا في شقة ابنتها فقط؟ أم امتـد ليشـمل شقق الآخرين؟

قالت له:

- الكدب خيبة. البواب هو الذي قال لها إن الشـقق الأخرى التي بدون سكان سرقت. وإن كانـت لا تعرف هل تصدقه أم تكذبه؟

توقفت عن الكلام. وقالت وهي مترددة إنها تشك. لقد شمت في كلامه رائحة مشـاركة مـع العصـابة. أو غيـر العصابة. على الأقل تسهيل عملية السرقة.

عادت لكي تأخذ البواب لكي يعمل المحضر بما قاله لها. كان ذهابها إلى القسم بناء علـى نصـيحته. ودخلـت الحكاية في الجد. شغل المصعد. وصعد معها إلى الشقة؛حتى تشترك معه في المعاينة. ذكرته بما قالـه مـن أن هنـاك تعليمات بعدم تشغيل المصـعد. أدار وجهـه إلـى الناحيـة الأخرى ولم يرد عليها.

كان باب الشقة مكسورا. دخلوا من هنا. ولم يـدخلوا من على المواسير. دخلوا من مدخل العمارة يا بطل. قال لها إنه لا يعرف هذه النقطة بالتحديد.

دخلت لتلقي نظرة على الشقة الفارغة. نهبوا الكثير. ما قاله لم يكن دقيقًا. كل ما خف حمله وغلا ثمنـه أخـذوه. معظم الأدوات الكهربائية. الساعات الثمينـة المعلقـة علـى الحوائط. التليفزيونات. الراديوهات. المسجلات الاسـتريو. الفيديو. ريسيفر الدش. نزعوه من أسلاكه واسـتولوا عليـه وأخذوه.

الأثاث الثقيل كان كما هو. طلبت مـن البـواب أن يذهب معها إلى القسم من أجل المحضر. حـاول أن يـتكلم عمن يحرس العمارة في غيابه. وقد تحضر العصابة لحمـل ما لم يحملوه في المرة السابقة.

شخطت فيه. ثارت في وجهه. قالت له: سنوصـلك إلى القسم وسنبحث عن نجار لكي يصلح الباب حتـى يـتم إغلاقه. فلا يجب ترك الشقة مفتوحة على البحري إلـى مـا شاء الله. لم تفكر في المرور على الشـقق الأخـرى التـي سرقت، لسبب بسيط، أن أصحابها غير موجودين ولا تعرف

عناوينهم ولا المسئولين عن الشقق في غيـابهم، ولا أرقـام تليفونات و إلا لكانت قد اتصلت بهم.

سألت محروسة البواب عن رئـيس اتحـاد مـلاك العمارة. فقال لها البواب إنه غير موجود. مسافر. سألت عن أي وسيلة للاتصال به. فقال لها: إنني بواب ولا أحـد مـن السكان يعطيني أرقام التليفونات. ولا وسيلة للاتصـال بـه. يعتبرون ذلك من الأسرار التي لا تقال لمن كانوا مثلي. كـل ما يعرفه هو اسمه المدون في لوحة الإعلانات فـي مـدخل العمارة، أما ما هو أكثر من هذا فلا يعرفه.

كان البواب لا يريد الذهاب إلى القسم. بعد أن تعلـل بعدم قدرته على الغياب عن العمارة. وعـدم وجـود مـن يحرسها بدلاً منه. عاد يقول إنه لا توجد معه بطاقة عائليـة، وإن ذهب سيحجزونه. يأخذونه تحريات. ثم من قال إنـه لا توجد شهادة لبواب؟ لا شهادة لبواب. من سيستمع إليه؟ مـن الممكن أن يستمعوا إليها. أما هو فلن يستمع إليه أحد.

ضمنت له العودة سليما. وضمنت له سماع شهادته. قالت له إن الضابط هو الذي طلبه. وقال إنه يريـد سـماع شهادته. بدأ البواب يتكلم عن الغياب عـن العمـارة. تـرك

العمارة في هذا الوقت مسئولية. من يتحملها؟ لا يمكنه تـرك العمارة وفيها عشرون شقة مفتوحة.

كانت محروسة قد وصلت إلى حافة التصميم الذي لا يناقش على ذهابه إلى القسم. وإلا اتهمته بالتواطؤ مـع مـن سرقوا العمارة. حدثت مشكلة والتف حولها عدد من البوابين وعابري السبيل. وقال كل واحد رأيه وكانت معظم الآراء أن البواب لا بد من ذهابه إلى القسم وإلا سيلبس السرقة. ثم إن المحضر في صالحه، وجزء من عمله، وكان يجب أن يعمله من نفسه، وقبل دخول الحاجة.

استأذن من محروسة ومن الواقفين للصـعود إلـى العمارة، والمرور على الشقق التي سـرقت ؛حتـى يعـرف أرقامها وعددها. صعد وغاب صعدت إليه وأنزلته. يتصـنع أنه يفعل شيئًا ما. يحاول أن يتهرب من الذهاب إلى القسـم. قال لها: هل دخول القسم في سهولة الخروج منه؟

بعد أن أدخلته في السيارة بالقوة أو هكـذا تخيلـت وأغلقت الباب عليه. حاول أن يعود حتى يوصي زوجته على العمارة. أبقته محروسة في السيارة. وذهبت إلـى حجرتـه

وأوصت زوجته على العمارة حتى يعود زوجها من مشوار معها. لن يستغرق أكثر من ساعة.

في القسم سلمته للضابط النوبتجي، قالت إنها تتهمـه بالتواطؤ مع الذين سرقوا شقق العمـارة، سـرقة جماعيـة، عشرون شقة سرقت. كم من الوقت استغرقه ذلـك؟ كيـف نزلت كل المنقولات من الشقق وحملت على السيارات؟ ثم إن الشقق كلها مفتوحة من أبوابها. وهذا يعني أن المسـروقات خرجت من باب العمارة. الذي يسكن بجواره. استمع الضابط لكلامها. دون أن يدونه، وكان ينظر إلى البواب كلما قالـت جديدا.

استأذنت وتركته. قالت للضـابط إن البـواب الـذي أحضرته له بنفسها، لا يجب عليه أن يتركه قبل أن يحضـر الذي سرقوا الشقق. قال البواب إنه لا يعرفهم، والضابط قال إنه يعرف شغله بعيدا عن التعليمات والتوجيهات.

مشت، تركت القسم، بحثت عن نجار يعيد باب الشقة إلى ما كان عليه. يتربس الباب. يغلقه. قالت لها ندا إنهما لا بد وأن تحصلا على اسم وعنوان وتليفون النجار؛ لأنـه أول من يعرف سر الباب الجديد.

والنجار من جانبه أخرج دفترا ودون بيانات الشـقة. وطلب منها بطاقتها ونقل بياناتها وجعلها توقع علـى إقـرار أنها صاحبة الشقة التي سيذهب لإصلاح بابهـا. أمـا عـن الأتعاب فقال إنه لن يتكلم عنها إلا بعد أن يعرف المطلـوب عمله.

اشترط عليها أن توصله وأن تعيده لمحله بالسـيارة، وقال لها إن انتقاله من محله له حساب خاص. خاصـة وأن كل الصنايعية الذين عنده في الخارج. يعملون عنـد زبـائن مثلها، وانتقال الأسطى له حساب؛ هذا لأنه سـيترك عملـه فترة من الوقت، قد تطول. وتعطل كل الأعمال التي يشـتغل فيها، وهو لن يذكرها أن هذا اليوم موسم عمل. لم يحدث من قبل. ثم إنه يقوم بعملين في وقت واحد. نجارة وفني كالونات وأخصائي مفاتيح. وكان يمكنه أن يجعلها تعتمد علـى كـل هؤلاء الصنايعية.

عندما اعترضت على كلامه عن زيادة الفلوس التي قال إنه سيضيفها مقابل ذهابه معها. سـألها وهـل كشـف الدكتور في العيادة مثل أجرة ذهابه معك إلى البيـت؟ ردت على سؤاله بسؤال: وهل أنت دكتور يا حسـرة؟ قـال لهـا

دكتور ولكن في نجارة الخشب أعرف في شغلي ما لا يعرفه الدكتور.

قال لها إنه يمكن أن يخفض من السـعر إن كانـت هناك أبوابا أخرى تحتاج إلى نفس الشغلانة. قالت لـه فـي العمارة عشرون شقة تحتاج إلى شغل في الأبواب ولكنها لا تعرف سوى شقتها هي.

في المرة الثانية صعدت معها ندا والولـد. خافـت عليها من الصعود بمفردها مع النجار في عمارة لا يسـكنها سوى الأشباح. يسكنها الغائبون بغيابهم. أحضرت لها كرسيا من داخل الشقة ؛حتى تجلس عليـه لحـين الانتهـاء مـن الشغلانة.

ندا والولد تابعا كل ما قام به النجار. والنجار عرض على محروسة شراء كالون جديد. وأن يصلح الباب ويريحه فيه. قالت: لا المقصود هو مسمرة الباب الذي لن يفـتح إلا عند حضور أصحاب الشقة في الصيف القادم. ندا تـدخلت، قالت: إن أصحاب الشقة على سفر عـابر. سـيعودن منـه الأسبوع القادم. كذبة بيضاء؛ ربما كان النجار جـزءا مـن العصابة التي سرقت البيوت والشقق.

قبل أن يغلق الباب نهائيا أخذتها ندا. مرتا على كـل مداخل الشقة ومنافذها من الداخل. الشُرف والنوافذ وشـباك الحمام وشباك المطبخ، وهما الملاصقان لمواسـير الميـاه، ومواسير الصرف الصحي. كانت كل المخارج سـليمة لـم تمس.

كان أكثر ما أحزن محروسة أنهم سرقوا اللوحـات والصور المعلقة على الحيطان. كانت هنا صورة لمحروسـة مع نجم الدين. وكان هنا صورة ثانية لكل الأشقاء الذين لـم يعد يجمعهم سوى هذه الصورة. صورة نادرة. كانوا يفكرون في أخذها؛ لكي يطبعوا عليها نسخًا أخرى كثيرة.

نجم وهي والأولاد السبعة في وضع أصبح من رابع المستحيلات إعادته. مات من مات. ورحـل مـن رحـل. وحدثت مشاكل بين البعض. كان جمع شملهم حتى من أجـل النقاط صورة غير ممكن، ولا في الأحلام.

سألتها ندا: هل كان الإطار لونه أصفر؟ أومأت لهـا نعم. عادت وسألتها محروسة:

– لم؟

قالت:

- ربما تصوروا أن الإطار مـن الـذهب ؛ولهـذا سرقوا الصورة. هل هناك من يسرق صـورا؟ الورق لا يجد من يسرقه. هل هناك من يسـرق كتابا؟

سقط قلبها بين ضلوعها، وفقدت حتى القـدرة علـى التنفس، قالت ندا كتاب؟! لا يأخذه سوى تاجر الروبابيكيا مع الجرايد القديمة، وبعد اختراع أكياس الورق يرفضون أخـذ كل ما هو ورق. اطمأنت محروسة. ندا تتكلم عـن الـورق وليس عن الكتاب الذي سيبقى سرها الخاص.

***

قررتا العودة إلى القسم للإدلاء بالأقوال الجديدة أمام الضابط، ولتعرفا تصرفه إزاء البواب. وهل هناك أمل فـي الوصول إلى المسروقات. سألتها ندا، هل معها توكيل رسمي من نادية بإدارة الشقة ورعايتها في غيابها؟ قالت لا، هل كان أحد يتوقع ما جرى؟ قالت ندا: بعد أن تمر المحنة لا بد مـن الاتفاق. مع باقي السكان على تكليف شركة مـن شـركات

الأمن الخاصة بحراسة العمارة. البـواب موضـة قديمـة. وشركات الأمن الخاصة هي الضمان للشقق التي توجد فيهـا أدوات تقدر بمبالغ ضخمة وخيالية.

ذهبتا إلى القسم. اتجهت محروسة إلى الضابط. الذي سلمته البواب يدا بيد قالت للضابط:

- البواب مشترك وموالس مع العصابة التي سرقت الشقة.
- أي بواب؟ أي شقة؟
- شقة ابنتي التي سرقت. هل أذكرك؟

ردت عليه وهي تشير إلى نفسها:

- أنا التي أحضرت لك البواب.

سألها:

- أي بواب؟

بدا كأنهما يلفان في دائرة مفرغة.

قالت له:

- سلمته لك يدا بيد.

أشارت إلى المقعد الخالي أمام المكتب الذي يجلـس عليه. قالت: كان يجلس هنا، رجل صـعيدي يلـف رأسـه بلاسة. اكتشفت في هذه اللحظة فقط غياب البواب. شـهقت. هل هرب البواب حتى من البوليس الـذي أحضـرته إليـه بنفسها؟ صاحت في الضابط. طلب منها التزام الهـدوء ،وأن تكون مهذبة في كلامها وألا تنسى – ولو للحظـة واحـدة – أنها في قسم شرطة، وأن الضابط يقوم بعمله. وأي تعدٍ عليه يجعله يلقي القبض عليها ويعرضها على النيابة.

ذهبت إلى رئيسه، نائب المأمور. فـأنكر الضـابط النوبتجي أنه تسلم منها البواب. سألها: هـل البـواب كيلـو جوافة حتى أتسلمه منك؟ قالوا لها إن كل المطلوب منهـا أن تقدم شكواها وهم سيتصرفون في الأمر. سألها نائب المأمور عن اسم البواب، قالت أيضا لا تعرف اسمه. والبلد الذي جاء منه؟ قالت إنها لا تعرف. سألت: متى سيرسلون من يقـبض على البواب؟ لكي يحضره لهم؛ لأنها لا تسـتطيع إحضـاره مرة أخرى؟

قالوا لها مشكلتها واحدة من آلاف المشاكل في البلد، زلزال ومصائب وتوابع فماذا يفعلون لها؟ قالت لهم إنهـا أم

قاضٍ معار يعمل في الدول العربية. أرسل الضـابط معهـا أمين شرطة؛ ليحضر البواب بمعرفته.

في العمارة تكتشف عدم وجود البواب وأسرته. وكل البوابين الذين في العمارات المجاورة، أنكروا معرفتهم سوى باسمه الأول: سعيد. ولكن ماذا بعد؟ لا يعرفـون. ومـن أي البلاد جاء؟! ضربوا كفًا بكف. ومـن الـذي جـاء بـه؟ لا يعرفون، وأين هو رئيس اتحاد الملاك الذي من المفـروض أن معه صورة البطاقة الخاصة به؟ علم مكانه عند الله.

اقترحت عليها ندا أن تذهب إلى حيث شـقة نـاجح، وبعد الاطمئنان عليه تعودان إلى العمارة، ولا بد أن البـواب سيظهر عندما يعرف أنها مشت ولن تعود. كانت محروسـة قد وصلت إلى حالة من الزهد. كل الأمور أصبح تتسـاوى عندها. لم تعد راغبة في العودة إلى القسـم أو البقـاء فـي العمارة. حتى إكمال مشوارها.لم تعد راغبة فيه. قالت لنـدا كل الأمور سيان.

كانت تخشى مما يمكن أن تفاجأ بـه عنـد نـاجح. وكانت تخاف مما يمكن أن تجده عند نادي. كان الألـم قـد

وصل إلى حبة قلبها. نخاع عظامها، وكانت قد بدأت تشـعر بألم جديد وطارئ في عينيها.

١٦

.. ندا هي التي اقترحت علي أن نكمل مشوارنا، ما ذنب الذين لم أذهب إليهم حتى أظلمهم. ما دمت قد ذهبت إلى الجميع فلا أقل أن أذهب إليهما، قد يكونا في شدة أكثر مـن الذين ذهبت إليهم. تساءلت في مرارة: وهل هناك مـا هـو أكثر؟!

قالت لي ندا، فات الكثير ولم يبق سوى القليل، وأين هذان المشواران من المشاوير التي قمت بها؟ قلـت لنفسـي إنهما ليسا مشوارين. ثلاثة مشاوير، ولكن المشوار الثالث لا علاقة لك به. إنه المشوار الوحيد الذي لا يمكن أن تكون لك علاقة به، بعينك، لن آتي على ذكـره، وعنـدما أقـوم بـه سأستأذن منك، أشكرك على ما قدمته لي وأودعك، على أن يكون الوداع الأخير لا أراك بعده.

عرضت علـي أن تتركنـي، أو أن تبقـى معـي، عرضت علي الذهاب إلى البلد وتقوم هي بالمشوارين بـدلاً مني، قلت يا عيب الشوم. قالت إنها لن تقوم بهما بمفردهـا، سيكون معها نجم الدين الصغير، ابن نادر، قالت هذا وملست

على شعره المسبسب الجميل، ذكرني منظر شعره بأمه، قلت لها إنني هنا وسأقوم بالمشوارين، والتعب يمكـن أن يؤجـل لحين العودة إلى البلد.

لعب الفأر في عبي. ندا تريد أن تصبح واحدة مـن العائلة، تدوس بقدميها في حبات القلوب وتكسر أعينهم بهـذا الجميل. وتفرض نفسها كواحدة من العائلة. وهل هناك أكثر مما تقوم به يعطيها هذا الحق؟.

وناجح الذي يعيش في العباسية لم يكمل تعليمه. تعلم تعليما متوسطًا. كان والده يريد منه أن يدرس التـاريخ. وأن يدون تاريخ مصر. منذ بدء الخليقة. وحتى الآن. لكن نـاجح رفض ما يريده والده تسيطر عليه فكرة أن يصـبح رجـل أعمال. كان يقول لنفسه إنه رائد. الريادة تأتي من أنه فكـر في هذه الشغلانة قبل أن تصبح حكاية رجال الأعمال أهم ما في البلد. وشغلانة من ليست له شغلانة.

كان يقول إن كل المطلوب حتى يصبح رجل أعمال، القيام بعملية واحدة تضرب معه وترفعه لفوق ويصبح رجل أعمال. ويتحول إلى شخص ملء السمع والبصر. كان رجال الأعمال قد هلوا على البر، وكـان نـاجح يشـاهدهم فـي

التليفزيون في الإعلانات بالتحديد. ويقرأ عنهم في الصـحف والمجلات، كانت تلهب خياله وتبهر فؤاده قصـص النجـاح الغامضة التي كان يسمع عنها. كان والده يحذره ويقول لـه إن كل ما يسمعه كذب في كذب، وإن الوجه الآخر للصـورة لهؤلاء. والشوارع الخلفية لكل واحد مـنهم. يختلـف عمـا يقولونه للناس. إن ما يعلنونه عن أنفسهم يعتبر نوعـا مـن الزواق. الطلاء الخارجي، المصدر إلى من هم أمثاله. مـن المبهورين.

كان مصمما. كان يقول إنه جاء إلـى العـالم لكـي يصبح رجل أعمال. وإنه لا يصلح لأي عمل سوى أن يكون رجل أعمال. كان يقول عن نفسه رجل الأعمـال الصـغير المعجزة. الصبي المعجزة. الطفل المعجزة. كان يصف نفسه بأوصاف غريبة.

لم يكن يعنيه الطعام والشراب، كان همه الأول هـو مظهره. من يومه وهو حريص على ربطة العنق، حتى فـي عز شهري يوليو وأغسطس. في عز الحر. كان يبدو مثـل السياسيين والقضاة ووكلاء النيابة. البدلة الكاملة والقمـيص وربطة العنق، والنظارة السوداء. يمشي على سنجة عشـرة.

حتى لو كانت فانلته الداخلية مثل شبكة الصياد مـن كثـرة الثقوب التي فيها.

يقول إن مظهره هو نصف رأسماله. وهـو أيضـا نصف الطريق إلى نجاحه. لكن والده – يرحمه الله – قـال له: وماذا عن نصف الطريق الآخر إلى هذا النجاح؟

كان قبل أن ينام يلمع حذاءه بنفسه. ويضـعه فـوق المكتب. الذي كان يذاكر عليه. هو وأخوته. وكل ليلة كانـت تنتهي بخناقة بينه وبين أشقاءه. عندما يضـع حـذاءه علـى المكتب، الذي من المفروض أن يذاكر عليه أشـقاءه. كـان يفرش جريدة. يضع الحذاء عليها. كان إخوته يسألونه: هـل يتساوى العقل مع الحذاء؟ لم يكن يعـرف الإجابـة. وتبـدأ المشاكل التي لا تنتهي سوى بتدخل والده.

كان يغسل شرابه بنفسه. وكان يكوي ملابسه بنفسه. وكان أكثر ما يهتم به ياقة قميصه وأساوره. كـان يـرفض إرسال الملابس إلى المكوجي. كان يقول إنه لو أرسـلها لا يضمن أن تشيط منه. نتيجة خطأ ما. وفي الملابس الخارجية غير مسموح بالخطأ حتى ولا بنسبة واحد في المليون. ذلـك

أن الملابس هي جواز مروره – ربما الوحيد – إلـى دنيـا رجال الأعمال.

المظهر وحل مشكلته. ولكن ماذا عن البـاقي؟ عـن رأس المال؟ قال له والده. إن الملابس هي الجهاد الأصـغر. ولكن الجهاد الأكبر هو رأس المـال. لـف ودار. داخ مـن الدوران. ولم يتمكن من البدء. والده قال له: كله إلا حكايـة رأس المال. لسبب بسيط. أنه لا يملكه. لكن ناجح لم ييـأس. كان نبع الأمل في داخله بلا حدود. كل يوم كان يقـول: إن الغد سيكون أحسن. وإن أتى هذا الغد. ولم يأت الأحسن. كان يعدل الشعار. كان يقول إن بعد الغد. أو بعد بعد الغد. ربمـا كان أفضل.

انتظر أخته نادية، إلى أن حضرت فـي الصـيف. ذهب إليها. وبعد المراحب والسلامات والذي منه، دخل فـي الموضوع. طلب منها أن تقرضه مبلغًا من المال يبـدأ بـه حياته، سألته عن المبلغ المطلوب. كان في ذهنها مبلغ أقـل كثيرا من الذي طلبه.

فوجئت بضخامة المبلغ. مائتي ألف جنيهـا. ولكـي يقصر المسافة عليها. نطقها بالدولار؛ لأن الرقم سيكون أقل.

قال لها. خمسة وسبعون ألـف دولار أمريكيـا. قالـت لـه والدهشة تسبق كلماتها. لا يمكنها أن تعطيـه هـذا المبلـغ. سألها: كم يدفع لها البنك فائدة على أموالها؟ قالت: ليس معها هذا المبلغ الكبير. كان كبره مفاجأة لها.؟ سألها: مـا سـعر الفائدة؟!

قبل أن ترد. قال لها. أليس ٧% وقبل أن ترد عليه. قال لها. من الممكن أن يصل معها إلـى ٢٠% فائـدة. أي حوالي ثلاثة أضعاف المبلغ الذي تحصل عليه مـن البنـك. علاوة على صلة الرحم التي تعطيه أحقيـة وأولويـة علـى البنك.

قالت له إن كل ما تملكه. لا يكمل جزءا من المبلـغ الذي طلبه. حلفت على المصحف الشـريف. رفعتـه علـى عينيها وأقسمت حتى يصدق. طلب منها أن تطلب من زوجها هذا المبلغ. وسيصبح فرصة لتؤمن نفسها ضد غدر الرجال. قالت إنها لا تستطيع ذلك. البساط مع زوجها ليس أحمديا إلى هذا الحد.

كان عندها حل آخر. أن تبحث له عن عمل وترسل له العقد. ومعه تذكرة الطائرة، ويجرب حظه، ويدخر المبلغ

الذي يبدأ به. سنة أو سنتين. بالكثير ثلاث سنوات، ويعـود برأس المال المطلوب وربما أكثر. من يدريه. قد يقرر البقاء هناك ويصبح رجل أعمال في بلاد الغربة.

رفض مناقشة الفكرة. سنة؟ سنتان؟ ثلاث سـنوات؟! لو ترك البلاد أسبوعا. سيعود ليجد أنها بلاد آخر. الفـرص لا تنتظر الناس. سيعود ليجد أنه لم يعد له مكان. والمبلغ الـذي حدده للبدء سيتغير. سيكبر. المائتا ألف جنيهـا قـد تصـبح مليونًا بعد سنة. ومليونين بعد سنتين. كل سنة تـأتي معهـا بمليون زيادة. قطار رجال الأعمال انطلق، ولن يتوقف فـي انتظار أحد. أي مجنون يقبل الرحيل؟

قال لها إنه لا يطيق أن يصبر، وحتى إن سافر معها وعاد. فإنه لا يضمن أن تكون الأمور مازالت سهلة وميسرة. كما هي الآن. الجميع في حالة سباق مع الزمن. إما أن ينجز ما يريده.. وإن تأخر ربما تكون الفرصة قد ضاعت للأبـد. علينا أن نجري وراءها.

كان يرى أن باب الفرصة يدقه الإنسان مرة واحـدة في حياته. وإن لم يفتح له الباب ضاعت منه. وذهبـت إلـى آخر. ربما كان أكثر استحقاقًا لها. وإن ضاعت منه. ضـاع

منه العمر كله، ولكن إن فتح الباب. ربما كانت ضربة الحظ. التي يمكن أن ترفعه أعلى مما كان يتصور. الخيال البشري يعجز عن تصور الأمور لو كانت الرياح مواتية.

ترك أخته ولم يعد لها، لم تكـن تمثـل لـه سـوى مشروعه المجنون. ولم يكن يسـمح لأحـد أن يـتكلم عـن المشروع بطريقة لا ترضيه، مر على إخوته. تحـدث عـن مشروعه. اقترح تكوين شركة مساهمة. وكل واحد يشـتري أسهما. شركة عائلية. والربح يوزع حسب عدد الأسهم. ولم يكن مع أي منهم ما يعطيه له.

جاءني وتكلم عن الميراث بعد وفاة والده. أي ميراث تركه المرحوم؟ جاء إلي بعد أن فشل مـع الجميـع. كـان الميراث هو آخر سهم في جراب الحاوي الذي يحملـه فـي عقله.

قلت له قبل أن ينطق. شقة المنيل؟! أختـك تعـيش فيها. لعلها تحل مشكلة زواجها. وتخرجها من نفق العنوسـة المظلم الذي تعيش فيه. وهي شقة إيجار لا تسـاوي شـيئًا. الدار التي اشتراها أبوه في البلد التي أعـيش فيهـا؟ كـان يزورني في هذه الدار. وقد دهشت من هذه الزيارة كثيـرا.

ولم أتعب نفسي في معرفة سبب الزيـارة. دار فـي قريـة صغيرة. كم تساوي يا ناجح؟ فضلاً عن أنه بيت العائلة.

عرض علي الحياة معه في بيته الذي في العباسـية. رفضت. أي عباسية؟! قلت له لم يبـق سـوى التربـة وإن بعناها. أين ننقل عظام والده؟ وأين سندفن بعد الموت؟

ومعاش حضرتك يا نينة؟! نطق هذه الجملة بحنان لا أعرف من أين أتى به؟ لم يحدد ماذا يريد من معاشي؟ قلـت له إن المعاش لا يكفيني حتى نصف الشهر. ولولا ما يعطيني إخوتك لمددت يدي. النصف الثاني من الشهر تـزق الأيـام بعضها حتى لا أضطر إلى السلف. وأمد يدي للآخرين. وإن مددت يدي. من أين سأسد ما علي؟

قال إنه كان يفكر في رهن شقة المنيل. وبيت البلـد والتربة ومعاشها لبنك من البنوك. مقابل مبلغ يحصل عليـه. يبدأ به. قال لي. لا تنسي يا نينة أنني لم أتعلم تعليما جامعيـا مثل إخوتي. ولو تعلم لكان قد حصل على حقه.قلت له: أنت الذي اخترت هذا. وصممت عليه. كان هو الذي أثار حكايـة التعليم قبل نادر ربما كان نادر هو الذي سبقه. لا أذكر بدقة.

سألته لِم اختار السكنى في العباسية.؟ هل يسكن أحد بجوار المجانين؟! ألا يخشى على نفسه من عدوى الجنـون؟ قال إنها منطقة تجارية. وصناعية وقريبـة مـن المنـاطق التجارية الأخرى. تقع في قلب المدينـة. سـهلة الاتصـال والانتقال مع البلد كلها.

لم أفكر في زيارته من قبل. قال إنه كثيرا ما يكـون خارج البيت الذي لا يستخدم سوى في النوم فقط. وإنني لـو زرته لا بد وأن تكون معي ورقة وقلم لكي أكتب لـه بـالقلم على الورقة: حضرت ولم أجدك. والدتك. ثم أضع الورقـة تحت الباب.

أكثر ما كان يحز في نفسي ويحزنني ويسـبب لـي الألم. أن إخوته كانوا يقولون لي إنهم يقابلونه صـدفة فـي الشارع. أي صدف في مدينة يسـكن فيهـا الملايـين؟. لا يزورون بعضهم. البيوت وجدت من أجل التزاور. الأخ للأخ عزوة. والشقيق للشقيق سند.

بعد أن تمر هذه المحنة. سـأطلب مـنهم أن يـزور بعضهم البعض وأن يرتبطوا بصلات إنسانية. لو أن ظروفي كانت تسمح لجئت وعشت هنا. المعاش لا يكفي. في القريـة

الصغيرة لا يكمل الشهر. في أكثر الأشهر أمد يـدي علـى فلوس نادية. وعندما تحضر في الصـيف. وتعطينـي ممـا أعطاها الله. أكمل مما أخذته منها.

الأسعار في مصر أصبحت نارا ولا أستطيع الحيـاة فيها. وإن كنت لا أقول هذا في حضور أحد من الأولاد. وإن قلته أكون مضطرة. كانت المسافة من مدينـة نصـر إلـى العباسية قصيرة. وصلنا بسرعة من الحي الجديد إلى الحـي الوسط لا أقول عنه القديم ؛حتى لا يغضب مني ناجح.

ركنت ندا السيارة. وصعدنا نحن الثلاثة إلى الشـقة. أنا وندا ونجم الدين الصغير. من يدري؟ قد يجـد فـي نـدا هدفه. امرأة ومتريشة ومعها فلوس كثيرة. عائدة من الـدول العربية. حيث عملت هناك. إن لم يكن قد بدأ مشروعه، هـا هو مشروعه. البنت لزقت لي. والحل الوحيد أن أجـد لهـا بديلاً لنجيب.

خبطت الباب مرة مرتين. ثلاثًا. لم يرد علي أحـد. أوشكنا أن ننصرف، في الوقت الذي أتانا فيه السؤال مفزوعا ملتاعا من الداخل: مين؟ مين؟ قلت له: أنا. سأل: إنت مين؟! قل له والحزن يسيل من بين كلماتي. كيف لم تعرف صوتي

يا ابني؟! قال لي: من أنت؟ لست قاضيا لسماع مثـل هـذا الكلام. من أنت؟!

أخذ الحوار شكل السؤال والجواب من وراء البـاب. بطريقة أفزعتني. إن قلب الابن الذي لا يعرف صوت الأم لا يكون قلبا، وأنف الابن لا بد وأن يشم رائحة أمه. ويعرفهـا حتى دون أن تنطق. يحرمه من كلمة ابن.

كان ابني يصرخ من وراء الباب. كالأسير. كصوت الإنسان المحاصر. كان صوته يصل إلـى آخـر الشـارع. سألني: إن كنت أمه. من الذي معي؟ الأقدام التي دبت علـى بلاط الفسحة أكثر من قدمين. كان يقف وراء الباب لحظـة صعودهم. والأصوات هي دليله لرصد مـا يجـري خـارج الشقة.

الوقت ليس وقت العتاب. أقسمت لـه إننـي أمـه. أوشكت أن أذكره بعلامات في جسمه. لا تعرفها سوى الأم. أن أكلمه عن الوحمة التي في فخذه الأيمن، وعـن الحسـنة التي في صدره. ولكني تراجعت. إن تكلمت بصوت عـالٍ عن هذه الأمور. أكون قد أخطأت. عـدوى علـو الصـوت

انتقلت لي منه وإن همست قد لا يسمعني وقد يـزداد خوفـه مني.

عاد يسأل من الذي معي؟ قلت له معي ابن أخيه نادر نجم الدين. الذي يحمل اسم المرحوم. سألها: هنـاك ثالـث معها. من هو؟! قلت له: إنها صديقة لي. صـاحبة سـيارة خاصة. تبرعت أن تكون معي في هذه المشاوير الصـعبة. سألني: هل عندك ضمان أنها ليست لها صـلة بـالبوليس أو بالمباحث؟ سألته: وماذا فعلت أنت حتى تخاف من البوليس؟ وحتى تعمل للمباحث كل هذا الحساب؟

قال لي: ليس من حقي سؤاله. هو فقط الذي يسـأل. وأنا أجيب فقط. عاد يسأل: ما الضمان أن المباحث لم تـدس هذه المرأة علي؟ أو أن البوليس نجح في تجنيد الولد. علـى الرغم من أنه عمه. أقسمت له إنني أضمن الولـد والسـت. مثلما أضمن نفسي.

طلب مني أن ينزل الولد. وأن تنزل المرأة التي معي وألا أحاول خداعه؛ لأنه يدرك كل شيء بالسـمع. بعـد أن ينزلا إلى الشارع. سيفكر في فتح الباب لي. سـألني سـؤالاً

قطع قلبي: هل جئت لتسلميني يا أمي؟ لم أكن أعرف عن أي الأمور يتكلم. وتسليم من؟ ولمن؟

أقسمت له برحمة والده، وهذا أعز ما أحلف بـه، لا أعرف عن أي الأمور يتكلم. طلبت من نجم الدين بصـوت عالٍ أن ينزل. كان هدفي أن يسمع ابني الذي بالداخل هـذا الكلام. وطلبت من ندا أن تنزل وأن ينتظراني في السـيارة تحت.

سمع ناجح ابن بطني كلمة السيارة، وسمعت صوت حركة غريبة بالداخل. قال إنهم قبل القبض على أي إنسـان يحضرون سيارة حتى يأخذوه فيها. سألته: أي قبض عليك يا ابني؟! ابني في شدة. سكت حتى يسمع بأذنيه صوت الأقـدام النازلة. ويتأكد أن الولد الذي معي وأن المرأة التي معي، قد نزلا وأنني أقف بمفردي أمام باب الشقة.

وندا بعد أن أصبحت في الدور الذي أسـفل الـدور الذي أقف فيه. صاحت بأعلى صوتها. إنها ستنتظرني تحت. وهو سألني بعد أن سمع معي صوته من هي ندا؟ كان مـن الصعب الإجابة عليه.

هل أقول له: إن ندا هي حبيبة شقيقك القاضي؟ هـل أقول له. إنها تصلح لأن تكون عروسة له؟ أكدت له ما سبق أن قلته له. ندا هي صديقتي. جاءت معي لأن معها سـيارة؛ لتسهل لي الاطمئنان عليه.

١٧

.. قلعة أم حصن من حصون العصور الوسطى؟ أم بيت يسكنه بشر؟ ترابيس كثيرة. كان ينطق: الترباس الأول ثم يفتحه، يبدو أنه يريد أن يؤكد لنفسه عدد الترابيس ؛حتى يشعر بالأمان. وأنا كنت أميز الترابيس من أمرين: أرقامها التي ينطق بها، وصوت كل ترباس، الذي كان يختلف عن الآخر.

عندما بدأ يفتح الكالون الأول، كانت له ست سكات، وكانت هناك ثلاثة كوالين، كالون في أعلى الباب، بدأ به، وكالون أسفل الباب ثنى به. وكالون ثالث في المنتصف ختم به.

خمسة وعشرون سدا منيعا تحول بينه وبين العالم. هل هو في حالة حرب الدنيا؟. هل ينتظر جيشًا لغزو شقته سيصل بعد قليل؟ ما الحكاية بالضبط؟ جعلني المنظر الذي أشاهده أمامي أتشاءم، وأنا مؤمنة بحكاية التفاؤل والتشاؤم. ربما بسبب نشأتي الريفية، ومن طول العشرة مع نجم الدين النجومي.

استخرت في نفسي، قلت لأول مرة منذ رحلتي، اللهم اجعله خيرا. تمنيت أن يكون الأمر أقل مما توقعـت، ربمـا كان ناجح يبالغ في الحكاية ليحصل على شفقتي، وراء هـذا مصيبة كبرى، حدثت لناجح الذي كنا نتوق نجاحه، كان نجم الدين يقول لكل منا من اسمه نصيب. كنا نشعر بالذنب تجاهه لعجزنا عن أن نوفر له ما يبدأ به حياته. كنا نعتمـد علـى ذكائه ونجاحه في بعض الأمور العملية.

بعد أن انتهى من فتح الترابيس والمتاريس والسكات، شد الباب إلى الداخل، ولكنه لم ينفتح، كانت ثمة سلسلة مـن الجنزير وراءه، تشد الباب إلى الحائط، أبقاهـا كمـا هـي، ونظر. كل هذا ولا يثق أن التي بالباب هي أمه، ولا يصدق أن اللذين مع أمه قد نزلا.

نظـر إلـي أكثـر مـن مـرة. دارت عينـاه في محجريهما. كما أعين اللصوص، وقطاع الطرق والقتلة. كانت عيناه تدوران بوجل واضطراب، نظراتـه مـذعورة؛ لدرجة أني خفت منه وذكرتني بنظرات المجانين.

كان ينظر إلي بطريقة غريبة. وأنا واقفـة صـامتة، الستر أهم ما عندي. أراعيه. في كل تصرفاتي. ربما ينظـر

جيرانه من العين السحرية، يرون المشـهد، ولـو تكلمـت سيسمعونني؛ ربما لا يعرف أحد من جيرانه الأزمة التي يمر بها.

نظرت إليه في صمت. سألني: احلفـي بالمصـحف الشريف هل معك أحد؟ حلفت له به بالمصحف الشريف إني بمفردي. هل مازلت تذكر يا ناجح المصحف الشريف؟ الذي كان أبوك يحلفك عليه كلما شك في كلامك. وتصـور أنـك تكذب عليه. الحمد لله، إن لسانك القديم مازال في فمك. وأنك مازلت تذكر القسم والحلفان. والذي كان أبوك يحلفك به فـي سالف العصر والأوان. استعاد وجهه إنسانيته القديمـة لأول مرة.

حلفت له بالمصحف الشريف ثلاثًا. وحلفت له برحمة الغالي إنني بمفردي. قبل أن يفتح الباب والسلسلة، رفع أشياء كثيرة من وراء الباب. كانت ثقيلة ؛لأنني سمعت صوته يئن وهو يرفعها.

رفع السلسلة ووارب البـاب. أصـبح بـين البـاب والجدار شق صغير، مثل شق الثعبان. كانت فتحـة البـاب أضيق من فتحة القبر. وهل هناك أضيق من القبر؟!

مررت بجانبي، تمكنت من الدخول بصعوبة، بعد أن دخلت، نظر على بسطة السلم، نظر يمينًا وشمالاً، نظر على السلم الصاعد إلى أعلى، والسلم النازل إلى أسفل، نظر على باب شقة الجيران الذي كان مغلقًا. بعد أن انتهى دور عينيه، جاء دور أذنيه، تصنت، حاول أن يتصيد أي أصوات يمكـن أن يتتبعها ،وأن يحاول اقتفاء أثرها.

ربما كنت أول من يدخل هذا البيت منذ أيام وربمـا أسابيع أو شهور مضت؛ كل المنافذ مغلقة بإحكـام، رأيـت كومة من الحديد والأثاث مركونة وراء الباب.

سألني: هل كان أحد يعرف أنني سأحضر إليه؟ قلت لا. عاد يسأل: هل لاحظت وأنت في الطريق أن هناك مـن يتبعك؟ سألته: لماذا يمشي ورائي الناس؟ قال: من أجـل أن يعرفوا مكاني، ويقبضوا علي. سألته وأنا مازلت واقفة: ولِـم يمسكون بك؟

جلس لأنه كان متعبا، كان يرتدي شورتًا وفانلة على اللحم، بدا لي نحيلاً نحيفًا، لدرجة التلاشي والـذوبان، هـذا أنحف جسم أراه بعد راقصة الباليه، من الصعب أن يكـون الذي أمامي هو ناجح، من قبل كان ممتلئًا، كان أحلى أبنائي،

وكنت أتفاخر بجماله، كنت أقول إنه لو جاء إلى الدنيا بنتًـا لقتل الرجال أنفسهم من أجلها، لتقاتل الخطاب وقتلوا أنفسـهم من أجل سواد عيونها. لكنه جاء رجلاً، إنه لا يقل جمالاً عن سيدنا يوسف، الذي جعل جماله النسوان يقطعن أياديهن بدلاً من التفاح، وجعل زليخة، زوجة عزيز مصر يطير برج من عقلها بسبب جماله. ناجح كان في نفس جماله.

سألني أبوه: وهل الجمال في الرجل عيـب؟! كـان سيدنا يوسف رجلاً وكان أجمل من الجمال نفسه. أقول لـه: إن الجمال مطلوب في البنت أكثر منه في الرجل.

تبخر جماله، تبدد، وجهه غابة من الحفـر وأطلـق لحيته، بدا مثل الأولاد السنية الذي نشاهدهم في كـل مكـان حول الجوامع وعلى النواصي. شعره منكوش. أيـن أناقـة رجل الأعمال؟ نصف رأسماله ونصف الطريق إلى نجاحه؟ أين جمال الصبي الذي فعل ما لم يقم به الكبار؟ هكذا كـان يقول عن نفسه.

لم يطلب مني الجلوس؛ لأنه لم يكن فيه مكان يمكنني الجلوس فيه، الكنبة والمقاعد كانت مشغولة، فوضى تسـود

البيت. جلس ووضع ساقًا ترتعش على ساق ترتعش. كـدت أضحك للمرة الأولى في هذه اللحظة الكئيبة.

هو فعلاً ابني ناجح، لا يمكن أن يجلس سوى بهـذه العنطزة والفشخرة الكذابة؛ليعطي من أمامه الانطبـاع بأنـه رجل أعمال بحق وحقيق، حـريص علـى المظهـر رغـم ظروفه. شبك يديه المرتعشتين على رجليه، حاول أن يـنظم تنفسه؛ لأن نفسه كان مكروشًا.

قلت له خد نفسك أولاً. هل أحضر لـك بـق مـاء تشربه؟

قال لي إن فمه جاف، لكنه يحاول الاسـتغناء عـن الماء والكهرباء قبل أن يقطعونها عنه؛ لأنه متأكد أنهم فـي الغد، أو بعد الغد سيقطعون عنه حتى الهواء إن اسـتطاعوا ذلك.

يحاول أن يسبقهم ويستغني؛ حتى لا يكون محتاجـا لهم، في أيام الحصار الطويلة القادمة، سألته:

- من هم؟!
- الذين يطاردونني.

- ومن الذين يطاردونك؟!
- خصومي والشرطة.
- وهل اجتمعوا عليك؟!
- قال وقد استراح للسؤال:
- يريدون هزيمتي.
- ولكن البلد فيه حكومة.

شعرت برنين السخرية، وأنا أنطق بكلمة الحكومـة، ما رأيته في القسم، صباح اليوم، أكبر دليل على أني لا أقول له الصدق. أكملت:

- البلد فيها قانون، ونحن نعيش في مجتمع ولسـنا في غابة، قل لي ما المشكلة وأنا آخذ لك حقك.
- قال لي:
- كان غيرك أشطر، لن يأخذ أحد لي حقي؛ لأنه لا بد من معجزة.
- سألته:
- أي معجزة قال:
- أي معجزة والسلام.

لا أذكر أنه حكى حكايته مرة واحدة، أو قالها بطريقة مرتبة، كان يهذي، يهلوس، يتفتف أثناء الكلام.

عيناه زائغتان، ذكرتني طريقة كلامه بالمجانين، كان يتكلم بسرعة.

قال لي: إننا بعد أن خذلناه، ولم نعطه ما يبدأ به حياته. اضطر أن يؤسس شركة والسلام، وأن يأخذ بضاعة لكي يوزعها. كان يأخذها بسعر الجملة. لو كان معي رأسمال لحصلت عليها بسعر نصف الجملة.

سألته:

- وما الفرق؟

قال لي:

- كثير.

الربح في نصف الجملة ضعف الربح في الجملة، جهد عامين، يمكن القيام به في عام واحد، لو كان معي رأس المال لاقتصرت المدة إلى النصف، تصوري الجريمة التي كنتم السبب فيها.

أخذ مواد غذائية لكي يوزعها بضمان الشقة، ومحله، وسيارته، تأخرت أسبوعا في التوزيع، وحصلت على المواد الغذائية، دون أن يكون عندي أسطول توزيع. كنت أخـرج صباحا أبحث عمن يشاركني في التوزيع، وكـان صـاحب مخزن الجملة الذي توجد فيه البضاعة، قد أفهمني بضرورة السرعة في توزيعها على محـلات القطـاعي. حتـى لـو بالخسارة؛ لأن بقاءها عنده يشـكل ضـررا عليـه وعلـى البضاعة.

لم يجد من يشاركه. كانوا يسألونني عن الضـمانات ومن أين هذه البضاعة؟ ونسبة الربح. وأجر السيارات التـي ستنقلها، على من؟ وتأمينها؟ وحـلاوة السـائقين والتبـاعين والشيالين؟ دخل الموضوع في متاهة. ولأنني لم أكن أريد أن أبدو مستعجلاً، وأنني أريد الخروج من ورطة. كنت أتعمـد التأني حتى لا ينكشف أمري في السوق؛ فيأكلونني.

ليته بدأ بعملية صغيرة. يستطيع بإمكانياته البسـيطة القيام بها. لكنه قرر البدء بعملية كبيرة. مع أن والده قال له: إن الذي يبدأ صغيرا يكبر. أما الذي يبدأ كبيرا، فكيف يتطور بعد ذلك؟

ناجح كان يريد أن ينام ويصحو فيجد نفسه أكبر رجل أعمال في البر كله، كانت الخيالات قد أوصلته إلى حافة الجنون. كان إحساسه بالعظمة يجعله ينفصل عن الواقع ويتصور وجود أشياء لا وجود لها سوى في خياله المحموم.

كان يتكلم. كما لو كان يتكلم في التليفزيون. يجيب عن أسئلة لم توجه له. يشرح. يرد على اتهامات لم يتهمه أحد بها. كان يريد الكلام والسلام. حالة فضفضة تريح المأزوم. وتفرج عن المكروب.

سأل نفسه ذات صباح: ماذا يريد بالضبط؟ هل يرغب أن يكون رجل سياسة؟ أم رجل أعمال؟! كان يرد على سؤاله بسؤال: وهل هناك فارق بين الاثنين؟ رجل الأعمال مشروع صغير لرجل سياسة. ورجل السياسة جنين لرجل الأعمال. والاثنان يتلقيان معا. يمكن لهذا أن يخدم ذاك. ولذاك أن يسهل لهذا. والفصل بينهما خطأ. من الصعب معرفة أيهما يمهد للآخر. الفلوس توصل للسلطة؟ أم أن السلطة هي التي تحضر الأموال؟

اكتشف بعد أسبوع – يحكي ناجح – أن المواد الغذائية فاسدة. أصبح من المستحيل عليه توزيعها، والأكثر

استحالة أن يعيدها لصاحبها. ثم إنني لا أملك ثمنها. اشتريتها ووقعت باستلامها ولم آخذها، نقلت إلى مخزن تابع للرجـل الكبير. وإن كان له صاحب سواه. واضح أنه مـن رجالـه. وهكذا ظلت البضاعة عنده وهو مطالب برد ثمنها.

والرجل الكبير يا أمي. دقنه تغطى صدره. وجلبابـه أسود. والسبحة تنزل من يده لتصل إلى الأرض. وفي قدمـه بلغة سوداء. وعلى رأسه طاقية شبيكة سوداء. يلبسـها فـي نصف رأسه الأعلى.

لكن الدنيا انقلبت على الرجل الكبيـر. الـذي كـان يقضي نصف وقته يتمتم بآيات، دون أن يسمع أحد صـوته وهو مغمض العينين. ولا يدري ماذا يجري حوله. أو هكـذا يخيل لمن حوله.

اختفى الرجل الكبير. لا أحد يعرف مكانه. فماذا عن ناجح، وهو لم ينجح في أن يصبح من رجال الرجل الكبير؟ كانت الصفقة الأولى لاختباره. قال له الرجل الكبير: نريد أن يكون النجاح اسما على مسمى ولكنه لم ينجح. يعفي نـاجح نفسه من المسئولية. البضاعة كانـت فاسـدة فـات وقـت

الصلاحية. ولا يقول إنه دخل على صفقة أكبر من إمكانياته. وأوسع من قدراته.

قيل عن الرجل الكبير إنه مسافر. مرة إلى أمريكـا اللاتينية. وأخرى في أستراليا. وناجح مطلوب لرجال الرجل الكبير. لم يأخذ البضاعة. ولكنه وقع على الورق باستلامها. حاول أن يبيعها على الورق. ويخصم ربحه ويـدفع الـثمن الأصلي لرجال الرجل الكبير. الـذين هـددوه، وقـالوا لـه سنحضرك ولو من بطن أمك. لا تخفى عنا خافية. نعـرف عنك ما تفكر فيه.

مطلوب منه ثمن البضاعة التي باظت ؛لأنه تباطأ في توزيعها. وبعضها تسرب إلى الأسواق. لا يعـرف كيـف. ولكنه المسئول. المهم هو المستندات والأوراق. قال لأمـه: لأنه لم يكن يملك سيولة. وقع على أوراق كثيرة على بياض. وسط الكثيرين من رجال الرجل الكبير حتى يقابله. ولو لمرة وحيدة. غير قابلة للتكرار. قدم له رجال الرجل الكبير أوراقًا كثيرة. طلبوا منه التوقيع عليهـا. أشـار نـاجح أن الأوراق خالية من أي كتابة.

سخروا منه. وقالوا: إن عظامه طرية. إنه لا يـزال صغيرا. لا يعرف أن قوانين التجارة غير المكتوبـة علـى الورق أهم من كل المستندات. طلبوا منه الاتصـال بأخيـه القاضي المسافر إلى الخارج. يطلب منـه العـودة لمصـر لنجدته. وأن تساعده أخته المسافرة. يدفعان له مبلـغ المـال المطلوب منه. حتى يبرئ ساحته أمام الرجل الكبير. فيبحث له عمن يشيل قضية ما تسرب من الأغذية الفاسدة.

الرجل الكبير عنده قوانينه الخاصة، وأي كلام مـع رجاله لن يبدأ قبل دفع الفلوس أولاً. قضية معقدة. الأعـداء أمامه ومن خلفه. سمع حكايات. يشيب لها شعر الجنين فـي بطن أمه.

سألني: هل سمعت عن تقليع أظافر بشر أحياء؟ قلت لا.

قال: رجال الرجل الكبير يفعلون هذا. عاد يسـألني: هل سمعت عن وضع قدم في مواد كاوية؛ فيذوب ولا يصبح له وجود؟ قلت لا. قال لي: رجال الرجل الكبير يفعلون هذا. سألني: هل سمعت عن فتح الصدر وإخـراج القلـب منـه.

وإعطائه لولد صايع يمضغه أمامك؟ قلـت لا. قـال:رجـال الرجل الكبير يفعلون هذا.

صرخت فيه: ولم لا تشكوه؟ ولم لا تلجـأ للدولـة؟ وتذهب للحكومة؟ قال لي: لقد فكرت في هذا، درست الأمر، ولكني اكتشفت أن الذي سيشكو سيشيل القضية ويحمل الجمل بما حمل. يصبح مسئولاً أمام الحكومة عن كل المواد الغذائية الفاسدة التي تملأ الأسواق.

سألني: هل سمعت عن كل الذين ماتوا من الأغذيـة الفاسدة؟ سأشيل دمهم؛ لأن الرجل الكبير لن يصل إليه أحد. لن يعرف أحد مكانه. إن ذهبت للشكوى فسيتم القبض علي. وسأعتبر دليلاً يوصلهم إليه. وأنا لا أعرف المكـان الـذي قابلته فيه.

ولو رأيته أمامي لما تعرفت عليه.

قال لي، إنه عندما يقابل الزبـائن الجـدد. والأولاد الطراي، والأشخاص الذين لا يثق فيهم. يضع ماسكًا علـى وجهه. يقابله الناس بشكل غير شكله. ويرونه بصورة غيـر صورته.

سألته عن المبلغ المطلوب كم؟ قال ٢٥٠ ألف جنيه. ولكي يقصر علي المسافة قال: ربع مليون جنيـه. خبطـت صدري بيدي. قلت له: وهل تتصور أن كل ما جمعه أخوك. وجميع ما ادخرته أختك – لم أخبره عن سرقة شقتها بالأمس حتى لا يتشفى فيها – يمكن أن يصل إلى هذا المبلغ؟

قال لي إنه لا يطلب المبلغ كله. ولكن مجرد جـزء منه. دفعة أولى. يدفعها لرجال الرجل الكبير تحت الحساب؛ حتى يضمن حياته ويؤمن نفسه. ويخرج من الورطة.

ربما يكون الرجل الكبير قد ضعف موقفه، ولم يعـد قادرا على الانتقام، المهم هو الدفع، سألته: والدفعة المطلوبة كم قال: لا تقل عن خمسين ألف جنيه. دخـت. تهـت مـن الأرقام.

كنا نعد أيامنا. وهم يعدون الأموال. كانـت الأرقـام التي نعدها لا تتعدى المئات وهم يعدون بالملايين. كنا نعـد ساعات الجوع والأزمنة التي لا نجد فيها ما نفعلـه. وابنـي دخل دنيا من الأرقام لا أعرف كيف سيخرج منها.

كنت واقفة لا أزال. وكنت قد تعبت من الوقوف. ولم يكن أمامي مخرج يمكن أن أقدمه له. كنت متمسكة بضرورة أن يسلم نفسه. سيكون في أمـان عنـد رجـال الشـرطة. سيحمونه من غدر الرجل الكبير.

سيوفرون له الحماية من المجرم الكبير. وما قام بـه معروف . من الصعب الادعاء عليه. ربما يصبح شاهد ملك. يحصل على البراءة من أي تهمة.

رفض التسليم. قال إن من يده في الماء. وأشار إلي. ليس كمن يده في النار. وأشار إلى نفسه. صـحت فيـه. أي ماء؟ وأي نار؟ ألا تعرف النار التي تشتعل في حشاشة قلبي عندما أجدك في هذا الموقف. ألا تدرك الجحيم الذي أعيشـه عندما أراك تتعذب أمامي ولا أستطيع أن أفعل أي شيء أكثر من نصيحة ترفضها. مع أنني أراها الصواب الوحيد وسـط أخطائك. أي نار؟ وأي ماء؟.

احترت. اندرت. لم أعرف كيف أتصرف. لم أهتـد إلى أي مخرج. كنت واقفة. وهـو جـالس يبكـي ويـتكلم ويضحك. يلطم خديه. يشد شعره. يقرص خـده يحـاول أن يؤلم نفسه. وأنا عاجزة، لا أعرف ماذا يمكنني أن أفعل له؟

ونحن نتكلم سمعنا صوت أقدام. وقفت أمـام بـاب الشقة. صمت، أشار لي بعدم الكلام. طالت الوقفة، أصـابته حالة من الهستيريا. قال لي: عملتيها؟ لم أردْ عليـه. مـاذا سأقول لهذا المجنون؟ تساءل: ماذا كان الثمن الذي قبضـته؟ أعطيه لي؛ حتى أدفعه. سيكون الإفراج عني بكفالة كبيـرة. سأحتاج لأموال في السجن حتى أمشي أموري. ادفعي لي ما حصلت عليه منهم.

قلبت جيوبي وأنا أنتفض من الحزن. كانت فاضـية، فتحت بك الفلوس. وكان خاليا من الأمس. فوجئت بمبلغ من المال. من أين جاء؟ هل الذين سرقوني بالأمس تركوه لـي؟ انشغلت في عده. كان أكبر من المبلغ الذي حضرت به مـن البلد.

كان معي ٢٧٥ جنيها وبعض الفكة. صرفت منهـا ونشل الباقي. وفي المحفظة أمـامي ٥٠٠ جنيـه. فوجئـت بمنظر الفلوس. قال لي ناجح: ستحصـلين علـى أوسـكار تمثيل. لا تعرفين أن معك فلوسا. كنت أفكـر، بعيـدا عـن هذيانه: من أين جاءت الفلوس؟! لا بد أن ندا وضعتها فـي البك ليلاً. هي الوحيدة التي عرفت أنني ليست معي فلوس.

هجم علي وأخذ الفلوس مني. قلت له: أريـد فقـط أجرة سكتي حتى البلد. قال: بطلي تمثيل. الكـاميرا أغلقـت والستار نزل. ولا أحد يصور. قمت. لا أمل. تناثر فـؤادي. كنت مستعدة أن أفعل ما أقدر عليه من أجله. لم يكـن لـدي مانع أن أسجن بدلاً منه. لكن ماذا أفعل والحكاية أمـر مـن المرار. كانت دموعي تسح. وكان هو يضحك ساخرا مني.

منعني من الخروج. الأقدام التي توقفت أمام الشقة لم تتحرك. ينتظرون فتح الباب ويهجمون عليـه. ويأخذونـه. سواء كانوا من طرف الرجل الكبير أو من البوليس. الكـل يطالب برأسه. وإن وصلت أيديهم إليـه فلـن يـتمكن مـن الإفلات.

عرضت عليه الخروج معي. للذهاب إلى بيتنا فـي البلد بعيدا عن الكل. قال لي: الاتفاق إذن أن تسلميني بيـدك لهم. يذهبون إلى البلد. ويحصلون علي. يقطعـونني حتـت. أكبر جزء سيكون في حجم رأس العصفور. سأبقى هنا. ولن أترك هذه القلعة. ولن يفتح الباب إلا على جثتي.

هددته أني سأصرخ. سألم عليه سكان الحتة. إن لـم يتركني أمشي. قال لي. ليس بعد أن تنصرف هذه الأقـدام.

اتضح لنا أنه كشاف النور. دق الباب الذي أمامنـا. عنـدما يأس من أن نفتح له. وأخذ رقم استهلاك النور من الشقة التي أمامنا، وعاد وخبط على باب ناجح وضغط على الجـرس. الذي لم يكن له صوت؛ لأن التيار مفصول. ومشي.

وجدتها فرصة قد لا تتكرر للخروج، خفت من البقاء معه، لم أخف من الخطر الذي يتهدده. كنت مستعدة لمواجهة الخطر بنفسي معه. لكني خفـت منـه هـو. مـن حالتـه المتدهورة. قلت له إن اللذين بانتظاري تحت إن لـم أنـزل إليهما سيصعدان إلى. وإن اكتشفا عدم فتح الباب سيحدث ما يخافه وأخشاه أنا أكثر منه. وتقع الفضيحة التي لا يعلـم إلا الله المدى الذي يمكن أن تصل إليه.

تحول إلى إنسان آخر. توسل هو إلي. كاد يقبل يدي. عاد إلى ابني القديم. قال لي إن آخر طلب له مني. مبلغ من المال. يؤجر به عصابة. تحميه من الرجـل الكبيـر ومـن البوليس. ترسل له ناضورجيا. وحارسا. لمـدخل العمـارة. وحارسا لباب الشقة. إن ما تطلبه هذه الجماعة. مبلغ صغير. عشرة آلاف جنيه. تدفع على دفعات. ويمكنهم حمايته من أي خطر. سألته: ألا يعد ذلك خروجا على القانون؟ قال لـي إن

العرف في هذه الأيام أقوى من القانون. وهـذه العصـابات جزء من النسيج العام. قلت: إن المبلغ كبير ولا وجود لـه. فضلاً عن أن العصابة لن تشكل حلاً جذريا للمشـكلة. إنـه مجرد تأجيل لها. قال لي إنه يعرف هذا. قبـل أن يطلـب. يعرف أنني مستعدة أن أقدم له نور عني. إلا الفلوس. سعار الفلوس وصل إلينا.

فتح الباب، نظر في كل الاتجاهات، رفـع السلسـلة وفتح الباب. فتحة ضيقة تخرجني بجانبي. لحظة مروري من الفتحة الضيقة. تذكرت الكتاب. كيف أنساني الكتاب؟ وهـل يعقل أن يكون الكتاب هنا؟ لا أعتقد. فكـرت فـي العـودة لسؤاله، ولكني كنت في حالة يأس بلا حدود.

وقفت على البسطة أنظر إلى باب بيته، كانت هنـاك لافتة. ناجح نجم الدين النجومي. رجل أعمال. رقم صـندوق البريد. رقم التليفون، رقم الفاكس.. رقم الـتلكس. اسـتيراد وتصدير. الرمز البريدي. كل الأعمال التجاريـة الأخـرى. غابة من البيانات. كيف لم أرها عند حضوري؟ جـزء مـن عدة الشغل، وهذا الكلام مكتوب باللغة العربية ولغة أخـرى أجنبية.

نظرت وكدت أن أضحك. وأنا أقرأ اللافتـة. كنـت أنزل على السلم ببطء. وأنا أفكر بهدوء. كيف يمكننا إنقـاذه؟ من نحن الذين يمكننا إنقاذه؟ أنا ومن من العائلة؟ أنا ونجيـة الباحثة عن عريس لا يشغل بالها سوى البحـث عنـه؟ أنـا ونادر المغلوب على أمره؟ أنا وزوجة القاضي الحائرة بـين طفل في الطريق وزوج أوشك أن يضيع؟ أنا ومن؟ أنا وشقة نادية التي أتى البواب باللصوص لكـي يسـرقوها وحمـى سرقتهم وحرس لصوصيتهم؟ أنا ونادرة التي يؤجر زوجهـا شقتها بالساعة؟ أنا ومن يمكن أن ننقذك يا ناجح ممـا أنـت فيه؟ لا أنا ولا الآخرون قادرون على أن ينقـذوا أنفسـهم. صدق من قال: فاقد الشيء لا يعطيه.

١٨

.. مهدودة الحيل، وصلت إلى السـيارة، وضـائعة، وضعت يدي على بابها. نزلت ندا، وفتحت لي الباب، ركبت بجوارها. وأعادت نجم الدين الصغير إلى الكنبة الخلفية. لـم أتكلم. حدقت أمامي، كانت عيناي في لون كاسات الدم. وجلد خدودي كرمش من كثرة الدموع.

احترمت ندا حالتي. ولم تسألني. ولم تـتكلم معـي. مدت يدها تطلب النوتة التي معي؛ حتى تعرف العنوان الذي سنذهب إليه: عنوان نادي. أعطيتها النوتة في صـمت. لـن أقاوم رغبتها في الذهاب معي إلى نادي. فكرت فـي عـدم الذهاب. ولكني كنت متعبة، والرفض والكلام سيتعبني أكثر. مشوار صغير وتنتهي الحدوتة.

جلست ساهمة. وضعت رأسي بين يدي. نظرت في أرضية السيارة. لم أنطق بحرف واحد. وكـان الطفـل قـد أصابه خرس. مع أنه الوحيد الذي يمكنـه أن يسـألني. وأن يترازل علي. وأن يتكلم بحريته معي؛ لأنه لا يـدري مـاذا جرى. لكن حتى الصبي كان صامتًا.

قرأت ندا العنوان بعناية. وأدارت السيارة. وقادتهـا بهدوء في البداية. ثم أسرعت. رفعت رأسي. أسندتها لزجاج نافذة السيارة. وندا مدت يدها. أمنت الباب؛ خافت أن يفـتح فأقع في الطريق. ليتها تركتني أقع. ليتني ألحق بنجم الـدين، لا أستطيع الاستمرار هكذا طويلاً.

كان نادي يسكن في شـقة بعمـارة قديمـة. بحـي الظاهر. لو كانت الظروف غير الظـروف والحالـة غيـر الحالة. لقلت لها. نحن في الطريق إلى ابني الذي خلق مـن أجل ندا. وهي أيضا جاءت للعالم من أجله. لتترك القاضـي لزوجته وابنه. ما دام الله قد كتب لها نادي.

رياضي مثلها. مرح مثلها. بسيط مثلها. جاء علـى مقاسها. لماذا أستبق الأمور؟ لأنتظر حتى أرى المشهد على الطبيعة. يا سلام لو أن ندا اشتبكت مع نادي. نـون ونـون. نون الذكر ونون النسوة. ولو أنني وجدت الكتاب عنده وأعود إلى البيت من رحلتي ،وأكون قد حققت بعض ما جئت مـن أجله. كتاب وعند نادي. من يصدق هذا؟!

لماذا أبدو طماعة في أحلامي؟ يكفي أن يشبك نادي مع ندا. وينجو نجيب بحياته وزوجته وابنـه. طفـل الأيـام

الآتية. هذا يكفي وزيادة، سأتركه يتعامل معها مباشرة. وجها لوجه. قد يوفقهما الله. قلبي الحزين يستحق لحظة من الفرح. مر علي يوم كامل. وأنا أخرج من نقـرة. لكـي أقـع فـي دحديرة. أخرج من مأساة لأصب في مصـيبة. ولا أعـرف متى ولا أين. يمكن أن تكون ثمة نهاية لكل هذا؟

أحلم بزواج نادي من ندا. كيف؟! الولد ضـد فكـرة الزواج. يعمل مدرسا للألعاب الرياضية. ومدربا في أكثر من نادٍ. ويبدو أن والده كان يتنبأ له بهذا العمل. عنـدما سـماه نادي. نادي يعمل في النوادي. اسم على مسمى. قال لأخيـه ولأخته في الصيف الماضي إنهما هاجرا إلى الخليج. ولكنـه تمكن من إحضار الخليج إلى بيته.

يمر بعد الظهر على أكثر من نادٍ. يدرب هنا. يتنطط هناك، ويعود إلى بيته مهدود الحيل آخر النهار. متعبا غيـر قادر حتى على النطق باسمه.

قال له شقيقه. من الصعب أن تفتح بيتًا. مط شـفتيه وهز كتفيه. وقال له:

- ومن قال إنني أريد أن أفتح بيتًا؟ الزواج أسـوأ نظام اجتماعي عرفته البشرية، لا أريد أن أصبح زوجا ولا أبا. سأعيش كما أنا.

قال له نجيب:

- تنتظرك شيخوخة قاسية.

رد عليه نادي:

- عندما أصل إلى الشيخوخة. سأبحث عن ممرضة ترعاني. ويمكن أن أكتب كتابي عليها.

قال له أخوه:

- وتخونك مع أول عابر سبيل.

رد عليه:

- ومن قال إنني سأختارها تصغرني في العمـر؟ ستكون من نفس عمري، إن لم تكن أكبر. نتعكز على بعضنا. ولأنها امرأة عليهـا أن تخـدمني. ولأنني رجل واجب علي الإنفاق عليها. وستكون معي تحويشة العمر. المهـم أن يكـون الجيـب

عمران. طالما أن المحفظة مليئة بالورق الأخضر. وحساب البنك أرقامه وصلت إلى الرقم السادس. كل الباقي تفاصيل.

يعيش ليومه فقط. قال له والده:

- المؤمن من عمل لدنياه كأنه يعيش أبدا. ومن عمل لآخرته كأنه يموت غدا. لم نكن نعرف عنه أي شيء.

قال لأبيه:

- والشاعر قال: اليوم لعب وغدا أمر. عندما نصل إلى الأمر يفرجها من لا يغفل ولا ينام. لم تكن تصلنا منه أي مشاكل. كانت أموره ماشية وفق منطقة الخاص.

مدرس بالنهار ومدرب بالليل. وهو سعيد بهذا. إخوته الذين كانوا يترددون على النوادي. كانوا يعودون ليقولوا إنهم شاهدوه في النادي الفلاني. وقابلوه في النادي العلاني. وإن أسرة ما تكلمت عنه وعن أخلاقه. وأثنوا عليه

وعما يقوم به. كانت سيرته لا يوجد فيها ما نخافه. وأيضا ما يمكن أن نفرح له.

ولكنه بالنسبة لأولاد العائلة. عندما كنا نلتقـي فـي القليل النادر. كان يصبح مثلاً أعلى للأولاد. كنت أغضـب منه وأخاصمه أحيانًا. عندما أقابله؛ لأنه لم يشأ أن يورث هذه الصفات لطفل وطفلة يحملان اسمه، ظروف جيدة، وظيفـة وعمل بعد الظهر وشقة وشباب. ماذا ينقصه؟ نصف بنـات البلد يجرين وراءه. لكنه كان عنيدا. قال أبوه قبل أن يمـوت بفترة. سيظل عنيدا إلى أن تقع الفأس في الرأس. ويتـزوج غصبا عنه، قلت له:

- الشر بره وبعيد، تف من بقك. ليس لدي مانع من أن يظل عزبا إلى الأبد. على أن يقع.

قلت لوالده:

- من يقع لا يقوم من كبوته. ولا يفرد طولـه. ولا يقف على قدميه. فالأيام الحنونة لـم يعـد لهـا وجود.

كان يهف على خاطري. كلمـا شـاهدت مباريـات رياضية في التليفزيون. كرة القدم بالذات. كنت أتذكره كلمـا سمعت أسماء النوادي بالصدفة. كنت أفتخـر بـه، وأقـول لجاراتي إن نادي هو الذي يدرب هذا الفريق. وإن نادي ابني هو الذي يعلم هؤلاء الأولاد أصول اللعب. كنت أتكلم عنـه كلما هات علي الكرة في التليفزيون. وكانت جاراتي يسمعنني ولا يعلقن. كن يبتسمن. ربما لا يصدقنني.

لم أكن راغبة في الكلام. كان ما بي يكفيني وزيادة. لكني أحببت أن أمهد ندا. لمن نحن ذاهبون إليه. قلت لهـا. ونفسي ليست راغبة في الكلام. ولساني مصدود عنه. ولكني غصبت نفسي؛ لأنني تصورت أن كلامي ربما يحل جـزءا من المشكلة.

قلت لندا إن الذي نحن في الطريق إليه. يبدو أقـرب أبنائي إليك. يحب الرياضة مثلك. لم أكمل الجملـة. وهـي أيضا لم تكن راغبة في الاسـتماع. يبـدو أنهـا اختـارت وصممت على الاختيار، مهما حاولت لن أصل لنتيجة معها. دخلنا أول الشارع الذي يوجد فيه البيت. اقتربنا مـن البيـت الذي يعيش فيه نادي. وجدنا جمعا من الناس. ما أسـهل أن

تجتمع الناس. يكفي أن يقف اثنان ليصبحا ثلاثـة. ويتجمـع حولهم خلق الله. خاصة بعد الزلزال.

عندما وصلنا إلى البيت. كان حوله خلـق كثيـرين. سألتها:

– هل هذا هو بيت نادي؟!

قالت:

– الورق المكتوب يقول هذا.

كان الحي قديما ومعمرا. ولذلك كانت هنـاك لافتـة تحمل اسم الشارع. زرقاء اللون. وكانت أرقام البيوت شديدة الوضوح.

والبيت لم يكن بيتًا. كان جزءا من بيـت. والجـزء الآخر وقع، نصف بيت سقط. والنصف الآخر واقـف فـي الهواء، وهذا النصف الواقف. فيه شقة نادي. كـان النـاس يقفون في الشارع يشيرون إلى أعلى. حيث يقف في شـرفة شاب وفتاة. الشاب يتكلم معها. كان بعض الواقفين يصنع من يديه ميكروفونًا. وينادي بأعلى صوته؛ لكي يتكلم معهما.

ظللت على عيني بيدي. ونظرت إلى أعلـى. كـان الذي في الشرفة المعلقة في الفضاء. ابنـي نـادي. وكانـت بجواره فتاة. سمعت الـذين يتكلمـون. قـالوا إن الشـروخ والتصدعات أصابت البيت لحظة الزلزال، وإنهم أخلوا البيت من كل سكانه. إلا صاحب هذه الشقة. يبدو أنـه انكسـف، عزب وعنده بنت وفي حي شعبي. ماذا كان سـيفعل؟ مـاذا كان سيقول للناس؟ خاصة أن البنت يبدو من لبسها أنها بنت ناس.

الحكاية متناثرة على ألسنة الواقفين. كل واحد يقـول جملة. والآخر يكمل كلمة وهكذا. قضيا الليل في الشقة. وفي فجر اليوم الثاني سقط نصفه. وسقط معه السلم. ومنذ لحظـة وقوع الزلزال وحتى سقوط النصف. كان ممنوعا اسـتخدام السلم. الذين نجوا هم الذين نزلوا في حموتها. قبل اكتشـاف حالة البيت.

النصف الثاني من المتوقع أن يسقط في أي لحظة إنه واقف في انتظار لحظة الوقوع. أتت فرق الإنقاذ. ورجـال الحي والبوليس. جاءت الدنيا كلها. كـانوا يخلـون البيـوت المحيطة بنصف البيت الآخر. وينقلون السيارات التي تقـف

في الشوارع المحيطة به، ويغلقون المحلات، ويفكرون في منع المرور في الشارع، وكانوا يفكرون وهم يقومون بكل هذه الإجراءات في إنقاذ الساكن والبنت التي معه. الباقيين في النصف الثاني من العمارة.

أرسلوا في طلب سيارات النجدة والمطافئ والإسعاف. لكن سلالم المطافئ لم تصل إلى الدور الذي كان فيه نادي، كان يقف في الشرفة مصابا بحالة من الرعب. والبنت على مشارف هستيريا. تصرخ: يا فضيحتي. موت وفضيحة. وهو يحاول أن يسكتها. الواقفون حولي يحذرون نادي – لم يكن أحد يعرف اسمه ويخوفون البنت من الحركة – أي حركة ستوقع نصف البيت. الذي كان يبدو كفرع شجرة. والشجرة نفسها وقعت، والفرع مازال معلقًا في الهواء، والبيوت التي كانت حول البيت لم تكن تزيد على دور أو دورين أو ثلاثة. وكان بيت نادي محاطًا بشوارع من نواحيه الأربعة. كان يفخر بذلك. لو كان البيت ملاصقًا لأي بيت لسهل القفز إلى البيت المجاور. ولما حدثت مشكلة. كنت أقول له: البيت الوحيد عمر قصير. البيوت تسند بعضها.

كان يقول إن نوافذ البيت الوحيد وشرفاته تجعله جنة على الأرض.

جرت باتجاهي فتاة. كانت تقف في وسط الناس.

قالت لي:

- يا جدتي.
- من أنت؟!
- أنا بنت بنتك نادرة. محروسة الصغيرة. جئت أطمئنك على خالي نادي. ماما أعطتني الفلوس وطلبت مني الحضور للاطمئنان عليه.

أمسكت البنت بيدي. أشارت إلى أعلى، وقالت:

كل سلالم سيارات المطافئ في البلد. لم تصل إليه، يحاولون أن يربطوا سلالم سيارة مع سلالم سيارة أخرى. ويرفعونها إليه. لعله ينزل. مع أن البيت الذي يعيش فيه نادي ليس عاليا. سبعة أدوار. وهو يسكن في الدور السابع. كانت الشقة رخيصة الإيجار؛ لأن العمارة قديمة وبدون مصعد. وهو قال يومها إنه حتى لو كان فيها مصعد.

فلن يستخدم سوى السلم. رياضي ويستخدم مصعدا هل هـذا معقول؟ كانت ميزة الشقة قربها من المدرسة التي يدرس بها.

كانوا يصعدون فوق البيت المواجـه لـه. يقيسـون المسافات. كانت هناك حالة من الدوشة واللخبطة والفوضى. الكل يعمل، والجميع يصرخ ويتكلم. ولا أعرف مـن الـذي يعمل. ومن صاحب الكلمة.

البنت التي فوق. كانت تشد شعرها وتصرخ. كانـت تقف بملابس النوم. وابني بالفانلة الداخلية. والـذين حـولي يقولون. الجزء الذي وقع من البيت. فيـه الملابـس التـي خلعوها. البيت مبني على شقة واحدة. ضحك أحد الـواقفين وقال:

- لماذا لم تكن ملابسهم معهم؟

علق آخر:

- هل حبكت حتى يفعلوا ما كانوا يفعلونه في هـذا الوقت؟

قال ثالث:

- لقد أرسل الله الزلزال ليكشفهم. جاء الزلزال قبل صلاة العصر بقليل. ولولاه لاستمروا في فعـل الحرام حتى وقت صلاة العصر.

قال آخر:

- ربما توقفوا لحظة الصلاة.

سأل واحد:

- هل كان الأمر يفرق لو أنهم فعلوا ذلك بالليل؟

كان هناك واحد فقط منصف. قال:

- الجميع يرغبون في فعل هذا. سـوء حظهمـا. وأشار إلى أعلى. هو ما جعل الزلزال يقع فـي الوقت غير المناسب ولم يلهمه الله الصواب حتى يتصرف وينزل مع الهزة الأولى.

كان الكلام موجعا. ربكم والحق. خجلـت مـن أن أنادي عليه. أن أعلن أنني أمه. خفت من نظـرات النـاس. تهيبت من الواقفين. لا أعرف ماذا يمكن أن يفعلوا معي. قد يشتمونني. قد يقولون لي لو أنك ربيته ما فعل الحرام.

خفت. سكت. وقفت كواحدة غريبة. تهت في وسـط الناس. حذرت البنت الصغيرة أن تعلن للنـاس أننـا أهـل المعدول. في يدي نجم الدين ابن نادر، وفي الثانية محروسة ابنة نادرة. وبجانبي ندا ونحن لا نعرف ماذا يمكن أن نفعل.

لم يكن لدي أمل في إنقاذه. حالة الفوضى كانت كفيلة بوقوع نصف البيت. مسكين نادي. من التي كتبـت عليهـا الفضيحة. قلبي معها. سمعتني نـدا أكلـم نفسـي بصـوت منخفض. قالت لي: لا تقلقي يا ماما. المهم أن ينزلا سالمين. ويذهبا إلى قسم الظاهر ويكتب عليها هناك، وينتهي الأمر.

قلت لها:

- وهل يرضى أبوها. ألا يعتبر تزوجهـا غصـبا عنها؟

قالت:

- لماذا الكلام عن البلاء قبـل وقوعـه؟ فرصـة وجاءت لندا. لكي تتخلص من نادي. جاءت لهـا على الطبطاب. هل كانت تعلم بحلمي؟!

جاءت سيارة مطافئ. رفعوا السـلالم التـي كانـت معها. كانوا يرفعون السلالم في الهواء ويصعد عليها شخص ملابسه سوداء. وعلى رأسه خوذة سوداء. وفي قدميه حـذاء طويل أسود. صعد العسكري إلى آخر سلمة. كانت بينه وبين الدور الذي يقف فيه نادي مسافة.

تناقش الواقفون. قالوا لو أن البنت قفزت وقفز هـو. ونزلا عند آخر السلم، حيث يقف عسكري الإنقاذ. قالوا: ذلك مستحيل. لا يمكن لإنسان خائف أن يضـبط إيقاعـه علـى الشعرة، لو أن الولد لاعب سيرك. ولو أن البنت لاعبة عقلة لكان ذلك ممكنًا.

قال أحد الواقفين. لو أن الولد عنده حبل وربطه فـي الشرفة، ورماه إلى عسكري الإنقاذ. طلـب الضـابط مـن الواقفين الصمت. قال لهم: نقطونا بسكاتكم. نحـن نعـرف شغلنا، ولن يمسها سوء وسننزلهما.

أنزل السلم. وقال إنه سيحاول إحضار سلم آخر. أو وصل سلمين ببعضهما. الأمر يحتاج إلى لحام. تساءل الناس عن سلم طويل. قال إنه موجود ولكنه يستخدم في عمليـات إنقاذ أخرى، ولا بد من الانتظار.

سمعت من يقول. إن الإسكندرية فيها سلالم أفضـل. وسمعت من يتكلم عن سلم بورسعيد. وسمعت من يقسـم أن السد العالي به سلم. وهكذا تاهت المسألة. يبـدو أن الأمـر سيحتاج إلى وقت طويل حتى يحضروا السلم وينقذوا نادي.

كنت في أصعب موقف مررت به في حياتي. مـاذا يمكنني أن أفعل؟ كانت الاقتراحات كثيرة وبعضها مضحك. كان هناك من يتكلم عن ربط حبل بين البيت والبيت المواجه له. ويمسك المعدول في الحبل بيد. ويحمل المعدولـة بيـده الأخرى. مثلما فعل طرزان في آخر فيلم. الحبـل فـي يـد والسنيورة تركب على ظهره، ويحيي الناس باليد الأخـرى. شخط فيه شخص. وقال له إن الوقت لا يحتمل المزاح. نحن أمام حياة اثنين مطلوب إنقاذهما. ولا نتركهما لموت مريـع. قال آخر، الموت هو الموت.

سألت نفسي: وهل يقف أهل البنت صامتين بيننا دون إعلان عن أنفسهم؟ تفرست في الوجوه. كان مـن الصـعب الاهتداء إليهم. والناس من حولي منهم من يضـحك. ومـن يشمت. ومن يشير ويقول: لعلنا نتعظ مـن منظـر العصـاة

الخطاة. وكان ثمة صوت يأتي من المسجد. يكلم المصـلين عن المشهد الذي نراه. وأنا لا أجرؤ على النطق.

عندما قالت البنت خالو، قرصتها في يدها. وضغطت على الولد. رغم انه لم ينطق بشيء. لم أكـن قـادرة علـى مواجهة الناس. بأنني أم هذا الولد الذي فوق المعلـق بـين السماء والأرض. رغم أنني كنت مستعدة للوقوف مكانه، وأن أفديه بعمري. ولكن كيف أفعل هذا؟

المجانين من حولي يمكن أن يفتكوا بنا. لو قلت أنـا أمك يا نادي بصوت عالٍ ربما قفز من مكانه مـع أن الكـل يطلب منه عدم الحركة، أن يكون ثابتًـا فـي مكانـه بقـدر الإمكان. أقل حركة يمكن أن تسقط المبنى كله.

وقفت واحترت. ماذا يمكنني أن أفعل؟ أنا مختلفة عن الواقفين. هم يشاهدون منظرا لا يعنيهم. لكني أشاهد ابنـي. وأعرف أنه من الممكن أن تنهار بقايا البيت في أي لحظة.

عندما اقترحت ندا أن نمشي. استبشعت اقتراحهـا. نظرت إليها وكدت أن أشتمها. لكني اكتشفت – بعد قليل – أن بقائي ليس له معنى. ما دمت غير قادرة علـى الإعـلان

عن نفسي. فالأمر إذن سيان. سواء مشينا أم بقينا. تحركنا أم بقينا هنا حتى الصباح.

قال أحد الواقفين برزانة. إنـه لـو جـاء أي تـابع للزلزال. سينهار نصف العمارة. وإن بقـاءه معجـزة. وإن نصف العمارة بقي ؛حتى نشاهدهما لأننا لو حكينـا المشـهد لأنفسنا وأولادنا لن يصدقنا أحد.

كان السباق بين الحياة والموت مريعا.

هل أقول كان السباق بين الموت والموت مأساويا؟!

١٩

.. عندما سحبتني ندا من يدي نحو السـيارة. كنـت كالمنومة. تحركت بالسيارة. تعرف أن مشوار نادي بالظاهر كان فصل الختام بالنسبة لنا؛ لذلك لم تسألني إلى أين؟! أنـا التي سألتها. والكلام يخرج من فمي بصعوبة:

– على فين؟!

تذكرت أن الولد والبنت ليسا معنا. تاها منـي فـي الزحام. فلتا من يدي. مع أنني كنت أمسك بيديهما بكل قوة. قلت لها لن أتحرك قبل إحضار الولد والبنت معي. لا يمكـن أن أتركهما هنا.

سابتني في السيارة. ذهبت. تبحث عنهما. عادت أولاً بالبنت. أجلستها على الكنبة الخلفية. قلـت لهـا: والولـد؟! تركتني وذهبت تبحث عنه. سألت نفسي: لِم تبدي نـدا هـذه الطاعة؟ هل هي جزء من تصرفاتنا ونحن على البر؟ حيـث يقدم كل منا أفضل ما عنده؟ داخلة علـى جـوازه. تخطـط لخطف رجل منا. وأي رجل؟! زينة الرجال، قد تفعل أكثـر مما فعلته. حتى تحقق ما تريد.

مكثت وقتًا أطول. وعادت ومعها الولد. طلبت منـه الجلوس على الكنبة الخلفية بجوار البنت. فكرت أن أسـتأذن منها وأن أشكرها على ما قامت به. وأن أنصرف لوحـدي. تذكرت أن المبلغ الذي كان معي، أخذه المعدول ناجح. لهـا دين في عنقي. لا أعرف كيف سأرده ولا متى. مهما كـان الأمر فهي غريبة عنا. إن لم تتم الزيجة – وهذا ما أرجـوه وأخطط له – ستعايرني بهذا المبلغ. في جميع الأحوال لا بد وأن يعاد لها. حتى لو كان الاتصال الأخير بها مـن أجـل إعادته.

إلى أين تذهب؟! كانت الأفكار تدور في عقلي. كنت أعرف المكان الذي أريد الذهاب إليه. ولكن مشكلتي هي هذه المرأة التي بجواري. تحركت ندا بالسيارة. سألتها:

– على فين؟

قالت:

– على البيت.

– أي بيت؟

نظرت إلي مستغربة:

- بيتي.

سألتها بحدة:

- بيتك أنت؟

قالت:

- نعم.

قلت:

- لا.

كان في كلمتي من العداء ما يتنافى مع ما قدمته لي، بدلاً من أن أشكرها صحت فيها.

- سأذهب لبيت ابني.

قالت لي:

- ابنك من؟

قلت:

- الذي كان يكلمك في التليفـون فـي انصـاص الليالي. سأذهب إلى زوجته الحامل في شـهرها

التاسع. بطنها أمامها عشرة أمتـار. لا بـد وأن الذي في بطنها توأم.

سألتني:

– متأكدة إنه الشهر التاسع يا طنط؟

انتهينا من التمثيل وبدأ الجد صحت فيها:

– طنطك متأكدة. كنت عندها قبل حضوري إليك.

تملكتني رغبة في إيذائها، مع أنني كنت ممتنة لمـا قدمته لي. قلت لها. إنها تعرف حتى عدد الأنفاس التي تتردد في صدرك. وأنا أخاف على ما في بطنها. فهو أملي الوحيد الذي أعيش في الدنيا في انتظار مجيئه.

أخرجت همها في السيارة. قفزت السيارة في الهواء، لدرجة أنه خُيل إلي أن سيارة خبطتنا من الخلف. طارت بنا السيارة. سألتني:

– أوصلك فين؟!

قلت لها:

– بالقرب من بيته.

سألتني:

- بيت من؟

قلت لها: نجيب لا بد وأنك تعرفينه.

قالت:

- وسأعرفه من أين؟

قلت:

- تعرفين يا شاطرة. وأنا أعرف أنك تعرفين.

غصب عني كنت أعاملها بجفاء وقسوة. كانت لطيفة معي. وحاولت أن تخدمني. ولكني يا روحي ما بعدك روح. ران علينا صمت متوتر. ما كنت أحب أن تنتهي الحكاية بهذه البشاعة. لكن هذا ما كان.

قلت لها، المبلغ الذي وضعته في حقيبتي،ِسأرده لك.

قالت:

- الجيب واحد يا طنط.

قلت لها:

- جيبي ليس جيبك.

حتى تغيظني قالت: كله من خير نجيب.

قلت لها:

- لا تتمسحي فيه. خيره من أجل أسرته.

خفت أن تلطمني في المسافة الباقية مـن الطريـق بحقيقة موجعة. تقول لي أنا زوجته. والورق معي. يبـدو أن هذا لم يحدث. لأنني قطعت عرقًا وأسـلت دمـا. وإن حـل المشكلة قد اقترب من نهايته.

سارت مسافة طويلة. من الظاهر إلى السيدة زينـب. لو كان في جيبي مال لأخذت تاكسيا. وتركتها في الظـاهر. كان أقرب إلي بيتها. وإن لمحت أنني ليس معي مال. ستدفع لي من جديد. وهذا ما لا أريده.

في بيت نجيب سأجد كل ما أحتاجه. الراحة والمال. كنت أتشاغل بالنظر إلى ما يحدث في الشارع. وهي كانـت تركز في النظر أمامها. والولد الذي ورائـي. نجـم الـدين الصغير. والبنت التي بجواره. محروسة الصغيرة. بدآ فـي الكلام. علقا على منظر نصف البيت الباقي. ونصف البيـت

الذي وقع. وخالها وعمه المعلق في الجو. لـم يتكلمـا عـن حكاية البنت التي كانت معه.

كانا يتكلمان عن رغبتهمـا فـي أن يشـهدا نهايـة الموقف. ومتى تحدث؟ وكيف؟ قال الولد للبنت إنه صـاحب ولدا من الحتة. أخذ رقم تليفونه. ومن المكان الذي سيستقران فيه، سيضرب له تليفونًا. يعرف منه ماذا جرى. مادمنا قـد مشينا ونصف البيت الباقي معلق في الهواء.

أعجبت البنت بذكاء الولد. وطلبت منه أن يبلغها بما سينتهي إليه الأمر عندما يعرفه. وعدها أن يبلغها. نظرت ندا إلي في صمت. لا بد وأن هذه الحية تفكر في الانتقام منـي ومن زوجة نجيب.

كانت تعرف الطريق. لم تسألني لا عـن الحـي ولا الشارع ولا رقم البيت ولا طريقة الوصول. كما فعلت فـي المشوارين اللذين قمنا بهما صباح اليوم. لا بد وأن المعدول كان يسهر عندها. وكانت تنزل توصله. لم يكن يمتلك سيارة. كان يقول إنه من الصعب عليه تعلم السواقة. لا بـد وأنهـا كانت تأخذه من عند البيت وتعيده إليه.

تحفظ الطريق. حتى المطبات الصـناعية. تعـرف أماكنها. تهدئ قبل الوصول إليها. والانحناءات والشـوارع الجانبية والدوارنات كانت تحفظها.

كم مرة مشت في هذا الطريق؟! كم مرة استغل ثقـة زوجته به؟! كم مرة حمى نفسه بسياج الفضائل. التي اعتقـد أنها نزلت إلى الدنيا لتكون من صفاته؟ كم مرة فعلتهـا يـا نجيب مع هذه الملعونة؟ حتى ابني الـذي كنـت أرجـو أن يتزوجها تركناه في ورطة.

فكرت أن اعتذر لها عن قسوتي. ولكن الصمت بـدا لي أكثر أمانًا. من يدريني؟ قـد أضـعف أمامهـا وينتهـي تصميمي على تخليص ابني منها. سـألت نـدا الولـد عـن الألعاب التي يلعبها. فقال: كرة القدم. استدرك: يلعبها بالكرة الشراب أمام البيت. سألت البنت عن النادي الذي تتردد عليه. فلم تجبها؛ فالسؤال كان غريبا. فعدنا إلى الصمت المشـحون المتوتر.

كنت أريد الهروب. لو كان في جيبي مـليم واحـد لصممت على النزول. فكرت أن أوقفها وننزل وأن نسـتقل تاكسيا. وتدفع عايدة له. لم أكن أضمن أنني سأجدها. ربمـا

ذهبت إلى أهلها. تركتها في حالة سيئة. وأنا أعود مستبشرة أن نصف المشكلة عرف طريقه إلى الحل. هذه المرأة ستبعد عن ابني نصف بعاد. بعد أن عرفت مني ما عرفته.

عندما لطمتها أن عايدة حامل. قالت لي. حمل كاذب. إنها تتصنع الحمل يا طنط. صحت فيها: بعد عشـرة أيـام سيأتيها الطلق. طلق الولادة. أنا امرأة وأعرف ما لا يعرفـه الرجال. وأنا أم وحماة وجدة. وما في بطنها حفيدي. بينـي وبينه خيط غير مرئي. سمعت بالأمس صوت تنفسه. تناهى إلي تألمه مما يفعله أبوه. وأنا متأكدة مما أقوله.

يبدو أنها راهنت على عدم حمل عايدة. عقمها كـان أمل ندا الأخير. في أن تستولي على نجيب وتتزوجه، قالـت لي إن علاقتها بابني شريفة. هكذا تعلمت الأصول. فهي من بيت حسب ونسب. قلت لها: عشم إبليس في الجنة. كانت ندا تخرج من ضباب الذهول.

بالقرب من البيت. وقفت من نفسها. لم أطلب منهـا الوقوف. وتقولي بنت أصول. أي أصول يا بنـت الحسـب والنسب؟

نزلت. أخذت الولد في يميني. والبنت في يسـاري. واتجهت إلى البيت. لم أنظر إليها لأشكرها. كنت أقفل الباب أمام الضعف الذي كان يعاودني مثل الوجـع الـذي يـروح ويجيء. قلت لها في سري:

– يا ابنتي للضرورة أحكام. وأنـا لا يمكننـي أن أفعل غير هذا. التي أعرفها خير مـن التـي لا أعرفها. وأنا أعرف عايدة لكن ندا نادت علـي. كانت جالسة وراء مقود السيارة. أنزلت الزجاج. أخرجت رأسها، وصاحت بصوت عالٍ:

– عندما يتصل نجيب. هل تريدين منه أي شيء؟

لم أرد عليها. كدت أن أشتمها. أن أفرج عليها خلـق الله. أن أجعلها مسخرة للعابرين.

هي التي نادت علي مرة ثانية. بنت فـاجرة. تقتـل القتيل وتمشي في جنازته. تخرب البيت وتقف حارسة علـى بابه. سألتني:

– عندما يتكلم نجيب – ولا بد وأنه يتكلم كثيـرا – والجملة الاعتراضية مطت حروفها طويلاً وهي

تنطق بها. هل تحكي له ما رأيناه أم لا؟ ألـيس من الأفضل أن نخفي عنه كل هذه البلاوي؛ حتى لا يحدث له مكروه في الغربة، وهو بعيد عـن إخوته.

قلت لها بعلو الصوت:

– اخرجي منها وهي تعمر!

لوحت بيدها. ابتسمت الابتسامة القديمة. الابتسـامة الطفولية التي أحببتها عندما رأيتها لأول مرة في بيتها. قالت لي:

– محال.

سألتها:

– وما المحال؟

قالت:

– خروجي من الموضوع.

تركتها ومشيت مع الولد والبنت. كان آخر ما سمعته منها: لقد أصبحت في قلب الحكاية يا طنط.

مشيت مقهورة مكسورة الجناح. مهزومة في معركة لم أخضها.

خُيل إلي أنني قد لا أصل إلى البيت. الحقيبة معلقـة في كتفي. والبنت لا تزال واقفـة بسـيارتها. لـم تتحـرك. أوشكت أن أعود إليها وأطلب منها الانصـراف مـا الـذي يمنعها أن تخبط علينا الباب وتدخل الشقة؟ حتى تقتل عايـدة بالحيا، تغتالها، وتقتل ما في بطنها.

كنت أريد أن أنهي المشهد بأسرع ما يمكـن. ربمـا كانت عايدة تشاهدنا. وإن رأت ما يجري قد تموت. أسرعت في سيرى. اشتكي الولد، وشكت البنت من عدم قدرتهما على متابعتي في السير. أبطأت ثم أسرعت. ثم أبطأت حتى وجـد نفسي أمام باب الشقة. ضغطت الجرس. عندما انفتح البـاب شعرت أنني قد كتب لي عمر جديد.

كنت قد طلبت من الولد. ومن البنت ألا يتكلما عـن المرأة التي كانت معنا. ألا ينطقا باسمها. لم تكن لدي أي ثقة في التزام الأطفال بما يطلب منهم لكن طلبت مـنهم ذلـك والسلام. لأنهما لو تكلما لتحولت حياة عايدة إلى جحيم. ولما

رأيت وجهيهما مثقلين بالأسئلة. قلت لهما، إنهما بعد أن يكبرا ويتقدم بهما العمر سأحكي لهما الحكاية كلها.

***

دخلت. أول ما نظرت له كان طب الفاكهـة. كـان مكانه خاليا؛ تشاءمت، أشرت إلـى الولـد. وقلـت اسـمه. وأشرت إلى البنت وقلت لها اسمها. رحبت بهمـا. وعايـدة كانت غاضبة. كيف أبيت في مكان غير بيت العائلة؟ كيـف هان علي قضاء الليل بعيدا عن أحب الأماكن إلى نفسي؟ قلت لها: الدوخة والمشي والجري هي السبب.

جلست في بيت ابني. وجلس الولد والبنت. حكيـت لعايدة

- دون الدخول في التفاصيل – ما جرى لي منذ أن تركتها. حتى عدت إليها. وذلك بعد أن حـذفت موضوع ندا كله.

قالت عايدة إن نجيب لم يتصل بها. التليفونات معطلة بسبب الزلزال، لا بد وأنه حاول الاتصال ولم يتمكن. كانـت

عايدة تتصرف بسكينة وهدوء ما كانا يشعان منها بـالأمس؟ ماذا جرى منذ أن تركتها؟ هل أحست بما فعلته من أجلها؟

طلبت من عايدة أن تستعد للسفر معي إلى البلد الآن وفورا. خفت عليها أن أتركها بمفردها. خفت عليها من البنت النورية. قد تضربها. بالسيارة وهي تسير في الشـارع. قـد تؤجر بعض الباطجية ليبقروا بطنها ويغتالوا الطفـل الآتـي وهو مجرد جنين.

هل توافق عايدة على السفر إلى البلد؟ قد تعـارض الفكرة. ربما تريد البقاء في بيته. قالت إنها فـي شـهورها الأخيرة. وتحتاج أن تكون تحت إشراف طبيب. قلت لها:

- وهل سنأخذك إلى بلاد واق الواق؟ عندنا أطبـاء ودكاترة ومستشفى وحكيمات. وفـي أقـل مـن نصف ساعة نكون في مصر. كيف تخافين وأنت معي؟

طلبت أن يكون السفر غدا وليس اليـوم. قالـت إن نجيب لا بد وأن يتصل بها. قلت لها: سنتصل بـه بمجـرد وصولنا إلى البلد. سنسجل مكالمة ونحولها على البلد. وافقت

أن تسافر معي. استأذنت ودخلت لكي تلبس ملابسها. لبسـت وخرجت سألتني عن الولد والبنت. قلت:

- سنأخذهما معنا وسنقول لأبي الولد والبنت إنهما معنا.

قالت لي: أبو الولد ليس عنده تليفون قلت: سـأبلغه حتى بإرسال تلغراف، لكني أريد المشي من هنا قبل الدقيقـة القادمة. قالت لي: تحت أمرك يا نينة لا أستطيع أن أقول لك لا.

اتجهنا نحن الأربعة إلى الشارع. بحثنا عن تاكسـي. أفهمتها أنني ليس معي ولا مليم. ضاع ما كان معي خـلال الرحلة، قالت معها من الفلوس ما يكفي. كنت أتصور أننـا سنركب التاكسي حتى أحمد حلمي ومن هناك نركب تاكسـيا بالنفر إلى البلد.

فوجئت بعايدة تقول للسائق. الروضة. توقف وقـال لها إنه يريد أن يقاولها على الأجرة فهو لن يشـغل العـداد؛ لأنه سيعود فاضيا من البلد البعيد، قالت له إنها على الـرغم من معرفتها أنه لن يعود فارغًا. فإنها ستعطيه ثلاثين جنيها.

تحرك التاكسي. وقف السائق، يبدو أنه كان مترددا في القيام بالمشوار، توقف أكثر من مرة. ليضع بنزينًا في السيارة. ووقف في محطة ليكشف على الكاوتش. وثالثة لضبط الموتور. رابعة ليتأكد من أنوار السيارة. ورغم أنه لم يكن بطيئًا فيما يقوم به. إلا أنه خُيل إلي أنه استغرق وقتًا طويلاً قبل الخروج من مصر.

عندما لاحت لي الحقول التي على مشارف المدينة. وشممت رائحة الأرض المروية حديثًا. ووصلت إلى خياشيمي رائحة الزهور والحقول والخضرة حتى تشهدت وبدأت أعيش تفاصيل القصة المحزنة كلها من جديد.

***

كنت وحيدة عندما سافرت.

وها نذا أعود برفقة أربعة.

الولد والبنت وعايدة والذي في بطنها.

هل أريد أكثر من هذا؟

مازال السؤال يدق عظام رأسي:

هل فات الأوان يا أبنائي؟

كنت قادرةً فقط على طرح السؤال.

أما الإجابة عليه.

فقد كانت حكاية أخرى.

عند مشارف الروضة. نظرت في ساعتي. كانت الثالثة والربع بعد الظهر بالدقيقة والثانية..

كانت دهشتي كبيرة

لكن خوفي الآن أصبح أكبر.

تمت

أغسطس ١٩٩٨